معهد مولاى الحسن

بنو عباد باشبيليـــــــة

بقلم الاستاذ

عبد السلام احمد الطود

27 رجـــب
سنة 1365 هـ.

27 يـــونيــه
سنة 1946 م.

تطـوان

مطبعة كريماديس - شارع محمد الطريس رقم 17 - تطوان (المغرب)

تصدير

بقلم الاستاذ عبد الله كنون

كانت هذه البعثة الحسنية التي ذهبت الى مصر سنة 1938 للارتواء من معين العلوم والآداب، فى عاصمة البلاد العربية، حدثا مهما فى تاريخ النهضة الفكرية بالمغرب على الاقل فى هذه المنطقة الخليفية، وكان عدد افرادها الوافر مظنة لكونها سوف تنجب عددا وافرا من النبغاء في العلوم والآداب، يسدون من مفاقر هذه المنطقة الى الرجال من هذا القبيل، وكان اولئك الافراد الذين سبق لهم ان حصلوا على حظ من الثقافة العالية في المغرب، من بين اعضاء البعثة هم معقد الرجاء فى تلقيح الثقافة المغربية بالثقافة المصرية، وايجاد نتاج جديد منسجم التقاطيع والقسمات مع النتاج المستجد في الشرق العربي، وهو في الوقت نفسه، محافظ كل المحافظة على الروح المغربية الصميمة.

وهكذا كان، فما مر على زمن ايفادها بضع سنوات، حتى صار افرادها يتواردون على الوطن، وفيهم: الفقيه، والاديب، والاستاذ، والمهندس، والطبيب.

ولا ريب ان من خير العناصر، كان في هذه الجماعة مؤلفنا

الاستاذ الكاتب النابغة، السيد عبد السلام الطود، فانه تخرج فى التاريخ من كلية اصول الدين، بالجامعة الازهرية.

وما رجع الى المغرب، حتى ابان عن نشاط فكري كبير، في ميادين التدريس والكتابة والمحاضرة. وكتابه هذا الذي نقدمه، من احسن الادلة على نضجه الادبي، ونبوغه العلمي التاريخي.

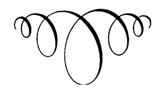
تناول حضرته فيه، تاريخ فتح العرب لبلاد الاندلس، وقيام الدولة العربية بها، بين زعازع الفتن، ونوازع الخلافات الناشبة بين العرب انفسهم، وبينهم وبين المغاربة الذين كانت لهم اليد الطولى فى فتح الجزيرة؛ مما ادى الى قوة المقاومة من جانب الاسبانيين اهل البلاد الاصليين، وتطرق الخلل الى اطراف المملكة الموحدة، فقام فى كل ناحية حاكم، وفى كل بلد امير، وانقسمت البلاد الى ملوك طوائف، كان منهم بنو عباد، اصحاب اشبيلية.

وكانت مملكة بني عباد اقوى هذه الممالك، وكان بنو عباد ابعد ملوك الطوائف اثرا فى النهضة العلمية والادبية، وحفظ التراث الفكري والحضارة العربية فى الاندلس، فالتاريخ لهم تاريخ للحياة السياسية والاجتماعية والادبية فى الاندلس، خلال المدة التي سيطر فيها ملوك الطوائف على الفردوس المفقود.

وقد استوفى الاستاذ الطود، جوانب البحث في هذا الموضوع المتسع، فافاض في ذكر تأسيس دولة بني عباد، واوليتهم واوائلهم، وحروبهم وعلاقاتهم مع مجاوريهم من الدول. ثم تخلص لذكر واسطة عقدهم وهو المعتمد بن عباد، فأوعب الكلام في نشأته، وتكوينه السياسي والادبي وولايته الحكم، والمشاكل التي عرضت له في حياته، ودخول المرابطين الى الاندلس باستدعائه، واضاعته عرشه بعد ذلك. ثم عرض للكلام على الحياة السياسية، والاقتصادية، والادبية، في الاندلس اثناء

هذا العهد، فوفاها حقها مـن العـرض والتحليـل، وكـل ذلك بطريقة علمية مدللة بالشواهد والمراجع، من عربية واجنبية، مع عدم الحيف على جهة من الجهات، ومناقشة الـآراء الزائفة التي تكون لبعض المؤرخيـن ولا سيما الاجانب في هذه الجزئية او تلك ، فعمل المؤلـف إذن ، عمـل تام، لا غبار عليه، ولا ياتيه النقص من جهة الاجهة البشرية، التي تعرف ان الكمال لرب الكمـال!

ولهذا فان معهد مولاي الحسن للابحاث، قد احتفل بهـذا الكتاب وقام بنشره رغبة في تعميم فائدته، واظهارا لنبوغ صاحبه الـذي نهنئه ونؤمل له في الميدان الثقافي كل تقدم ونجاح.



جروب معين التاريخ لأهل التأريخ

مقدمة للمؤلف

بِسمِ اللّه الرَّحمَنِ الرَّحِيم

ربنا عليك توكلنا، واليك انبنا، واليك المصير.

وبعد فهذا بحث كنت وضعته في «بني عباد باشبيلية»، لانال به شهادة العالمية من درجة استاذ في التاريخ.

دعاني الى العمل فيه ما تنطوي عليه هذه الفترة من تاريخ الاندلس من قصة شيقة، مثيرة للنفوس والعواطف، نرى فيها الشجاعة والاقدام مرة، والجبن والخور اخرى، قصة تجعل القاريء يرتفع بخياله وحسه الى اجواء كلها سحر وجمال، وفيها ما يجعل القاريء يرتد بخياله وحسه ايضا الى عالم مظلم مليء بالدموع والاحزان.

وشيء آخر دعاني الى بحث هذا الموضوع، ذلك ما رأيته في دراستي لتاريخ الاندلس من قلة اهتمام كتاب العرب بدراسة هذه الفترة التي تعد من ازهى عصور الاندلس، سواء في الحياة السياسية او الاجتماعية او الثقافية، فقد كتب الكثير من الناس في تاريخ الاندلس الا ان كتابتهم لم تكن لتتجاوز دراسة حياة عصر بني امية السياسي والثقافي، فاذا ما وصلوا الى عصرنا الذي ارخناه، مروا به مر الكرام، واجملوا لنا القول عن عصر ملوك الطوائف، او عصر ملوك الاقطاع ـ الذين منهم بنو عباد ـ في سطور.

لهذا وذاك رأيت ان اقدم للقاريء العربي صورة حية لعصر بني عباد، السياسي والاجتماعي ، والثقافي ، فان وفقت فيما قصدت ، فذاك توفيق من الله، والا فحسبي ان اكون قد اجتهدت، ولكل مجتهد نصيب.

على اني لم اكن لانهض بهذا العبء الثقيل، لولا ما شملني به استاذي العزيز - محمد حبيب احمد - من رعاية جميلة، ومعونة صادقة في اخراج هذا البحث في حلته الجديدة، ولذلك لا يسعني الا ان اسدي لاستاذي الجليل شكري الجزيل على ما اسداه من جميل.

ومن توفيق الله، ان هذا البحث نال اعجاب اللجنة التي الفها المجلس الاعلى للازهر لمناقشتي في هذا البحث، وكانت مؤلفة من الاستاذ شفيق غربال وكيل وزارة المعارف رئيسا، والدكتور محمد ماضي والاستاذ عبد العزيز عبد الحق، والاستاذ عبد الفتاح السرنجاوي، والاستاذ محمد حبيب أحمد أعضاء،وجرت المناقشة يوم الخميس 29 مايو سنة 1947م، بمدرج كلية اصول الدين، وقد أبدت اللجنة الموقرة على هذا البحث بعض الملاحظات الفنية، حاولنا جهد الامكان اثباتها. وبعد المناقشة قررت اللجنة منحي شهادة العالمية، من درجة استاذ بدرجة جيد .

والله أسأل أن يعصمنا من الزلل ويوفقنا لصالح القول والعمل . انه على ما يشاء قدير، وبالاجابة جدير.

27 رجب 1365	عبد السلام احمد
27 يونيه 1946	الطود

بحث في المراجع

رجعت في كتابة هذا البحث الى مصادر بعضها يعد اوليا، لدراسة تاريخ الاندلس، وبعضها يقل عن هذه قليلا او كثيرا في الاهمية، وسأفرد هذا البحث للمصادر الاولية، مبتدئا بالكلام عن الاهم فالاهم منها.

1 ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة.

تأليف ابي الحسن علي بن بسام الشنتريني، المتوفي سنة 542هـ وقد نحى المؤلف ـ كما يقول لنا في هذا الكتاب ـ نحو الثعالبي في كتابة يتيمة الدهر. ولذلك فهو يقسم كتابه الى اربعة اقسام، كما قسم الثعالبي كتابه الى اربعة اقسام ايضا، وهو يقسم باعتبار الاقاليم، فجعل القسم الاول لاهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الاندلس، والقسم الثاني لاهل الجانب الغربي من الاندلس، وذكر اهل حضرة اشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي، والقسم الثالث لاهل الجانب الشرقي من الاندلس، ومن نجم من كواكب ذلك العصر في افق ذلك الثغر الاعلى، الى منتهى كلمة الاسلام هنالك، والقسم الرابع افرده لمن طرأ على هذه الجزيرة في المدة المؤرخة من شاعر، وآوى الى ظلها من كاتب ماهر، واتسع فيها مجاله، وحفظت في ملوكها اقواله، ووصل بهم ذكر طائفة من تلك الآفاق ممن نجم في عصره بافريقية والشام والعراق.

وقد تكلف ابن بسام في كتابه من السجع ما تكلفه الثعالبي في يتيمته، وكذلك سايره في ذكر الملوك والرؤساء، وما يكون من تأثيرهم في الحياة الادبية، وقد عرض ابن بسام كل ذلك عرضا تفصيليا في اسلوب رصين، ومعنى جميل.

ولعل ابن بسام رأى انه لا يمت الى التاريخ بصلة، وانه رجل من هواة الادب، لا من هواة التاريخ ، ورأى ان كتابه يحتاج الى الكثير من الرواية التاريخية، فسلك في ذلك مسلكا لا بأس به ، واعتمد في الكتابة التاريخية على مؤلف عرف بالصدق والامانة، هو ابن حيان القرطبي، المتوفى سنة 469 هـ فنقل كتابه بالنص وبالتلخيص، ويذكر لنا ابن بسام ذلك فيقول: «وعولت في ذلك على تاريخ ابن مروان ابن حيان فاوردت فصوله، ونقلت جمله وتفاصيله».

وقد اخرجت لنا جامعة فؤاد الاول القسم الاول مطبوعا طبعا انيقا في جزأين. وكذلك اخرجت لنا الجزء الاول من القسم الرابع، اما القسم الثاني فهو لا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية، والقسم الثاني اعتمدنا فيه على نسخة مخطوطة جلبت من العراق لجامعة فؤاد الاول.

2 ـ البيان المغرب في اخبار المغرب.

تأليف العلامة، ابي عبد الله محمد المراكشي، المعروف بابن عذارى المراكشي، الذي كان على قيد الحياة سنة 631 هـ. وهذا الكتاب ثلاثة اجزاء يتناول الجزء الاول تاريخ بلاد المغرب، من دخول عبد الله بن سرح سنة 27 هـ. وانتهى فيه الى سنة 602هـ. وبهذا الجزء نقص يسير من اوله وآخره، وقد اختلطت بهذا الجزء قطع من كتاب نظم الجمان لابن القطان والجزء الثاني يتناول تاريخ الاندلس، منذ الفتح الى وافاة الحاجب المنصور ويقول دوزي: ان هذا الجزء يعيد كل الجزء الخاص بالاندلس في كتاب

لمؤرخ قرطبي من مؤرخي القرن العاشر، هو عريب بن سعيد صاحب الصلة لتاريخ الطبري. أما الجزء الثالث - وهو الذي له اهمية خاصة في عصرنا الذي ارخنا له - فانه يتناول تاريخ سقوط بني امية، من ايام عبد الملك الحاجب بن ابي عامر، وتاريخ ملوك الطوائف، وقد عثر على هذا الجزء ليفي بروفنسال ناقصا فنشره كما وجده، وقد اعتمد بن عذاري في جل هذا الجزء على ما كتبه ابن بسام في كتابه السابق الذكر. وقد الحق ليفي بروفنسال بهذا الجزء كتابا آخر مجهول الاسم والمؤلف وهو لا يقل - في نظرنا - اهمية عن البيان المغرب رغما عما لحق به من بتر.

3 - العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في ايام العرب والعجم والبربر. ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر.

تأليف قاضي القضاة. ولي الدين، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن، المعروف بابن خلدون المتوفى سنة 808 هـ. رتبه على مقدمة وثلاثة كتب، المقدمة في فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه، والالمام بمغالط المؤرخين، والكتاب الاول في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب. والكتاب الثاني في اخبار العرب واجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليفة الى عصره. والكتاب الثالث في اخبار البربر ومن اليهم من زناتة، وذكر اوليتهم واجيالهم، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والعدل.

ويعتبر هذا الكتاب - رغما عما يشعر به القاريء من نقص في عرض الحوادث، ومن ركاكة في الاسلوب - مصدرا من اهم المصادر في التاريخ الاسلامي. اما ما كتبه عن البربر فيعد من اهم المصادر في

كل ما يتعلق بالحياة العربية والبربرية بالمغرب، فهو ثمرة لجهود خمسين سنة، قضاها المؤلف في البحث والتنقيب، وفي مشاهدة الحوادث عن كثب، وفي الاطلاع على الوثائق الرسمية المعاصرة.

اما المقدمة فان المؤلف قد تناول فيها كل مرافق المعرفة والحضارة العربية، وهي زيادة على ذلك، تمتاز بالوضوح وحسن العرض والعمق في التفكير، وستبقى الى الابد مصدرا يعتمد عليه في دراسة الحضارة العربية.

4 ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب،
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب.

تأليف العلامة، احمد المقري المغربي. قسمه الى قسمين؛ الاول يشتمل على عدة ابواب في صفة جزيرة الاندلس، وحسن هوائها، وفتحها على يد طارق ابن زياد، وفي ذكر قرطبة، والتعريف بمن رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق، وبعض الوافدين عليها من اهل المشرق، وفي ذكر تغلب العدو على الجزيرة. والقسم الثاني افرده في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب، الذي وضع من اجله هذا الكتاب، وذكر اشياخه الذين اخذ عنهم، ومخاطبة الملوك والاكابر، وايراد جمل من نظمهم ونثرهم. وهذا الكتاب حافل بالمعلومات في كل ما يختص بالاندلس، فقد اودعه صاحبه كل ما حفظه او وقف عليه من تاريخ وجغرافية وقصص ونكات، وشحنه بمقتطفات شعرية، واخرى نثرية واخبار الزهاد والمتصوفين. وكان كل ذلك في غير تناسب ولا تناسق. فبينما تراه يحدثك عن حياة الزهد والتصوف اذ به ينتقل بك بمناسبة او غير مناسبة الى الحديث عن حياة اللهو والطرب، ومجالس الشراب.

ورغما عن ان هذه الموسوعة قد جمعت لنا كل ما هب ودب عن الاندلس الا انها لم تتحدث لنا عن التاريخ السياسي لعصر بني عباد

وهو عصر كنا ننتظر من مؤرخ كالمقري ـ الذي لم يبق شيئا في الاندلس الا وتحدث عنه ـ ان يبدىء ويعيد في الحديث عن بني عباد ومن عاصرهم من ملوك الطوائف . واكنه لم يفعل واكتفى بان ترجم للمعتضد ترجمة بسيطة نقلها عن الفتح ابن خاقان، وكذلك ترجم للمعتمد وتكلم لنا عن مقطعاته الشعرية التي قالها في مختلف المناسبات ناقلا كل ذلك عن الفتح بن خاقان وما عدا ذلك فان هذا الكتاب يعد من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها في نظم الحكم، بالاندلس والحياة الاجتماعية والادبية بها .

5 ـ الانيس المطرب بروض القرطاس، في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

تأليف ابي الحسن (او ابي عبد الله) علي بن محمد بن احمد ابن عمر بن ابي زرع. ويسمى ايضا ابا محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي . الف ابن ابي زرع كتابه هذا لابي سعيد عثمان بن المظفر المريني المتوفى سنة 731 هـ .

ولهذا الكتاب قيمة عظيمة في تاريخ المغرب الاقصى من ابتداء دولة الادارسة، الى عام 724 هـ. وقد اعتمد المؤلف في كتابه على مصادر لم يذكر لنا اسمها، كما انه اعتمد عند كلامه على دولة بني مرين على وثائق رسمية.

وكان الانيس المطرب اساسا لكتاب آخر كتبه محمد بن قاسم ابن زاكور، المتوفى سنة 1120هـ، وسماه المعرب المبين. عما تضمنه الانيس المطرب وروضة النسرين، وقد اعتمدنا على هذا الكتاب في الفترة التي تبتديء بقيام دولة المرابطين الى سقوط دولة بني عباد .

6 ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب.

تأليف الشيخ الفقيه الحافظ محي الدين بن محمد عبد الواحد المراكشي، المولود بمراكش سنة 581 هـ. الفه إجابة لرغبة أحد فضلاء زمانه الذي لم يذكر لنا اسمه، وضمنه اخبار الاندلس وحدود اقطاره وسير ملوكه، وذكر من لقيه او روى عنه من الشعراء والعلماء والفضلاء وفرغ من املائه يوم السبت لست بقين من شهر جمادى الآخرة سنة 661 هـ، والكتاب يمتاز بالوضوح وحسن العرض الا انه يوجد به نقص في وسطه يشمل فترة تبتدىء بوفاة الحكم الاول بن هشام سنة 206 وتنتهي بولاية هشام الثاني المستنصر.

وما عدا ذلك فالكتاب من الكتب القيمة في دراسة الاندلس وقد اعتمدنا عليه من أول الرسالة الى آخرها.

7 ـ اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام.

تأليف ذي الوزارتين محمد بن عبد الله بن سليمان السلماني المعروف بلسان الدين بن الخطيب، المتوفي سنة 776 هـ، اخرج لنا ليفي بروفنسال القسم الثاني منه، وهو دراسة قيمة لعصر بني امية بالاندلس وملوك بني حمود، وملوك الطوائف والثوار، وقد اعتمدنا على هذا الكتاب فى اغلبية اقسام الرسالة.

وينسب الى ابن الخطيب مؤلف آخر، لا يقل عن الكتاب السابق في الاهمية، ويظهر انه لمؤلف آخر مجهول وذلك هو:

8 ـ الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشيـة.

وهو كتاب ـ رغما عن انه مطبوع طبعا سيئا ـ الا انـه يحتـوي على معلومات وافية عن تاريخ مراكش٬ واخبار من كان بها مـن دولتي المرابطين والموحدين وملوكها، ولابن الخطيـب مؤلفات اخـرى سنشير اليها في فهرس المراجع.

9 ـ قلائد العقيـان.

تأليف ابي نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان، المتوفى سنة 535 هـ، او سنة 529 هـ. قسمه الى اربعة اقسام، الاول في محاسن الرؤساء وابنائهم، وانموذج من مستعذب انبائهم. والثاني في ذكر محاسن الاعيان، من الوزراء والكتاب، والثالث في ذكر محاسن اعيـان القضـاة ولمع من اخبار العلماء، والرابع في بدائع نبهاء الادباء، وروائع فحول الشعراء.

وبهذا الكتاب معلومات شيقة عن المعتمد ابن عباد، ونبـذ مـن اشعاره التي كانت تصدر عنه في مختلف المناسبات، ولو ان ابن خاقان عرض لنا صورة عن ادباء وشعراء الاندلس في اسلوب غير هذا الـذي التزم فيه الشجع السقيم، والقول الغريب، لكان كتاب قلائد العقيان قطعة فنية رائعة، ولكنه تكلـف فيـه ما تكلـف من الغموض فـي القول حتى ان القاريء لقلائد العقيان لا يكاد يفهم منه شيئا.

جروب معين التاريخ لأهل التأريخ

ـ تمهيد ـ

(عرض اجمالي لحال الاندلس قبيل قيام دولة بني عباد)

في شهر رجب سنة 92 ه (اكتوبر سنة 711م) نزلت جيوش العرب والبربر في الاندلس تحت امارة قائد بربري عظيم هو طارق ابن زياد. وفى اقل من سنتين، منذ ابتداء الفتح غدت الاندلس حتى حدود جبال البرانس (1) خاضعة لسلطان الاسلام.

ولو ترك طارق وموسى ـ الذي اتى بعده سنه 93 ـ لامرهما لنجحا في تدويخ اوروبا حتى يصلا الى دار الخلافة عن طريق القسطنطينية(2). ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك استدعاهما قبل ان يتمما خطتهما ومهما تكن الاسباب والدواعي التي حدت بالخليفة الى استدعائهما فانه لا شك ان رجوعهما يعد كارثة على مستقبل الاسلام. اذ لم يكد القائدان يتوجهان الى المشرق حتى تنفس «بيلايو» ـ وهو احد زعماء الاسبان ـ الصعداء وشيد الحصون المنيعة في الجبال والف النواة التي طردت المسلمين بعد ذلك من الاندلس (3).

---

1) جبال البرانس او البرتات او البرت هي الجبال الفاعلة بين اسبانيا وفرنسا وتسمى ايضا الحاجز. راجع معجم البلدان تحت مادة اندلس تقويم البلدان ص111-118. الادريسي ص 176. نفح الطيب ج 1 ص 64 ـ 66 دائرة المعارف الاسلامية ج 3 ص39.

2) ابن خلدون ج 4 ص 117. نفح الطيب ج 1 ص85 .

3) نفح الطيب ج 2 ص 521. اخبار مجموعة ص 28.

وحاول عبد الرحمن الغافقي سنة 113 ه (731م) ان يتوسع في الفتح ويكمل ما وقف عنده طارق وموسى من قبل، فاستولى على القسم الجنوبي من بلاد الغال (سبتمانيا) واخذ يغير على برغنـدي وانتصر علـى دوق اوكيتانيه عند اسوار «طلوشة» سنة 114 ه (732م).

وبينما عبد الرحمن يعبر نهر اللوار فاجاه شارل مارتين، او شارل ذو المطرقة كما يسمونه، بجيش يفوق في عدده وعدته جيش عبد الرحمن وهناك في «بواتيه» وقعت معركة تعد من المعارك الفاصلة في التاريخ اذ هزم فيها المسلمون شر هزيمة سنة 115 ه (سنة 733 م). وبهذه الموقعة التي تعرف عند المسلمين بموقعة «بلاط الشهداء» زال الخطر الذي يهدد اوروبا من مسلمي اسبانيا (1).

بدأ العرب بعد فترة الغزو يوجهون نشاطهم الى الاصلاح الداخلي في البلاد، فالغيت حقوق الطبقات الممتازة ورفعت الاعباء الثقيلـة التـي كانت تهدد كيان الطبقة الفقيرة. وتحـرر العبيد واصلحت احوالهـم واصبحوا مستقلين بزراعتهم، كما نال اليهود المضطهدون حريـة اقامـة الشعائر الدينية، وكذلك تمتع المسيحيون بحرية الاعتقاد (2).

وكان اول عمل ايجابي للتوفيق بين المسلمين والنصارى هو ذلك العمل الخطير الذي قام به عبد العزيز بن موسى بن نصير، فقد الف هذا الحاكم ديوانا لتطبيق الاحكام الشرعية وتنسيقها حتى توافق مشـارب السكان. وشجع الزواج بين الفاتحين والاسبان بأن تزوج ارملة روذريق المسماة بأم عاصم (3).

واجتهد خلفاء الاندلس وامراؤها في (استكمال فخامة الملك وتشييد

1) نفح الطيب ج 2 ص 52 قصة العرب في الاندلس. ص 26. السيـد اميـر علـي ص 127 - 129.

2) قصة العرب في الاندلس ص 42. السيد امير علي ص 97. وما بعدها.

3) ابن القوطية ص 11. اخبار مجموعة ص 20. البيان المغرب ج 2 ص 22.

القصور وجلب المياه وبناء الارصفة وتشييد القلاع والحصون، بدأ بذلك عبد الرحمن الداخل ثم جاء احفاده من بعده فنحوا نحوه في الاصلاح(1).

غير ان العرب الداخلين الى الاندلس حملوا معهم المنافسات القبلية التي ذهبت بريحهم في الشرق والغرب فدبت بينهم عقارب الحسد والغيرة والتفريق ولم ينجحوا فى كبح جماحهم او التقليل من غلوائهم، حتى صح ان يقال فيهم «انهم قد منحوا ملكا لم يحسنوا تدبيره » اذ كانت ريح العصبية القبليه تعصف بكل المقاطعات التي استولوا عليها بالاندلس. وكانت القبلية هي بعينها التي تغلبت على خلفاء بني أمية في دمشق عند ما كانوا يعينون امراء الاندلس. وتبعا لما تمليه روح العصبية ووفقا لهذه الاهواء كان الامراء يبقون في مناصبهم او يعزلون منها، وفي كثير من الاحيان كانوا يقتلون (2).

ومما كان يزيد النار لهيبا ان هذه النزعة القبلية اقترنت بحركة اخرى كانت لا تقل عنها خطرا، ذلك ان «اليمنية» في كل مكان كانت تجنح الى الآراء الشيعية، في حين كانت «المضرية» تتمسك بمذهب اهل السنة اما البربر الذين كانوا يعدون خطرا على العرب جميعا فان الكثير منهم كان يعتنق مذهب الخوارج.

وبذلك كان من الصعب على اي حاكم - مهما بلغت قوته او حكمته - ان يستطيع التوفيق بين ميول واهواء هؤلاء جميعا، وبينما كانت المضرية واليمنية تتنازعان السيادة في الاندلس، كان البربر من ناحية اخرى يشكون مر الشكوى من الحيف الذي نزل بهم من العرب وينقمون عليهم سلوكهم في توزيع الاسلاب والغنائم، اذ كان البربر

---

1) راجع غابر الاندلس وحاضرها ص 28 وابن خلدون ج 4 ص 125 - 127 - 130 - 144 .

2) اخبار مجموعة ص 22 وما بعدها. ابن القوطية ص 14 . المراكشي ص 9 ابن خلدون ج 4 ص 118 .

يرون ان الاندلس فتحت بسيوفهم واريقت فيها دماؤهم، ومع ذلك فان العرب تجاهلوا هذه الحقيقة عند توزيع الغنائم. وكل ما جوزي به البربر هو ان اعطيت لهم الهضبة الوسطى الجرداء من سهول «استرامادورا» وجبال «ليون» الثلجية، بينما اخذ العرب نصيب الاسد، واستولوا على المقاطعات الغنية في الاندلس، ولعل العرب ارادو بهذا التوزيع ان يجعلوا من البربر خط دفاع يحول بينهم وبين هجمات نصارى الشمال.

واتفق ان قام البربر في شمال افريقية بثورة ضد احد ولاة الامويين الجائرين وهو «عبيد الله بن الحبحاب» وكان يقود هذه الثورة ميسرة السقاء، فلم يكد بربر الاندلس يسمعون بثورة اخوانهم حتى قاموا هم ايضا بثورة اخرى بزعامة «مونوسا» البربري احد قواد طارق، وحمل البربر السلاح في الولايات الشمالية في «غاليسية» و «ماردة» و «قوريه» وهجموا على «طليطلة» و «قرطبة» و «الجزيرة الخضراء» محاولين الاتصال باخوانهم في شمال افريقية.

وارسل الخليفة هشام بن عبد الملك ثلاثين الفا من جند الشام لارجاع المقاطعات التي احتلها البربر في الاندلس فحال بربر افريقية بينهم وبين العبور الى الاندلس واعلموا فيه السيف ولاذت البقية الباقية منهم بالفرار الى «سبتة» وعبرت منها الى الاندلس.

ومن عجب أن هؤلاء العرب الذين جاءوا لنجدة اخوانهم بالاندلس انقلبوا عليهم واشتبكوا عليهم في صراع عنيف استمر الى عهد عبد الرحمن الداخل (1).

هكذا كانت حال الاندلس مختلة النظام في عهد الولاة. اما في عهد الخلفاء الامويين فان الحالة لم تتغير كثيرا عما كانت عليه من قبل.

---

1) اخبار مجموعة ص25 وما بعدها و 28 وما بعدها و 30 وما بعدها. ابن القوطية ص 14. البيان المغرب ج ا ص 38 - 44. ابن خلدون ج 4 ص 118 - 119. نفح الطيب ج 2 ص 56 - 62. الاستقصا ج ا ص 48، 49.

ذلك ان العرب والبربر كانوا لا يستطيعون القاء اسلحتهم بسبب الاحقاد الدفينة بينهم.

يضاف الى ذلك ان المولدين - وهم الاسبان الذين دخلوا في الاسلام حديثا - كانوا في صراع عنيف بين العرب والبربر على السواء تدفعهم الى ذلك النعرة القومية، تؤيدها نزعة المساواة التي جاء بها الاسلام وهي النزعة التي اخفق كل من العرب والبربر في تطبيقها اذ كانوا يرون انهم اصحاب البلاد بحق الفتح والغلبة.

وكذلك كان ولاة الاقاليم ينتهزون الفرص بالخلفاء، فكانوا كلما رأوا خليفة نزلت به مصيبة بادروا الى اعلان العصيان وطمعوا في الاستقلال بما تحت ايديهم اسوة باستقلال الخلفاء انفسهم عن قاعدة الحكم في الشرق. وقد يطول بنا الحديث لو حاولنا ان نؤرخ لهذه الثورات.

وكانت طبيعة الاندلس الجغرافية ذات اثر كبير في اعتصام الولاة عند الثورات في الجبال المنيعة.

وبينما كانت الاندلس تنعم في عهد عبد الرحمن الاوسط 206 - 238 هـ، 822 - 852 م، بنوع من الاستقرار، اذ تجددت الحركة القومية، غير انها لم تكن صادرة عن المولدين بل ان مبعثها كان من الاسبان المسيحيين وهم الذين يعرفون في تاريخ الاندلس بالمستعربين، اولئك الذين تركهم المسلمون احرارا في الاقامة في دار السلام، وفي مزاولة عباداتهم. وكان يتزعم حركة المستعمرين، وهي التي تعرف بحركة الاستشهاد اسقف قرطبة «يولوجيوس» ومعه اسقف آخر يسمى «الفارو» وجاء الى قرطبة سيل لا حد له من المتطوعين المسيحيين يريدون الاستشهاد في سبيل المسيح. وكان المستعربون - كما يقول بعض المستشرقين (1) - «يبغضون المسلمين اشد البغض ويحملون افكاراً خاطئة على محمد (صلعم)

---

1) السيد امير علي ص 415 - 417 نقلا عن دوزي.

وتعاليمه». وذات يوم ادى بهم حماسهم الجنوني ان يدخلوا مساجد المسلمين في اوقات صلواتهم وراحوا يرسلون الشتائم المنكرة على محمد ودينه، وطبيعي انهم لقوا من عبد الرحمن جزاءًا وفاقا وهو الاعدام. وظلت هذه الحركة طيلة عصر عبد الرحمن الاوسط وشطراً من «صر محمد الاول 238 - 273هـ 852 - 886م. الى ان امر محمد هذا بقمع تلك الحركة بكل شدة وعنف، وقتل زعيمها يولوجيوس اسقف قرطبة سنة 245هـ - 859م. وقد بلغ من استشهد في هذه الحركة من المسيحيين اربعة واربعين شهيدا(1).

وفي عهد محمد الاول تجددت حركة المولدين وقامت ثورة خطيرة كان يقودها عمرو بن حفصون، وكان هذا الثائر ينحدر من نسل امراء القوط فاراد ان يعيد مجد اسلافه في الاندلس ونادى بالثورة في «ببشتر» بناحيتي «ريه» و «مالقة» وانضم اليه كثيرون من جند الاندلس وسرعان ما صار له السلطان المطلق على سائر المنطقة الجبلية الواقعة بين «رندة» و «مالقة»

رأى ابن حفصون ان الفرصة سانحة لمعاكسة الامويين فكاتب ابن الاغلب صاحب افريقية وهاداه واظهر دعوة العباسيين في الاندلس ولولا ان ابن الاغلب كان في شغل شاغل بالاضطرابات التي كانت قائمة بافريقية لنجح في استمالته وتضييق الخناق على اموي الاندلس ولما رأى ابن حفصون ان المذهب الشيعي قد بدأت تظهر تعاليمه في افريقية وبلاد المغرب فانه اسرع الى اظهار الدعوة الشيعية في المناطق التي كانت خاضعة لنفوذه ليستميل عطف الشيعة عليه (2).

ومما تجدر الاشارة اليه انه في هذا العهد ازداد نفوذ الاشراف

---

1) قصة العرب في الاندلس ص 71 - 89 . امير علي ص 415 - 417 . دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص 685 ص 686 .

2) البيان المغرب ج 2 ص 106 - 108 . 117 - 122 . ابن خلدون ج 4 ص 132 ، 134 - 135 .

وهم حكام المقاطعات، ففي «ارغونة» ثار مسلم اسباني - اسماعيل بن موسى - واستولى على «سرقسطة» و «تطيلة» و «وشقة» واتخذ لنفسه لقب الملكية. وكذلك خرج في الولايات الغربية في «ماردة» عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، فيمن كان معه من المولدين واستقل البربر بالولايات الشمالية «استرامادورا» وجنوبي البرتغال. ومدينة «جيان».

هكذا كانت احوال الاندلس مضطربة عند ما تولى عبد الرحمن الناصر 300 - 350 هـ 912 - 961 م. وكان هذا الامير شجاعا مغوارا، فلم يكد يتولى عرش الاندلس حتى صمم على قمع الثورات التي خضبت ارض الاندلس بالدماء، كما عزم على تحطيم الارستقراطية العربية التي هدت كيان الاندلس بالفتن الداخلية. ونفذ الخليفة الجديد برنامجه كاملا اذ انه في السنة الاولى من حكمه استولى على «استجة» و «منتبليو» واجبر البربر في الغرب على الطاعة، ثم سلمت له «اشبيلية» و «قرمونة» ومات ابن حفصون قائد الثورة وحاول ابناؤه. جعفر، وسليمان، وحفص ان يستمروا في المقاومة ولكن ذلك كان من غير جدوى فان الناصر استطاع ان يتغلب عليهم واستولى على «ببشتر» سنة 315هـ 928م ثم سقطت «طليطلة» آخر حصن للثورة بعد ذلك بخمس سنين. وبذلك اسدل الستار على عهد الاضطراب مؤقتا (1).

وكان على عبد الرحمن الناصر ان يلقي درسا قاسيا على مسيحيي الشمال الذين كانوا كلما نزلت بالدولة كارثة داخلية جمعوا شملهم واغاروا على المدن الاسلامية المجاورة. وفي هذا الوقت كان مسيحيو

1) راجع اخبار مجموعة ص 151 . ابن القوطية ص 88 وما بعدها. البيان المغرب ج 2 ص 106 - 108 ، 117 - 122 ، 127 ، 130 ، 143 ، 179 . ابن خلدون ج 4 ص 133 وما بعدها. ابن الاثير ج 7 ص 144 ، 167 ، 169 . ج 8 ص 28 .

الشمال قد اجتاحوا مقاطعة «ماردة» بقيادة اردنو ملك «ليون» واسروا وذبحوا من سكان تلك المقاطعة ما شاءوا. ثم اتحد اردنو مع سانكو ملك «نافار» ووجهوا جملة عاثت في «تطيلة» و «طليطلة» و «فلتيرة» غير ان عبد الرحمن خرج بنفسه سنة 308هـ سنة 920م. وصد تقدمهم وانتصر عليهم في عدة مواقع، ثم استولى على «شنت اشتبان» و «كلونيه» و «قلهرة» و «مويز» وعدة حصون اخرى وظل عبد الرحمن في صراع مع المسيحيين الى ان تم له الانتصار عليهم عند ما قامت الاضطرابات بين ملوك المسيحيين (1).

وما كاد عبد الرحمن يفرغ من رد المسيحيين حتى عاد الى قرطبة ليحطم الارستقراطية العربية التي سببت له الكثير من المتاعب فنراه يعهد بمناصب الدولة الكبرى الى عنصر كان له خطره في تاريخ الاندلس ذلك هو العنصر السلافي او الصقلبي(2).

1) راجع البيان المغرب ج 2 ص 184 وما بعدها. قصة العرب في الاندلس ص 104 وما بعدها. السيد امير علي ص424 وما بعدها. دائرة المعارف الاسلامية ج 2 ص 689.

2) اصل هذا العنصر كما يقول ليفي بروفنسيال في كتابه « اسبانية المسلمة في القرن العاشر» ان لفظة صقالبة كان يطلقها العرب على الارقاء الذين كانوا يشترونهم من اوربة. واصل ذلك ان الجيوش الجرمانية عند ما كانت تغزو بلاد السلاف كانت تكثر من السبي منهم واذا رجعت من غزواتها بالاسرى باعتهم من عرب اسبانية. ولما كان هؤلاء الارقاء من جنس السلاف سماهم العرب صقالبة وصارت لفظة الصقالبة تطلق على جميع هؤلاء المماليك راجع الحلل السندسية ج ا ص 46 نقلا عن بروفنسال في كتابه المذكور ويذكر لنا ابن حوقل ص 75 وهو الذي رحل من مدينة السلام سنة 331 هـ ووصف جميع ما شاهده - ان اكثر جهاز اهل الاندلس الرقيق من الجواري والغلمان. ومن سبى افرنجة وجليقية والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الارض من الصقالبة الخصيان من جلب الاندلس، لانهم بها يخصون، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد ه».

وينبغي ان نضيف الى ذلك ان خلفاء الاندلس كانوا يتخذون حراسهم من بربر شمال افريقية، الا ان الحكم بن هشام كان اول من استكثر من الصقالبة وجعلهم المرتزقة وكان الامير عبد الله الاول يبعث في طلبهم الى اسواق القسطنطينية وسالونيك وكانوا في اول الامر يعرفون بالخرس لعجمتهم راجع الحلل السندسية ج 1 ص 46

أصبح هذا العنصر منذ عصر عبد الرحمن الناصر يتبوأ احسن المناصب في الدولة، وبهذه القوة شل عبد الرحمن سلطان العرب الاقوياء فنراه في سنة 327هـ يسند قيادة حملة حربية الى نجدة الصقلبي. اما في عهد ابنه الحكم فقد كان ساعده الايمن جعفر المصحفي، وغيره من كبار الصقالبة الذين كانوا يسمون بالخلفاء الاصاغر وقد اصبح الصقالبة ينافسون الطبقات الارستقراطية حتى ان احد الفتيان منهم الف كتابا سماه «الاستظهار والمغالبة على من انكر فضائل الصقالبة» (1).

ولكن سرعان ما اصبح الصقالبة في عصر تدهور الخلافة مصدراً لكثير من الاضطرابات حيث تكون منهم حزب قوي يناوىء كلا من العرب والبربر. وعلى ذلك نستطيع ان نقول ان عصر عبد الرحمن الناصر هو العصر الذي بدأ فيه تكوين الاحزاب السياسية التي عصفت بالامويين فيما بعد.

وتعتبر الفترة التي تبتدىء بعبد الرحمن الناصر وتنتهي بوفاة المنصور ابن ابي عامر من ازهى عصور الاندلس من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية، وكان عصر الحكم بن عبد الرحمن سنة 350 ـ 366هـ 961 ـ 976م من احسن عصور الاندلس وابهاها في ناحية العلوم والفنون، ولم يكد يتوفى هذا الخليفة الوديع سنة 366هـ سنة 976م حتى تولى عرش الاندلس فتى غر هو هشام المؤيد. وكان عصره مليئا بالحوادث الجسام التي احدثت في تاريخ الاندلس انقلابا خطيراً.

كانت النية بعد وفاة الحكم، متجهة الى مبايعة المغيرة بن الحكم الاخ الثاني لهشام المؤيد لان رجال البلاط من الصقالبة كانوا لا يرغبون في مبايعة هشام. وقد اساء التقدير كل من جؤذر، وفائق وغيرهما من الصقالبة عند ما ارادوا ان يشركوا معهم في مؤامرتهم رجلا واسع-

---

1) التكملة رقم 89

الاطماع، وهو المنصور بن ابي عامر، الذي كانت السيدة صبح ام هشام تهيم به حبا، فلقد اغتر القوم عند ما اظهر لهم ابن ابي عامر الموافقة بان تكون البيعة للمغيرة اخى هشام، وخرجوا من عنده ونشوة الفرح تكاد تذهب بعقولهم، غير انهم لم يكادوا يغادرون الباب حتى بعث المنصور بعض المخلصين له ليتخلصوا من المغيرة. وبذلك وصل هشام الى الحكم (1).

وكان عصر هشام المؤيد 366 - 399 هـ 976 - 1009 م. هو العصر الذي نشأت فيه دكتاتورية بني عامر، التي كانت هي الاخرى من العوامل التي اطاحت بعرش الامويين. وذلك ان المنصور بن ابي عامر عند ما رأى امامه طفلا صغيرا على عرش الاندلس تطلع الى الاستبداد واخذ بمعاونة السيدة صبح يعمل للتخلص من الاشخاص الخطرين الذين كانوا يعترضون سبيله، وكان عمله موجها في اول الامر الى صقالبة القصر فأوعز الى رئيسهم جعفر المصحفي فنكبهم وطردهم من القصر وكانوا ثمانمائة او يزيدون (2) وبعد ذلك تحول الى جعفر المصحفي والقى به فى غيابات السجن بتهمة الخيانة العظمى(3). ثم انقلب على صهره «غالب مولى الحكم» وهو الذى مهد له السبيل لقتل جعفر المصحفي فقتله ومحا اثره.

وبهذه الطريقة تخلص من ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وغيرهم من رؤساء العرب الذين نجوا من فتك عبد الرحمن

1) البيان المغرب ج 2 ص 977 · ابن خلدون ج 4 ص 147 . نفح الطيب ج 1 ص 185 .

2) البيان المغرب ج 2 ص 180 . ابن خلدون ج 4 ص 147 .نفح الطيب ج 1 ص 185

3) البيان المغرب ج 2 ص 282. مطمح الانفس ص 6 - 9. نفح الطيب ج 1 ص 185، 277. ابن خلدون ج 4 ص 147 .

الناصر بهم. (1)

وكان لا بد للمنصور من قوة حربية عتيدة ليرد بها هجمات المسيحيين في الشمال، وليقمع بها الفتن في الداخل ولذلك اتجه به تفكيره الى شمال افريقية فاستجلب منها البربر من « صنهاجة » و «مغراوة» و «بني يفرن» و «بني برزال» و «مكناسة» وغيرهم من قبائل البربر(2).

بهذه القوة العتيدة كان المنصور ينزل الفزع والرعب في قلوب اعدائه في الداخل والخارج، ففي الداخل تغلب على النزاع العربي وحطم الارستقراطية العربية. اما في الخارج فانه اصطدم مع مسيحيي الشمال وانتصر عليهم في عدة مواقع. ويقال ان المنصور قد «غزا اثنين وخمسين غزوة في سائر ايام ملكه لم تنكسر له فيها راية ولا فل له جيش ولا هلكت سرية» (3)

اصبح المنصور هو الحاكم الاعلى في الاندلس كما اصبح الخليفة الفتي في يده كالدمية يحركها كيف شاء فحجبه ومنع الناس من الاتصال به. وقد بنى المنصور مدينة اسماها « الزاهرة » اصبحت دار ملكه ونقل اليها الاموال والاسلحة. وامر ان يدعى له على منابر الاندلس وكتب اسمه في السكة والطراز. وخلاصة القول ان المنصور قضى على جميع مظاهر الخلافة حتى لم يبق للخليفة هشام الا السلطة الاسمية(4)

وعلى الرغم من ان سلطة المنصور كانت لا تقف عند حد الا انه لم يجرؤ على التفكير في خلع الخليفة والجلوس مكانه على العرش.

---

1) ابن خلدون ج 4 ص 147 .

2) نفح الطيب ج 1 ص 185 - 186 .

3) ابن خلدون ج 4 ص 148 . نفح الطيب ج 1 ص 186 .

4) البيان المغرب ج 2 ص 294 ، ابن خلدون ج 4 ص147 - 148 ، 185 ، 186 . نفح الطيب ج 1 ص 185 ، 186 ، 276 .

واكتفى بلقب «الحاجب المنصور» وكانت جميع الاعمال الرسمية تصدر باسم هشام المؤيد

لم يظهر ضعف الخلافة واضحا الا بعد وفاة المنصور سنة 374 هـ سنة 1002م، فانه لما توفى خلفه ابنه عبد الملك فجرى على سنة ابيه في الحجر على الخليفة ومنع الناس من الاتصال به وتلقب «بالمظفر» و «سيف الدولة» ورغما عن ان المؤرخين يصفون ايام عبد الملك هذا بانها كانت كلها اعيادا ومواسم حتى انهم كانوا يسمونها بالسابع تشبيها بسابع العروس، فان عصر عبد الملك كانت تتخلله معارضة صامتة احتجاجا على تصرفات بني عامر الذين كان الشعب يمقتهم (1)

وقد جدت امور كان لها تاثيركبير في الا نقلابات التي خضبت -فيما بعد- ارض الاندلس بالدماء، تلك ان الاندلس كانت قد بلغت القمة في الثروة والرفاهية ونتج عن هذا التطور المادي انظهرت طبقة اجتماعية جديدة تشبه الى حد كبير الطبقة الوسطى التي ظهرت في اوربا في العصور الوسطى.فلما ظفرت هذه الطبقة الوسطى من الطبقة الدنيا كان من الطبيعي ان تحقد الطبقة المحرومة على غيرها وان تكون هناك منافسة خطيرة بينها وبين الطبقة الارستقراطية التي كانت تنعم بالجاه والنفوذ وكانت الطبقة التي لحق بها الخراب في عهد عبد الرحمن الناصر والحاجبالمنصور ترحببكل ثورة تقوم فيقرطبة. ويقولدوزي (2) «كانت قرطبة وقتئذ عبارة عن مصنع هائل يزخر بألوف العمال المتهيئين عند اقل سانحة ان يهبوا جميعا لاعلان الثورة التي تجلب لهم الغنائم والكنوز» وكذالك«كان الاسبان الذين يمثلون جمهور الامةيؤثرون انيحكمهم

---

1) البيان المغرب ج 3 ص 13، 24، 27 ; المعجب ص 20 . نفح الطيب ج 1 ص 276 .

2) السيد امير علي ص 445 نقلا عن دوزي

ملك، ويحبون ان يتعاقب الملوك من اسرة واحدة ويذكرون بالاعجاب ما كان للدولة الا موية العظيمة من اثر عظيم، ولم يكن من رأيهم في الحكومة ان يكون المسيطر فيها وزيرا كيفما كان عادلا صالحا لان الملك في زعمهم يجب ان يحكم الامة بنفسه».(1)

هذه هي التيارات التي كانت تهب في سماء الاندلس عند ما تولى الحجابة عبد الرحمن بن المنصور الملقب «بسانكول» سنة 399هـ.

ولو ان بني عامر اكتفوا بالحجابة وظلوا يحكمون الدولة باسم هشام لبقوا في الحكم مدة طويلة غير ان اطماعهم لم تقف عند هذا الحد وارادوا ان يجعلوها كسروية في بيتهم فجروا بذلك عداوة البيت المالك من ناحية، وعداوة الشعب الذي كان لا يطمئن الى ان تكون الخلافة في غير البيت الذي اقترن ذكره بعز الاندلس ومجدها من الناحية الاخرى.

وبدأت احوال الاندلس تنذر بالشر عند ما تقدم عبد الرحمن ابن المنصور الى الخليفة هشام يطلب منه ان يوليه عهده. وكان الخليفة من الضعف بحيث خضع لاوامر «سانكول».وفي عام 399هـ صدر مرسوم ملكي يجعل عبد الرحمن المذكور وليا للعهد، وتسمى من الالقاب الملوكية «المأمون» و «ناصر الدولة» (2)

كان هذا القرار الذي صدر من هشام بمثابة قنبلة خطيرة انفجرت في الاندلس، فلم يكد عبد الرحمن بن المنصور ينتزع من الخليفة ولاية العهد لنفسه ويخرج في احدى الغزوات في الشمال حتى قامت الثورة في قرطبة. وكان يتزعمها امراء من البيت المالك المحرومون من العرش ويعضدهم في ثورتهم القبائل المضرية. وكان على رأس الثائرين محمد

1) قصة العرب في الاندلس ص 153 .

2) راجع مرسوم ولاية العهد في البيان المغرب ج 3 ص 44. نفح الطيب ج 1 ص 198 .ابن خلدون ج 4 ص 148 .

ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر. وقد ارسل ابن عبد الجبار قوة لمهاجمة سجن قرطبة فانطلق جميع من فيه من اللصوص والمجرمين، وكان جيش ابن عبد الجبار يتكون من هؤلاء مضافا اليهم العنازون والجزارون والسفلة وسائر غوغاء الاسواق. وهاجمت كل هذه العناصر الشريرة قصر الخلافة. واضطر هشام ان يتنازل عن العرش لابن عبد الجبار ولقب الخليفة الجديد «بالمهدي» سنة 399 هـ 1008 م.

واصدر الخليفة الجديد اوامره بان يجرد قصر بني عامر المسمى «بالزاهرة» فانتقل الغوغاء اليه وجردوه مما كان فيه من الاموال والاسلحة والخزائن والامتعة والآلات السلطانية، وبعد ما شفى الغوغاء غليلهم من تخريب القصر اعطيت لهم الاشارة بهدمه وحرقه. اما عبد الرحمن بن ابي عامر فانه لم يكد يرجع من غزوته المشئومة حتى القي القبض عليه، على مسافة قريبة من قرطبة، هو وحليفه «الكونت كاريون» ثم قتل (1).

استقبل اهل قرطبة محمد بن عبد الجبار استقبال الفاتحين واقيمت له الحفلات في جميع احياء المدينة وارباضها وظل اهل قرطبة اياما ينتقلون من حي الى حي بالطبول والمزامير فرحا بالخليفة الجديد.

وكان اول عمل قام به ابن عبد الجبار ان اخرج هشاما المؤيد من قصره، وسجنه في مكان خاص، ثم اخرج رجلا ميتا - اختلف في شخصيته هل هو يهودي او نصراني - وكانت هذه الشخصية تشبه هشاما المؤيد شبها تاما. وجمع ابن عبد الجبار حول الجثة القضاة والعلماء وكبار رجال الدولة ونعاه لهم على انه هو هشام المؤيد بعينه قد توفى حتف انفه. ولم يكد اهل قرطبة يسمعون بموت خليفتهم حتى اسرعوا - على

---

1) البيان المغرب ج 3 ص 50 - 74 ابن خلدون ج 4 ص 149 - 150. نفح الطيب ج 1 ص 199 .دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 693 .

مختلف طبقاتهم - الى قصر الخلافة حيث اقيمت صلاة الجنازة على روح هشام (1).

وكان من الاعمال الطائشة التي اقدم عليها ابن عبد الجبار عند ما استتب له الامر ان جلب عليه سخط البربر الذين كانوا عماد ملكه بان أهانهم ومنعهم من ركوب الخيل في المدينة ثم طرد نحو سبعة آلاف منهم من ديوان الجند، فانضم المتذمرون من اهل قرطبة الى البربر الذين اصبحوا في صفوف المعارضة وقاموا بزعامة هشام ابن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر وحاصروا بن عبد الجبار، غير ان هذا الاخير استطاع ان يتغلب على الثوار والقى القبض على هشام واخيه ثم قتلهما (2).

اما فلول البربر التي نجت من المذابح المروعة التي قام بها اهل قرطبة فقد اجتمعوا بظاهر المدينة وبايعوا سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب «بالمستعين» سنة 399 ه سنة 1009م. وحاصروا ابن عبد الجبار بقرطبة.

ويحكى ان ابن عبد الجبار لما ضيق عليه البربر الحصار، اظهر هشام ابن الحكم واقعده حيث يراه الناس في منظر يشرف على باب الشكال والقنطرة، وارسل الى القاضي ابن ذكوان فأتاه فبعثه الى البربر يقول لهم انما انا قائم دون هشام بن الحكم ونائب عنه كالخليفة والحاجب وهو امير المؤمنين فمضى ابن ذكوان الى البربر وادى لهم رسالته، فقال له البربر سبحان الله يا قاضي يموت هشام بالامس وتصلي عليه انت وغيرك واليوم يعيش وترجع الخلافة اليه وجعلوا يتضاحكون منه فاعتذر ابن ذكوان لهم من ذلك» (3).

---

1) البيان المغرب ج 3 ص 77 .

2) البيان المغرب ج 3 ص 74 وما بعدها. المعجب ص 26. ابن خلدون ج 4 ص 150 . نفح الطيب ج 1 ص 279 . ابن الاثير ج 8 ص 270

3) البيان المغرب ج 3 ص 89 .

ومن هذا الوقت الى سقوط الخلافة اصبحت قرطبة مسرحاللحروب الاهلية والاضطرابات الدامية ، وذلك ان ابن عبد الجبار لم يستطع مقاومة البربر الذين ضيقوا عليه الخناق حتى طردوه من قرطبة ودخلوا اليها مع خليفتهم سليمان المستعين، غير ان ابن عبد الجبار لم يستكن لهذه الهزيمة التي لحقت به، فاستنجد بنصارى الشمال فقدم له الكونت ريموند حاكم برشلونة، والكونت ارمنجود حاكم اراغون معونتهما، وكان المستعين من ناحيته قد استولى على قلعة رباح وحاول ان يستميل الى جانبه واضحا العامري، ولما فشل في ذلك لجأ الى اهل قشتالة فامدوه بالقوة والمئونة.

ويلاحظ ان المعونة التي كان يحظى بها المتخاصمان من المسلمين كانا يدفعان ثمنها غالبا، فقد اشترط المسيحيون على المتخاصمين ان ينزلا عن كافة البلاد التي كان عبد الرحمن الناصر والحاجب المنصور قد استوليا عليها.

استطاع ابن عبد الجبار بمعونة واضح العامري ونصارى الشمال ان يجبروا البربر وخليفتهم سليمان على الخروج من قرطبة وبعد أن وقعت بين الفريقين معركة دموية في «عقبة البقر» جنوبي قرطبة وامام هذه المذابح المروعة والخراب الشامل الذي لحق بالبلاد، قرر اهل قرطبة ان يتخلصوا من ابن عبد الجبار رئيس الفتنة - كما يسميه مؤرخو الاندلس - واغروا به اهل قصره من الموالي العامريين ، وعلى رأسهم واضح العامري فالقوا القبض على سيدهم السابق ثم اخرجوا هشاما المؤيد من سجنه وبايعوه بالخلافة للمرة الثانية سنة 400 هـ سنة 1010 م، ثم جاءوا بالمهدي وضربوا عنقه بين يديه ومثلوا بجثته تمثيلا فظيعا (1).

وبمجرد ان تولى هشام العرش اسند رئاسة وزارته الى واضح

---

1) الذخيرة قسم 1 ج 1 ص 24 وما بعدها . 28 وما بعدها. البيان المغرب ج 3 ص 81 - 83 - 90، ابن خلدون ج 4 ص 151 . نفح الطيب ج 1 ص 279. المعجب ص 26 - 27 .ابن الاثير ج 8 ص270 -271 . ابو الفداء ج 2 ص 138 -139 .

العامري، وحاول ان يستميل البربر الذين كانوا مع سليمان . الى صفه ولكنهم ابوا وظلوا يحاصرون قرطبة الى ان اقتحموها مع خليفتهم سليمان وفي هذه الاثناء اصيبت مدينة «الزهراء» باضرار فادحة والقى سليمان القبض على هشام المؤيد. وقد اختلف المؤرخون فيما فعل به فذهب بعضهم الى انه قتل - وهذا هو الصحيح - بينما البعض الآخر يرى انه فر الى مكة ثم عاد الى الاندلس حيث اقام بقلعة رباح الى ان استدعاه القاضي ابو القاسم ابن عباد وبايعه بالخلافة كما سيرد لنا.

وعلى كل حال فابتداء من هذا التاريخ وهو عام 403 ه سنة 1013م اصبحت شخصية هشام هذا شخصية خرافية، فكم من مرة سنراه ميتا ثم يبعث حيا.

وكان الذي وطد الامر لسليمان هم البربر ولذلك نراه يعينهم في مناصب الوزراء والحجاب، وكان من بين قواد جيش سليمان اخوان ينحدران من نسل الادارسة العلويين وهما. القاسم وعلي ابنا حمود. وقد احسن سليمان الظن بهذين القائدين فمنح عليا حكم سبتة وطنجة ومنح القاسم حكم الجزيرة الخضراء، غير ان علي بن حمود لم يعترف بهذا الجميل فلم يكد يرى الاحوال تضطرب على سليمان حتى ثار على ولي نعمته، وكاتب الموالي العامريين واخبرهم ان هشاما المويد - لما كان محاصرا بقرطبة - كتب اليه يامره بانقاذه من أسر المستعين ويعهد اليه بولاية العهد، واجمعوا رأيهم على ان يجتمعوا بمالقة، ومن هناك خرج علي بن حمود بمن معه من البربر والموالي العامريين وهاجم بهم قرطبة التي نادت به خليفة سنة 406 ه سنة 1016 م (1).

---

1 الذخيرة قسم 1 ص 25 - 28 . البيان المغرب ج 3 ص 113 . 117 .المعجب ص 28 . ابن خلدون ج 4 ص 152 . 153 نفح الطيب ج 1 ص 201 ، 224 . ابن الأثير ج 9 - 111 .

وكان علي بن حمود يأمل ان يجد هشاما المؤيد حيا، فلما دخل القصر هو وخيران العامرى وجده قد توفى واخرجت له جثته ورغما عن ان سليمان المستعين قد تبرأ من قتل هشام المؤيد الا ان علي بن حمود قد اخذه بدمه وقتله هو وابوه واخوه. ولم تطل مدة علي بن حمود في الخلافة اكثر من سنتين اذ قتله مواليه الصقالبة في الحمام سنة 408هـ سنة 1018 م، ثم خلفه اخوه القاسم صاحب الجزيرة الخضراء ولقب بالمامون وكان حكم هذا الخليفة مشربا بالعدل فحكم قرطبة ما يقرب من سنتين بمنتهى الحكمة والعزم. غير ان تلك المدة لم تكن كافية لارجاع الامن الى نصابه في الاندلس حيث قام نزاع جديد بين الادارسة اذ بعد عامين من حكم القاسم ثار عليه يحيى ابن اخيه سنة 412 هـ وزحف عليه من مالقة حتى اضطره الى الفرار من قرطبة ودخل يحيى اليها فبويع بها بالخلافة وتلقب «بالمعتلي» (1).

اما عمه القاسم فقد لجأ الى اشبيليه حيث بايعه بها القاضي ابو القاسم بن عباد ثم جمع حوله البربر وجاء بهم لحصار قرطبة فوجد ابن اخيه يحيى قد غادرها الى مالقة ولذلك لم يجد ابو القاسم مشقة في اقتحام قرطبة حيث جددت له البيعة . وبقي القاسم بقرطبة سبعة اشهر تخللتها اضطرابات مروعة وعلى اثرها اتفق القرطبيون على ان يعيدوا الخلافة الى بني امية، فطردوا القاسم من قرطبة سنة 414 هـ فخرج عنها موليا وجهه نحو اشبيلية مؤملا ان يقابل بها كما قوبل في المرة السابقة ولكن ظنه قد خاب كما سنرى.

اما اهل قرطبة فقد عهدوا بالخلافة الى عبد الرحمن بن هشام ابن عبد الجبار وتلقب «بالمستظهر» سنة 414 هـ (1023م). ولكنه لم يبق

(1) الذخيرة قسم 1 ج 2 ص 12 - 13 . البيان المغرب ج 3 ص 134 - 135. المعجب ص 33 . ابن خلدون ج 4 ص 153 . نفح الطيب ج 1 ص 201 ، 224 . ابن الاثير ج 9 ص 113 .

طويلا حيث اعقبه خليفة آخر هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصر وتلقب « بالمستكفي » 414 ـ 416 هـ (1023 ـ 1025م). ولم تطل مدته اكثر من سبعة عشر شهرا ثم خلفه آخر خلفاء بني امية وهو هشام المعتد بالله 418 ـ 422هـ. 1027 ـ 1031م. وكان الذى استدعاه الى عرش قرطبة الوزير ابو الحزم محمد جهور ابن محمد بن جهور عميد الجماعة.

وكان المعتد في هذا الوقت مقيما في « لاردة » فلم يصل الى قرطبة الا سنة 420 هـ. وبعد سنتين من وصوله ثار عليه جند قرطبة واخرج من «قصره هو وحشمه والنساء حاسرات عن اوجههن حافيات اقدامهن الى ان دخلوا الجامع الاعظم على هيأة السبايا فاقاموا هنالك يتعطف عليهم بالطعام والشراب الى ان اخرجوا عن قرطبة». وبقي المعتمد يجول في المدن والقرى الى ان لحق بمدينة لاردة التي كانت وقتئذ تحت نفوذ ابن هود فبقي في كنفه الى ان توفي سنة 427هـ.

وهكذا اضمحل نفوذ قرطبة وسقطت دولة بني امية فتساقطت اطرافها عن مركز الخلافة كما تتساقط اوراق الخريف،

وسرعان ما عزم اهل قرطبة على الغاء الخلافة واعلنوا حكما هو اشبه بالحكم الجمهوري في عصرنا الحاضر، وتزعم هذه الحركة بقرطبة الوزير ابو محمد جهور بن محمد بن جهود، ثم اعلنت الولايات الاندلسية استقلالها تحت سلطان حكام العرب او البربر او الصقالبة.

أ ـ وقد كانت للصقالبة ثلاث دويلات كلها على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة:

1 ـ طرطوشة وقد استقل بها نبيل الصقلبي 410 ـ 427هـ.
ثم استقل بها بعد ذلك مجاهد العامري الصقلبي 427 ـ 445 هـ.
2 ـ دانية والجزر الشرقية. وقد استقل بها امير صقلبي هو علي بن

مجاهد 437 ـ 469 هـ.وكان قبل ذلك من زعماء القراصنة ينحدر من اصل مسيحي.

3 ـ لورقة والمرية، وكان يحكمها بنو صمادح 433 ـ 443 هـ الا ان المرية، عند وفاة حاكمها الخصي زهير العامري 430 هـ انتقلت الى ايدي امير بلنسية عبد العزيز المنصور.

ب وقد استطاع البربر ان يحتفظوا لانفسهم بالدويلات الاتية :

1ـ غرناطة ـ استقل بهازاوي بن زيري الصنهاجي، الذي ينحدر من الدوحة الملكية في تونس، انضم الى المنصور ابن ابي عامر عام 373 هـ ولما دالت دولة الخلافة استقل بغرناطة عام 414 هـ مفضلا اياها على مدينة « البيرة » التي كانت آخذة في الاضمحلال ثم جاء من بعده باديس بن حبوس 430 ـ 466هـ.

2 قرمونة. وكانت تشمل قرمونة.وأشونة.وحصن المدور.وقد استقل بها بنو برزال 403 ـ 446 هـ .

3 رندة وأركش ومورور وقادس وكان يحكمها امراء من مغامري البربر الذين وطد لهم المنصور ابن ابي عامركبني قرة وبنى ارنيان وبنى نوح الدمري الا ان هذه الامارات لم تلبث ان آلت الى مملكة اشبيلية عام 458 هـ.

4 اما امراء بني حمود 427ـ449هـ اولئك الذين ينتسبون الى الدوحة النبوية الشريفة فقد صاروا حكاما على مالقة والجزيرة الخضراء وسبتة فكانوا ـ رغم تأصلهم في العربية ـ يحكمون شعبا من البربر ولذلك اعتبرنا امارتهم من الامارت البربرية.

ج اما مقاليد الحكم في المدن التي كانت تعلو على كل هذه المدن شانا فقد آلت كلها الى احفاد امراء العرب الذين وفدوا على الجزيرة في مستهل الفتوحات وقد آلت اليهم الامارات الاتية :

1 ففي قرطبة اقام بنو جهور وعلى راسهم ابو الحزم 422 ـ 435هـ حكومة جمهورية وتولوا قيادة الجيش.

2ـ وفي اشبيلية اصبح بنو عباد ملوكا يجاورهم بنو مزين في شلب وبنوبكر في ولبة وجزيرة سلطيش وبنو يحيى اليحصوبيون في لبلة. وقد آلت كل هذه الامارات الصغرى الى بني عباد وفي شمالي اشبيلية كانت منطقة الثغور السفلى في حوض نهر تاجة. وقد اقتسمها.

3 ـ بنو ذي النون وكانوا وسط شبه الجزيرة متخذين طليطلة عاصمة لهم وكان زعيمهم المأمون بن ذى النون436ـ468هـ.

4 ـ وبنو الافطس وكانوا على الساحل الغربي لشبه الجـزيرة متخذين بطليوس عاصمة لهم وكان زعيمهم محمد المظفر 437 ـ 461 هـ. ومن اهم مدنهم اشبونة وشنتمرية الغرب.

5 ـ وفي اقصى الشمال الشرقي كانت منطقة الثغور العليا بوادي نهر «ابرة» وقد اعتصم بها بنو هود متخذين لاردة عاصمة لهم ثم من بعدها تطيلة. ثم انتقلوا منها عام 431 هـ الى مدينة سرقسطة وكانت تتاخمهم كثير من الامارات العربية. كبني هاشم في «البنت» وبني رزين في شنتمرية الشرق وبني لب في تطيلة وبني يوسف المظفر في لاردة.

6 ـ اما في الاقليم الساحلي من هذه المنطقة فيما بين الدولتين الصقليبيتين طرطوشة ودانية. فقد قام عبد العزيز المنصور ـ احد احفاد المنصور بن ابي عامر ـ واتخذ بلنسية عاصمة لملكه واليه آلت المرية عند وفاة حاكمها زهير الخصي عام 430 هـ (1)

1) راجع المعجب ص 46 ـ 47 . نفح الطيب ج 1 ص 205 ـ 206 . ابن الاثير ج 9 ص 118 ـ 122 . ابو الفداء ج 2 ص 147 ـ 148 . دائرة المعارف الاسلامية تحت مادةاندلس ج 3 ص 43 . ملوك الطوائف ص 315 ـ 324 .

(بنـــو عبـــاد باشبيليـــة)

البـاب الاول

القاضـــي ابـــو الـقـــاسم

414 هـ ـ 433 هـ

- 1 -

القـــاضي مؤسس دولـــة بني عبـــاد

من هم بنو عباد ـ تدرجهم في مناصب الحكم ـ القـاضـي وموقفه مـن الخليفة العلوي ـ اهل اشبيلية يعرضون علـى القاضـي حكـم المدينـة ـ تكـوين الجيش.

✡ ✡ ✡

ذكر لنا ابو رافع ـ المعروف بابن حزم ـ في كتابه «الهادي الى معرفة النسب العبادي» (1) ان القاضي ابن عباد هو ابو القاسم محمد بن

1) راجع الذخيرة قسم 2 ص 403 نقلا عن كتاب الهادي الى معرفة النسب العبادي.

ذي الوزارتين ابي الوليد اسماعيل بن محمد بن قريش بن عباد بن اسلم بن عمرو بن نعيم بن عطاف من اهل حمص. وعطاف هو الداخل منهم بالاندلس في طلائع بلج بن بشر القشيري. وكان عطاف من اهل حمص من صقع الشام لخمى النسب صريحا. وموضعه من حمص العريش والعريش في آخر الجفار بين مصر والشام. ونزل بالاندلس بقرية يومين من اقليم «طشانة» (1) من ارض اشبيلية.

ولقد اتفق جميع المؤرخين على ان بني عباد ينحدوون من اسرة المناذرة حكام الحيرة قبل الاسلام. وكان بنو عباد يفخرون بهذا النسب كما كان الكثيرون من شعرائهم يمدحونهم ويستدرجونهم للعطاء باظهار نسبهم في اشعارهم. غير ان دوزي (2) «ينكر على بني عباد نسبهم هذا ويقول كان الشعراء الذين يريدون اشباع بطونهم يتحينون الفرص للاشادة بهذا النسب العريق المزعوم. على انه لم يوجد ما يبرر هذا الزعم، لان بني عباد والمتزلفين اليهم ومن يتملقونهم لم يستطيعوا ان يقيموا الدليل على ذلك».

ونحن لا نشارك «دوزي» في افكاره هذه، كما اننا لا نستطيع ان ان نسبح معه في اجواء من الخيال. وكان دوزي يريد من بني عباد - اذا ارادوا ان يعترف لهم بنسبهم - ان يرتفعوا به في سلسلة متصلة الحلقات حتى يصلوا الى المنذر بن ماء السماء، وبذلك يكونون قد اثبتوا نسبهم على طريقة النسابين القدامى الذين يصلون بنسب الشخص الى آدم، وهو شيء لا نستطيع ان نوافقه عليه. وكم تعجبنا القاعدة العامة التي وضعها الفقهاء المسلمون وهي ان الناس مصدقون في انسابهم ما لم يكن هناك دليل قاطع ينقض دعواهم.

1) يقول الادريسي ان طشانة كانت تعد من اقليم البحيرة وهو اقليم مبدؤه من البحر المظلم ويمر مع البحر الشامي. راجع ص 174 من المرجع المذكور.
2) ملوك الطوائف ص 20 .

وكما ان «دوزي» انكر على بني عباد نسبهم هذا فقد انكر عليهم كذلك ان الفرع الذي ينتسبون اليه قد كان يسكن بالحيرة وحجته في ذلك ان الجد الاعلى الذي استطاعوا ان يلحقوا نسبهم به كان يسكن «العريش» لا الحيرة.

ولم يدر «دوزي» ان العرب عند ما فتحوا الشام استوطن الفاتحون - ومن بينهم عرب الحيرة - اقاليمها. ولا يبعد ان يكون عطاف او ابوه قد انتقل مع هؤلاء في موجة الفتح الاسلامي فاستوطن اقليم حمص واختار منه العريش مقاما. وهناك القى رحله مؤقتا حتى يستأنف السير الى الاندلس.

وقد تقلب بنو عباد في وظائف الدولة الامويه بالاندلس فكان محمد ابن اسماعيل بن قريش صاحب الصلاة بطشانة كما كان ابنه اسماعيل قائدا في حرس الخليفة هشام الثاني ثم صار اماما لمسجد قرطبة ثم قدمه المنصور بن ابي عامر على خطة القضاء باشبيلية ولم يلبث ان جمع بين خطة القضاء وخطة الامانة سنة 413 هـ، ولغناه وثروته الكبيرة عاش عيشة كلها بذخ وترف، وآوى كثيرا من اشراف قرطبة الذين شردوا منها ايام الاضطرابات الاخيرة وانفق عليهم من ماله الخاص. واستطاع بسياسته ان يجلب حوله كثيرا من الاتباع والاصدقاء وكان يضيف الى هذه الصفات انه كان ذا عقل وحكمة ورزانة. والمعروف عنه انه كان يتوصل الى اغراضه عن طريق المكر والخداع وعلى هذه السياسة انشأ ابنه محمدا وعلمه كيف يتغلب على الصعوبات الكثيرة.

ولقد ظل اسماعيل يؤدي مهمته بكل نشاط حتى اصيب بمرض في عينيه لم يستطع معه ان يزاول اعمال الحكم فولى ابنه محمدا القضاء سنة 414هـ واكتفى هو بان يكون مستشارا له، وبقى على هذه الحال

الى ان توفى في السنة نفسها (1).

وكان ابو القاسم محمد القاضي يشبه اباه في العلم والدهاء وكان ذا ثروة كبيرة حتى انه كان يملك ثلث ارض اشبيلية. وقد اعتمد القاسم بن حمود على نفوذ بني عباد باشبيلية ولذلك عين القاضي ابا القاسم واليا عليها بعد وفاة ابيه. غير ان القاضي استطاع بالمكر والخديعة - التي توارثتها هذه الاسرة ابا عن جد - ان يطرد ولي نعمته من اشبيلية وينفرد بحكمها.

كان القاسم بن حمود العلوي - عند ما طرد من عرش قرطبة للمرة الثانية (2) - قد لجأ الى اشبيلية التي بدأت منذ ذلك الحين تتبوأ مكانة خطيرة، فقد كانت بتعداد سكانها الكبير وكثرة مواردها وبروزها في ميدان التجارة مدينة لها قوتها واثرها في شبه الجزيرة (3). وكانت في عصرنا هذا تدين بالولاء الى بني حمود مقتدية في ذلك بعاصمة الدولة «قرطبة» وكان القاسم بن حمود يأمل ان يجد في اشبيلية عضدا وسندا لارجاع عرشه الذي ضاع منه، غير ان انه استهل علاقته باهل اشبيلية بما زرعه في قلوبهم من بذور الحقد والبغضاء. اذ كتب اليهم في اخلاء الف دار من مساكنهم لسكنى جنده من البربر، فكان لهذا الحادث وقع سيء في نفوس الاشبيليين. وكان من الطبيعي الا يخضع اهل اشبيلية.

1) راجع عن نشأة بني عباد. الذخيرة قسم 2 ص 3. البيان المغرب ج 3 ص 193 - 195 انظر الذيل ص 314 - 315 . مطمح الانفس ص 10 . ابن خلدون ج 4 ص 156 . المعجب ص 57 . رقم الحلل ص 17 . اعلام الاعلام ج 3 ص 177. ذيل رواية آخر بني سراج ص 83 - 94.

2) راجع ص 17 من هذه الرسالة.

3) اشتهرت اشبيلية بكثرة عماراتها واسواقها النافعة كما اشتهر اهلها بيسرهم مما كانوا يربحونه من تجارة الزيت والقطن التي اشتهرت اشبيلية بتصديرهما الى جميع الآفاق. راجع معجم البلدان جزء 1 ص 254 . تقويم البلدان ص 10 . الادريسي ص 178 . الروض المعطار ص 18

لهذا الامر وبدأوا في الحين يفكرون في خلع طاعة بني حمود العلويين الا انهم كانوا يخشون ان تبطش بهم الحامية البربرية المقيمة بين ظهرانيهم اذ كان القاسم بن حمود عند ما خرج من اشبيلية لاسترجاع قرطبة من يحيى ابن اخيه قد ترك في المدينة ولديه محمدا والحسن ومعهما محمد بن زيري بن دوناس اليفرني على رأس الحامية البربرية باشبيلية ومن سوء حظ القاسم انه احسن الظن كثيراً بمحمد بن زيري قائد الحامية كما انه افرط في حسن الظن بقاضي اشبيلية محمد بن القاسم بن عباد الى درجة يستحق اللوم عليها، فقد استطاع قاضي اشبيلية ان يجلب اليه محمد ابن زيري قائد الحامية واطمعه في امارة البلد اذا هو اعانه في منع القاسم من دخول اشبيلية (1).

ولم يكد القاسم يرجع الى المدينة حتى وجد الابواب مغلقة في وجهه وفريقا من الاشبيليين معتصما باسوار المدينة بينما كان فريق آخر يعاونه البربر محاصرا قصر الامارة وبه ابناه محمد والحسن.

امام هذا الموقف الحرج لم يستطع القاسم بن حمود الا ان يتفاوض مع الاشبيليين على ان يسمحوا له باخراج امواله وكنوزه وابنيه من المدينة ولما اجيب الى طلبه غادر اشبيلية موليا وجهه نحو «قرمونية» (2) وكان قد وليها من قبل هشام المؤيد محمد بن عبد الله البرزالي ولكن القاضي ابا القاسم اوعز الى امير قرمونية بان يستبد بالمدينة ويخلع طاعة بني حمود العلويين

1) الذخيرة قسم 1 ص 12 . البيان المغرب ج 3 ص 142 . ابن خلدون ج 4 ص153 - 156 . المعجب ص 34 - 57 . نفح الطيب ج 1 ص 202 . ابن الاثير ج9 ص 114.

2) «قرمونية» بالفتح ثم السكون وضم الميم وسكون الواو ونون مكسورة وياء خفيفة وهاء، مدينة كبيرة بالاندلس يتصل عملها بعمل اشبيلية، كان يسكنها البربر . ويقول الادريسي ولم يزل اهلها ابدا اهل نفاق . راجع معجم البلدان ج 7 ص 62 . تقويم البلدان ص 116 . الادريسي ص 206 . الروض المعطار ص 158 .

كما انه من ناحية اخرى نصح الى القاسم بن حمود بان يذهب الى «شريش» (1) فلم ير القاسم ابن حمود مناصا مـن الالتجاء اليها وظل بها شبه منفي الى ان حاصره ابن اخيه يحيى والقى القبض عليه وظل مقيدا في سجنه ثم في سجن اخيه ادريس من بعد الى ان قتل سنة 427 هـ. (2)

لقد خـلا الجو للقاضي ابن القاسم بعد ما ازاح عن كاهله نير بني حمود وهو الآن يرقب ذلك اليوم الذي سيصبح فيه سيد اشبيلية وفي هذا الوقت الذي كان فيه القاضي يمني نفسه بالامارة اجتمع الاشياخ يليون ليختاروا من يسندون اليه امر مدينتهم فـاتفق رايهم على اختيـار القاضي واليا عليهم غير ان القاضي رفض هذا العرض السخي لاول مرة لما كان يخشاه من اضطراب الاحوال عليه او انقلاب بني حمود الى اشبيلية.

رفض القاضي هذا الطلب وقلبه مفعم حسـرة وندامة لما عسى ان يقع ولكن القوم لم يمهلوه واعادوا الكرة عليه والحوا في الطلب وهنا رأى القاضي الفرصة سانحة لان يتقدم خطوة نحو تحقيق اطماعه فاعرب للقوم عن عدم قدرته على تحمل اعباء الحكم وحده واشار عليهم بـان يختاروا له اناسا يكونون بمثابة وزراء واعوان لا يقطع امـرا دونهم ولا يحدث الا بمشورتهم. ولما كـان موقف اشبيلية لا يسمح لها ان تبقى بدون وال في هذا الوقت الدقيق فقد اجيب القاضي الى طلبه واختار لنفسه وزراء واعوانا من ذوي البيوتات العريقة النسب في اشبيلية فكان منهم ابو بكر الزبيدي

---

1) «شريش» اوله مثل آخره بفتح اوله وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت. مدينة كبيرة بالاندلس كـانت تعد من كورة شذونه وهي قاعدتها بينها وبين قلشانة خمسة وعشرون ميلا. معجم البلدان ج 5 ص 260 . تقـويم البلـدان ص 110 الادريسي ص 206 . الروض المعطار ص 102 .

2) الذخيرة قسم 1 ج 1 ص 16 . انظر هامش ص 17 . المعجقب ص 34 ابن خلدون ج 4 ض 153 ـ 156 . نفح الطيـب ج 1 ص 202 . ابن الاثير ج 9 ض 114 ابو الفداء ج 2 ص 146 ـ 147 .

ومحمد بن مريم الالهاني (1) وابو الاصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي وابو محمد عبد الله بن علي الهوزاني وغيرهم وبهذا وضع القاضي ابو القاسم نواة دولة بني عباد سنة414 ه.

لم يكد القاضي ابو القاسم يتولى شئون اشبيلية حتى بدأ يفكر في تكوين الاداة الحربية لتدفع عن اشبيلية شر اعدائها وكانت الاضطرابات التي توالت على مدن الاندلس قد حرمت اشبيلية الافراد اللازمين للدفاع عنها واختفى بزوال البربرعنهاكل اثر للجندي المتمرن على القتال ورغما عن ان المدينة كانت خاصة بالذخائر والاسلحة الا انها كانت تفتقر افتقارا شديدا الى من يستعملها ولم يكن القاضي ابو القاسم بالرجل الذي يقف عاجزا امام مثل هذه المشكلة فما لبث ان اقام مكاتب للتطوع في نواحي اشبيلية وان هي الا ايام معدودات حتى كانت العروض المغرية التي كانت تمنحها هذه المكاتب قد جذبت العدد الوفير من الجنود المرتزقة من كل صوب وحوب وهكذا شهدت اشبيلية خليطا عجيبا من الجنود عرب وبربر ومسيحيين وفرنجة كل هؤلاء يتزاحمون على مكاتب التطوع وسرعان ما كانوا يعينون في هذا الجيش العجيب.

ولما ازدادت حاجة القاضى الى الرجال لجأ الى شراء الرقيق فكان من نتيجة ذلك ان نشطت اسواقه ونزح المقاتلون من النوبة وبلاد السودان الى اشبيلية. وبجانب هؤلاء المجرمون الفارون من القانون في البلاد الاجنبية وكذلك اللاجئون السياسيون وانضموا كلهم الى جيش اشبيلية ليكونوا اساسا لجيشها العتيد .(2)

---

(1) هكذا ورد هذا الاسم في البيان المغرب ج 3 ص 195 -196 . اما في الذخيرة قسم 2 ص 5 والمعجب ص 34 ، 58 فقد ورد محرفا من مريم بالميم الى يريم بالياء، واما في ابن خلدون ج 4 ص 156 فيسميه محمد بن برمخ الالهاني.

(2) راجع الذخيرة قسم 2 ص 5 . اعلام الاعلام ج 3 ص 178 . اسكت ج 2 ص 118 - 119 . ملوك الطوائف ص 25.

وكانت الخطوة التالية لتكوين هذه القوة الحربية ان بدأ القاضي يفكر في تجريب مدى قوتها فجرد حملة على قصر «الاخوين»(1) في شمال اشبيلية وكان يسكن هذين القصرين اسبانيون مسيحيون ارتبط اسلافهم من قديم مع موسى بن نصير بمعاهدة وقد استطاع القاضي ان يتغلب على القصرين ويضم اليه قوتهما التي كانت تبلغ ثلاثمائة فارس(2)

والان وقد كمل استعداد الجيش فقد اصبح في امكان القاضي ان يقارع خصومه الكثيرين من العرب والبربر مستعملا في ذلك شتى الحيل والوسائل وهى السياسة التي رسمها ونفذها خلفاؤه من بعده.

وكان جل اهتمام القاضي منصرفا في اول الامر الى الادارسة او بني حمود الذين كانوا ينزلون الويلات باشبيلية.

✡ ✡ ✡

– ب –

بين القاضي وجيرانه

جيران بني عباد ـ النزاع بين القاضي ويحيى بن حمود ـ اعتراف القاضي بالخلافة ليحيى اعترافا مؤقتا ـ سياسة القاضي مع اهل اشبيلية النزاع بين القاضي وابن الافطس في باجة ـ وبينه وبين بني جهور فى قرطبة النزاع بين القاضي ومملكة ليون وموقف ابن الافطس من القاضي

تولى القاضي حكم اشبيلية والحال على ما رأينا فلم يلبث ان اصطدم

(1) جاء في صفة الاندلس لابن عبد المنعم الحميري ص 18 - عند كلامه على اشبيلية ان يوليوس قيصر لما بنى اشبيلية «بنى وسط المدينة قصبتين متقنتين عجيبتي الشأن تعرفان بالاخوين». راجع ايضا نفح الطيب ج 1 ص 76.

(2) ملوك الطوائف ص 25

بيحيى بن حمود الادريسي ذلك ان يحيى كان قد وقع مع عمه القاسم في نزاع ايام ان كان هذا بقرطبة فطرده ابن اخيه وانتقل الى «مالقة» وفي سنة 419هـ انتقل يحيى من مالقة الى «قرمونية»عند حليفه محمد بن عبد الله البرزالي وكان انتقاله حسب خطة موضوعة ليسهل عليه حصار اشبيلية وتهديد قرطبة فلما حلت النكبة بعمه القاسم امام ابواب اشبيلية خرج يحيى ومعه امير قرمونية وشدد الحصار على اشبيلية مصمماعلى الانتقام من القاضي ابن القاسم الذي رفض الاعتراف بسلطان الخليفة الحمودي

ولما كان القاضي لا يقوى على رد هجمات الخليفة الحمودي راى من الحكمة ان يتفاوض معه ويعترف له بالخلافة غير ان الخليفة يحيى لم يثق بعهود القاضي فطلب من الاشبيليين ان يبعثوا بابناء اشراف المدينة ليكونوا رهينة عنده وليضمن بهم ولاء الاشبيليين له فلم يقبل احد منهم ان يقدم ابنه ضحية للبربر الذين قد يعصفون به لاقل شبهة ولم يتقدم احد غير القاضي الذي بعث بابنه «عبادا» ليكون رهينة عند الخليفة ونظرا لما يعرفه يحيى عن القاضي من النفوذ والجاه فقد اكتفى بقبول ابنه وحده وبذلك ازداد نفوذ القاضي الذي اصبح لا يخشى شيئا من الخليفة ولا من الشعب (1).

كان القاضي عند ما اختارهالاشبيليون ليتولى امرهم قد اشترط لقبول هذا المنصب ان يعاونه بعض الوزراء كابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي ومحمد بن مريم الالهاني وابيالاصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي وابي محمد عبد الله بن علي الهوزني وغيرهم من كبار الاسر الاشبيليين(2) وكان غرضه من ذلك ان يحتضن رؤساء اشبيلية حتى لا يثوروا عليه وينازعوه السلطة في تلك الاوقات الحرجة اما الآن وقد اصبح في سلام

(1) راجع الذخيرة قسم 2 ص 7 ملوك الطوائف ص 26.

(2) راجع ص 25 من هذه الرسالة.

ووئام مع الخليفة يحيى فقد راى الا يترك هذه الفرصة تضيع وبادر بالقضاء على كل اولئك الذين كان قد اختارهم من قبل لمعاونته فهدم بيوتاتهم وشتت شملهم وبدأ بابي بكر الزبيدي وابن مريم الالهاني وكان من قبل قد طرد ابن حجاج وغيره من الوزراء وبذلك اصبح القاضي حرا طليقا لا يخشى رقيبا ولا عتيدا واختار لوزارته رجلا من الطبقة الدنيا اسمه «حبيب» يقول عنه ابن بسام (1) رجل من اهل بادية اشبيلية لم تكن له نباهة مذكورة ولا سابقة مشهورة او مع اهل زمانه شرا واوسعهم خديعة ومكرا (2) ولعل القاضي قد اختاره وليس له نفوذ ادبي في البلاد حتى لا يقلق راحته او يزاحمه في سلطته.

في هذا الوقت تطلع القاضي الى توسيع رقعة مملكته بالاستيلاء على على مدينة « باجة » (3) وكانت هذه المدينة تكاد تكون خرابا بلقعا مما اصيبت به من التدمير والتخريب من جراء النزاع الذي كان محتدما بين العرب والمولدين فتطلع القاضي الى الاستيلاء على هذه المدينة وتجديد ما تخرب من بنيانها وما كاد محمد بن مسلمة التجيبي المعروف بابن الافطس صاحب «بطليوس» (4)- يعلم ان ابن عباد يرغب في الاستيلاء على هذه المدينة حتى جرد حملة عليها بقيادة ابنه ابي بكر الذي خلفه فيما

---

(1) - الذخيرة قسم 2 ص 7.

(2) - راجع ترجمة حبيب هذا في بغية الملتمس ج 1 ص 213 والذخيرة قسم 2 ص 71 ونفح الطيب ج 2 ص 257 ومعجم الادباء ج 7 ص 43 .

(3) - «باجة» بفتح الباء الموحدة والف ثم جيم مفتوحة مدينة قديمة بالاندلس شرقي اشبونه اشتهرت بحسن عسلها واتقان اهلها لدباغة الادم تقويم البلدان ص 111. الروض المعطار 36 صبح. الاعشى ج 5 ص 223 .

4 - «بطليوس» بفتحتين وسكون ياء مضمومة وسين مهملة مدينة بالاندلس من اعمال ماردة تقع في الشمال الغربي من قرطبة على ضفة نهر «يانة» وكانت عاصمة ملوك بني الافطس في عصر ملوك الطوائف.

بعد باسم المظفر ـ وتم للمظفر الاستيلاء على باجة في الوقت الذي جاء فيه اسماعيل بن القاضي بن عباد على راس جيش اشبيلية ومعه محمد بن عبدالله البرزالي امير قرمونية وكان البرزالي هذا كثيرا ما يثير القاضي ويحرضه على مهاجمة قرطبة وبطليوس فوجد الفرصة سانحة ليحقق اغراضه وهي زرع بذور العداوة بين ملوك الاندلس (1) وعلى ذلك فقد جاءت جيوشه لمعاونة ابن عباد وحاصر الحليفان مدينة «باجة» واطلقت فرسانهما لتخريب القرى والمزارع التي كانت حول «يابرة»(2) وكان ابن الافطس قد استغاث بحليفه ابن طيفور امير «مارتلة»(1) وعلى الرغم من ذلك فقد انتصر الجيش الاشبيلي على خصمه وسقط الكثير من جيش ابن الافطس في المعركة واسر محمد بن الافطس وبعث القائد اسماعيل بن عباد بالاسرى الى ابيه ومن جملتهم اخ لابن طيفور واحتفظ محمد بن عبد الله البرزالي بمحمد بن الافطس اسيرا عنده في قرمونية(2).

ويظهر ان القاضي بن عباد قد ثمل بنشوة الانتصار وانصت لحليفه

---

1 ـ كان موطن بني برزال الاطي بارض المسيلة والزاب من افريقية وانتقلوا الى الاندلس في عهد الحكم المستنصر فكانوا جندا لبني امية الى ان وقعت الفتنة وتمزقت مملكة بني امية فاستولى بنو برزال على مدن «قرمونية» و «اشتجة» و«حصن المدور» وكان اول ملك منهم بالاندلس هو الحاجب ابو عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي الذي بويع بقرمونية سنة 404 هـ. وكان متلونا في سياسته بين امراء الاندلس فمرة مع بني عباد ومرة مع الادارسة بني حمود، ولعله كان يرمي من وراء ذلك الى احداث الفتن والاضطرابات في الاندلس السنية لانه كان خارجيا. راجع البيان المغرب ج 3 ص269 انظر الذيل ص 311 وما بعدها. اعلام الاعلام ج 4 ص 271 وما بعدها

(2) «يابرة» كما وردت في تقويم البلدان ص 116 .او «يبورة» كما وردت في الادريسي ص 181 . مدينة من اعمال بطليوس بينهما مرحلتان وقد اشتهرت بخصبها وكثرت خيراتها ويفرق ابن عبد المنعم الحميري في الروض المعطار بين «يابرة» و«يبورة» فيجعل الاولى من اعمال باجة والثانية مدينة اخرى يفصلها عن القصرين مرحلتان. راجع الروض المعطار ص 197 198 .

محمد بن عبد الله البرزالي الذي كان ينصح لهبمحاربة قرطبة وتبعا لذلك خرجت جيوش اشبيلية معللة النفس بالآمال لفتحها غير ان ابا الحزم جهور بن محمد بن جهور رئيس قرطبة خيب آمال المحاصرين اذ استنجد بالبربر من بني برزال الذين كانوا في «شدونة» (5) ولعل هؤلاء البربر لم يكونوا على وفاق مع اخوانهم بقرمونية وبذلك نراهم يبذلون مساعدتهم لقرطبة التي كانت في حرب مع ابن عباد وحليفه محمد بن عبد الله البرزالي امير قرمونية وكذلك كانت طائفة منهم تسند ابن الافطس في حربه مع ابن عباد وحليفه البرزالي وعلى ذلك هب بربر «شدونة» للدفاع عن قرطبة وطردوا ابن عباد وحليفه عنها (6).

وحدث في سنة 421هـ ان عقد الصلح بين ابن عباد وابن الافطس واطلق محمد بن عبد الله البرزالي سراح المظفر غير انه لما عرض عليه البرزالي ان يمر في طريقه على اشبيلية ليشكر للقاضي ابن عباد صنيعه وتفضله على اطلاق سراحه ثارت ثائرة المظفر وقال للبرزالي «مقامي في اسرك اشرف عندي من تحمل منته فاما انفردت باليد عندي والا ابقيتني على حالي» فاعظم ابن عبد الله البرزالي فيه عزته ونخوته وارسله معززا مكرما الى بلده بطليوس (7).

وصل المظفر الى بطليوس بعد اطلاق سراحه - وقلبه يضطرم حقدا وغيظا على القاضي ابن عباد وظل يتربص الدوائر بالقاضي حتى

---

(3) «مارتلة» حصن يقع على ضفة نهر «يانة» اشتهر بالمناعة والحصانة.

(4) الذخيرة قسم 2 ص 8 - 9 . البيان المغرب ج 3 ص 202 .

(5) بفتح اوله وبعد الواو الساكنة نون. مدينة بالاندلس وهي كورة متصلة بكورة «مورور» وكانت تعد من كور اشبيلية. راجع تقويم البلدان ص 10 . معجم البلدان ج 6 ص 244 . الروض المعطار ص 100 .

(6) الذخيرة قسم 2 ص 8 ملوك الطوائف 28 .

(7) الذخيرة قسم 2 ص 9. البيان المغرب ج 3 ص 202 . ملوك الطوائف ص28.

سنحت له الفرصة للانتقام منه وذلك ان القاضي اراد ان يغير على مملكة «ليون» بغليسية (1) ولما كان من المتعذر على القاضي ان يحقق هذا الغرض الا اذا سمح له ابن الافطس باختراق مملكته فانه بادر الى الاتفاق معه على ان يسمح له بالمرور في بلده وقد تم الاتفاق بين الفريقين وتنفيذا للخطة خرج اسماعيل بن القاضي سنة 425 هـ يقود جيشاً من الاشبيليين واخترق بلاد ابن الافطس واغار غارة سريعة موفقة على مملكة ليون ولكن عند رجوع الجيش الاشبيلي كان المظفر ابن الافطس قد اعد كمينا في شعب ضيق ليعترض ابن عباد ويبطش به ولم يكد اسماعيل يصل الى مقر الكمين حتى هبت في وجهه جيوش ابن الافطس واوقعت بجيش اسماعيل وقعة منكرة حتى ان اسماعيل قائد الجيش لم يملك الا الفرار في قليل من رجاله تاركا معظم جيشه تعمل فيه سيوف الاعداء.

ولم تكن هذه هي الكارثة الوحيدة التي نزلت بجيش ابن عباد فانه لم يكد يولي الادبار حتى تعقبته جيوش ملك ليون والحقت به خسارة فادحة. واصيب اسماعيل مع البقية الباقية من جيشه بمحنة شديدة حيث نفذ منهم الزاد وبلغت بهم المسغبة الى ذبح خيلهم ليردوا بلحومها رمق الجوع، وهكذا نجا اسماعيل بجلده وفلول جيشه الى مدينة «اشبونة» (2) آخر عمل والده (3).

ومن الطبيعي ان هذه الحركة من ابن الافطس اوغرت صدر ابن

---

(1) ليون من قواعد قشتالة تقع في شمال سمورة بانحراف الى الشرق تقويم البلدان ص 120 . الروض المعطار ص 174 .

(2) كانت اشبونة تعد من كورة «باجة» وهي بغربيها على شاطيء البحر المحيط وكانت مشهورة بحسن فواكهها وكثرة سمكها. راجع الادريسي ص 183 - 184 . الروض المعطار ص 16. صبح الاعشي ج 5 ص 219 .

(3) الذخيرة قسم 2 ص 8 - 9. البيان المغرب ج 3 ص 202 . ملوك الطوائف ص 28 .

✡ ✡ ✡

- ج -

القاضي وهشام المؤيد

القاضي ينادي بهشام المؤيد خليفة على الاندلس - شخصية هشام وموقف المؤرخين منها - استقبال اشبيلية لهشام المؤيد - موقف امراء الاندلس - موقف يحيى بن حمود - خصوم القاضي لا يعترفون بخليفته ويكونون حلفا ضده - المتحالفون يهاجمون اشبيلية - الحرب تكلف القاضي رأس ابنه - المنافسة بين قرطبة واشبيلية - موقف القاضي من الدعوة لهشام - رأى كوندي واشباخ والرد عليهما - وفاة القاضي.

كان القاضي ابو القاسم قد اضطر الى الخضوع لسلطة يحيى الحمودي ومبايعته. وكان يحيى قد اشتدت شوكته بالتفاف جميع امراء البربر حوله «وسلموا اليه الحصون والقلاع والمدن وعظم امره» (1).

وكان معسكرا بقرمونية محاصرا اشبيلية. ولم يكن القاضي بالرجل الذين يستكين لهذا الضغط من يحيى فوطد العزم على ان يقاومه بكل

(3) المعجب ص 35. ابن خلدون ج 4 ص 154.

ما اوتي من قوة. وبدأ يفكر في تأليف حزب من العرب والصقالبة (1) على ان يرأسه حاكم عربي واحد ليدفع خطر البربر الذين اصبح خطرهم واضحا (2).

ولم يكن خطر يحيى بن حمود هو الشيء الوحيد الذي كان يخشاه القاضي في ذلك الوقت. فقد كان هناك في قرطبة زعيم عربي لا يقل عن ابن عباد عزة ومناعة وكان ذلك الزعيم هو ابو الحزم محمد بن جهور رئيس الحزب الجمهوري بقرطبة، وكان ابو الحزم هذا يرى في نفسه الشخصية التي يجب ان يخضع لها كل ملك في الاندلس، غير انه لما ارسل، الى امراء مالقة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وسرقسطة وبلنسية، يدعوهم الى الاعتراف بطاعته لم يتنازلوا حتى بالرد عليه. وحاولوا ان يذيعوا في جميع انحاء اسبانيا مختلف الاشاعات عن حكمه الظالم» (3).

وفي الحق ان ابن جهور قد تغنت بفضله الركبان، فقد وضع حدا لتلك الاضطرابات المروعة كما انه طلع على اهل قرطبة بنظام جديد في الحكم يشبه الى حد كبير النظام الجمهوري في عصرنا الحاضر (4).

ازاء هذه التيارات المختلفة بين ابن عباد وخصومه، رأى ابن عباد - لكي يجمع حوله العناصر المعادية للبربر، ولكي يقضي على نفوذ يحيى وادعاءات ابن جهور - ان يذيع في جميع انحاء الاندلس سنة 427 هـ. ان هشاما الثاني المؤيد - الذي كان قد اختفى في عهد سليمان المستعين - لا يزال حيا يرزق، وانه ندب ابا القاسم القاضي الى نصرته

(1) راجع عن اصل الصقالبة ونشأتهم ص 8 من هذه الرسالة.
(2) ملوك الطوائف ص 30.
(3) يوسف اشباخ ج 1 ص 40.
(4) راجع عن ابن جهور الذخيرة قسم 1 ج 2 ص 114. البيان المغرب ج 3 ص 196. مطمح الانفس ص 14. الحلة السيراء ص 168 - 169.

وعونه. وامر القاضي اثر ذلك بالدعاء لهشام على منابر اشبيلية. واهاب بالمسلمين في اسبانيا ان يخضعوا لسلطة سيدهم الشرعية.

ولقد تضاربت الاقوال في شخصية هشام هذا، فبعض الروايات تذهب الى انه هو هشام المؤيد بعينه، كان مختفيا بمالقة لما انتقض على بن حمود على سليمان المستعين، ثم انتقل منها الى «المرية» عند زهير العامري وان زهيرا قد طرده منها وانتقل الى قلعة رباح وبقي بها الى ان اخبر به القاضي ابو القاسم فذهب اليه ليقدم له فروض الولاء والطاعة ويزيدون على ذلك ان هشاما اضطر الى الانتقال الى المشرق للحج وفي طريقه استولى الزنوج على ما كان يحمله من اموال وذخائر وبقى هشام يومين بعد ذلك بدون طعام ولا شراب حتى اضطر الى ان يشتغل مع فخار يعجن له الصلصال، وظل معه حتى حذق صناعة الفخار وبعد ذلك انتقل الى الاندلس في سنة 426هـ . وتنقل في بعض مدنها الى ان ان اخبر به القاضي فخرج اليه وجاء به الى اشبيلية حيث نادى به ملكا(1).

غير ان بعض المؤرخين الثقاة لا يسلمون بهذا الرأي ويذهبون الى ان هشاما هذا ليس بهشام المؤيد وانما هو مشبه به وان ابن عباد اوقفه لينال به مراده، وان هشاما هذا لم يكن سوى رجل يسمى خلفا الحصري كان يعمل في الحلفاء بقلعة رباح، وكان كثير الشبه بهشام المؤيد «فدبر ابن عباد خبره واهتبل الغيرة في ذلك، وانه اقل ما يجيء له معه دفع مكروه ابن حمود ونظم الناس على حربه» (2) .

ويذكر لنا ابو محمد بن حزم في اسلوب تهكمي انه قد «اجتمع في صقع الاندلس اربعة خلفاء كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بالموضع

---

(1) البيان المغرب ج 3 ص 197 - 198 . اعلام الاعلام ج 3 ص 179 .ابن الاثير ج 9 ص 118 . ابو الفداء 2 ص 147 .

(2) الذخيرة قسم 2 ص3 - 6. ابن الاثير ج 9 ص 118 . ابو الفداء ج 2 ص 147.

الذي هو فيه وذلك فضيحة لم ير مثلها دلت علـى الادبار المؤبد، اربعة خلفاء في مسافة ثلاثة ايام في مثلها كلهم يدعى بأمير المومنيـن، وهم. خلف الحصري باشبيلية على انه هشام المؤيد وذلك اخلوقة لم يسمع بمثلها ظهر رجـل ... بعـد اثنيـن وعشرين عاما من موت هشام فادعى انه هشام وشهد له انه هو، قوم خساس، من خصيان ونساء فبويع وخطب له على اكثر منابر الاندلس وسفكت الدماء به وتصادمت الجيوش وكان محمد ابن القاسم الحسني خليفة بالجزيرة ومحمد بـن ادريس خليفة بمالقة وادريس بن يحيى بن بن علي ببشتر» (1).

لم يكد القاضي يسمع بهشام حتى خرج هو وولده «وجميع خاصته وعبيده، ومعه اثواب الخلفاء وملابسهم وزيهم ومراكبهم فلم يشعر الرجل وهو خارج المسجد يعمل في حلفائه ان غشيه القوم واحاطوا به، وترجل القاضي وابنه وجميع من جاء معه، وقبلوا الارض بين يديه وترامى القاضي وابنه الى رجليه يقبلانها، فبهت الرجل مما عاين من ذلك وجعل يقول : «لست بالذي تعنون ولا بالذي تطلبون». وهم لا يردون عليه شيئا سوى التضرع والرغبة الى ان اقاموه من مكانه، وجردوه من خلقاته وألبسوه الكسوة الخلافية ووضعوا القلانس على رأسه، واركبوه ومشى القاضي وجميع من جاء معه امامه،... الى ان اتوا به الى اشبيلية وصائح يصيح يا اهل اشبيلية اشكروا الله على ما انعم به عليكم، فهذا مولاكم امير المؤمنين هشام قد صرفه الله عليكم وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم ونقلها من قرطبة اليكم فاشكروا الله على ذلك» (2). وما ان وصل هشام الحصري الى اشبيلية حتى جمع القاضي من بالقصر من خدم وحشم ليتعرفوا عليه، ولما كان الرجل كثير الشبه بهشام المؤيد

---

(1) البيان المغرب ج3 ص 244 . اعلام الاعلام ج 3 ص 166 .
(2) البيان المغرب ج 3 ص 99 ـ 201 . اعلام الاعلام ج 3 ص 179 ـ 180 .

فقد اذاع كل من رآه من خدم القصر انه هشام بعينه ولم يرد القاضي ان يكون هشام على مرأى من الناس ولذلك جعله في بيت مظلم وجعل ابنه اسماعيل حاجبا له يمنع الناس عنه لئلا يتعرف احد على حقيقة امره.

ثم كتب القاضي بن عباد الى جميع امراء الاندلس يطلب منهم البيعة لخليفتهم الشرعي، فبادر هؤلاء الى ارسال رسلهم الى اشبيلية للاستفسار عن حقيقة هشام هذا، فكانوا يدخلون عليه وهو في بيت مظلم واسماعيل بن عباد على رأسه ينقل كلامه الى الرسل، وكان القاضي يزعم للرسل ان هشاما قد اصيب بمرض في عينيه ولذلك جعل في بيت مظلم حتى لا يضايقه شعاع النور. فخرج الرسل وهم لا يدرون ما يفعلون، أيصدقون امر هشام ام يكذبونه.

كون ابن عباد حلفا من الامراء الذي الذين اعترفوا بسيادة هشام الحصري وهم: عبد العزيز بن ابي عامر الملقب بالمنصور أمير «بلنسية»(1) وابو الجيش مجاهد العامري امير «دانية» (2) ولبيب الصقلبي صاحب «طرطوشة» (3)، ومحمد بن عبد الله البرزالي امير قرمونية.

اما اهل قرطبة فانهم تلقوا خبر دعوة هشام مقرونا بالفرح والابتهاج غير ان زعيمهم ابا الحزم محمد بن جهور لما جاءته كتب ابن عباد

---

(1) «بلنسية» السين مهملة مكسورة وياء خفيفة. مدينة في شرقي الاندلس متصلة بكورة تدمير بينها وبين قرطبة ستة عشر يوما. راجع معجم البلدان ج 2 ص 279. تقويم البلدان ص 118 . الادريسي ص 191 . الروض المعطار ص 47 .

(2) «دانية» بعد الالف نون مكسورة بعدها ياء مثناة من تحت مفتوحة. مدينة من اعمال بلنسية على ضفة البحر شرقا. معجم البلدان ج 4 ص 28. الادريسي ص 192 .الروض المعطار ص 77.

(3) «طرطوشة» بالفتح ثم السكون ثم طاء اخرى مضمومة وواو ساكنة وشين معجمة مدينة متصلة بكورة بلنسية بينهما مائة وعشرون ميلا، معجم البلدان ج 6 ص 42، تقويم البلدان ص119 ، الادريسي ص 190 الروض المعطار ص 124

تطلب منه الدخول في طاعة هشام امتنع عن ذلك وحذر اهل قرطبة من تمويهات ابن عباد، فما كان من ابن عباد الا ان جرد حملة على قرطبة فقام ابن جهور بالدفاع عنها وظل ابن عباد طيلة يومه محاصرا لها ولما اعياه الانتظار فك الحصار عن قرطبة ورجع الى اشبيلية. ومع ذلك لم يكف عن اذى اهل قرطبة ومناوأتهم، ويظهر ان ابا الحزم محمد بن جهور رأى ان يتحاشى الاصطدام مع ابن عباد في الوقت الذي كان فيه يحيى بن حمود الادريسي فاغرا فاه يريد ان يبتلع قرطبة، لذلك بادر بالاعتراف بهشام وجدد له البيعة بقرطبة سنة 429 هـ. (1)

في الوقت الذي كان فيه ابن عباد يؤلف حلفا ضد البربر وخليفتهم يحيى بن حمود، كان يحيى يحاصر اشبيلية ويعيث في نواحيها فسادا مصمما على الانتقام من ابن عباد وان يجعله مثلا لغيره وقد اهاب يحيى بجميع البربر الذين كانوا يحتلون المدن الجنوبية لاسبانيا ان يمدوا له يد المعونة للقضاء على القاضي ابن عباد فلبوا طلبه وخرجت جموع غفيرة مكونة من بربر «شريش» و «شذونة» و «اركش» (2) و «مالقة» (3) ونزل الجميع بقرمونية مشددين الحصار على اشبيلية. وكان يحيى بن حمود سكيرا لا تكاد الخمر تفارق رأسه وكان قد طرد محمدا بن عبد الله البرزالي من قرمونية فالتجأ البرزالي الى ابن عباد وذات يوم بينما يحيى سادر في لهوه ومجونه، وقد لعبت الخمر بأم رأسه، اذ تسلل ابو الفتح البرزالي مع نفر من ابناء عمه ولحق

(1) الذخيرة قسم 2 ص 7. البيان المغرب ج 3 ص 201 . اعلام الاعلام ج 3 ص 180 . ابن الاثير ج 9 ص 118 .

(2) «اركش» حصن منيع بالاندلس على وادي لكه تقويم البلدان ص 110 . الروض المعطار ص 14 .

(3) «مالقة » بفتح اللام والقاف مدينة بالاندلس على شاطئ البحر، كانت قاعدة اقليم «رية». معجم البلدان ج 7 ص 366 . الادريسي ص204 الروض المعطار ص 177.

باشبيلية فاجتمع فيها مع محمد بن عبد الله البرزالي والقاضي ابن عباد واخبرهما بحالة يحيى وانه لا يكاد يفيق من سكره، وانه من الممكن مباغتته وهو على هذه الحالة، وعلى ذلك فقد عقد القاضي لابنه وقائد جيشه اسماعيل الذي خرج في سنة 427 هـ. ومعه محمد بن عبد الله البرزالي قاصدا الى قرمونية، وفي طريقه اليها ترك سرية في كمين وذهب هو ليستدرج يحيى الحمودي ليوقعه في الفخ، فلما وصل الخبر الى يحيى بقدوم الجيش الاشبيلي نهض قائما - وقد كان متكئا على سرير - وقال «وابياض بختي الليلة، وابن عباد زائري» وخرج يحيى الى باب قرمونية في نحو ثلاثمائة فارس (1). اكثرهم حاقد عليه، وهجمت جيوش يحيى في اول الامر هجوما عنيفا على جيش اشبيلية وتظاهر الجيش الاشبيلي بالاضطراب في صفوفه وصار يتراجع بانتظام. وبينما يحيى يتخيل انه قد حسب المعركة اذا بكمين الجيش الاشبيلي يهب في وجهه، وكان من سوء حظ يحيى ان كبا به فرسه فانقض عليه محمد بن عبد الله البرزالي وفصل رأسه عن جسمه، وما كاد البربر يرون سيدهم قد سقط في المعركة حتى اضطربت صفوفهم وولوا الادبار لا يلوون على شيء فاعمل فيهم الاشبيليون السيف حتى ثارت حمية البرزالي على اخوانه البربر فتوسط عند اسماعيل بن عباد برفع السيف عنهم. وسارع البرزالي الى قرمونية من دون ان يستشير حليفه ابن عباد فوجد عبيد يحيى قد اعتصموا بها، الا الاهالي قدموا له المساءة وفتحوا له ابوابها وعند ما دخل البرزالي المدينة توجه في الحين الى دار الامارة واستولى على ذخائر يحيى وكنوزه واباح حرمة نسائه، وعند ما وصل رأس يحيى الى اشبيلية سجد القاضي شكرا لله على هذا الانتصار وحذا حذوه كل من

(1) هذه رواية ابن بسام في الذخيرة قسم 1 ج 1 ص 271. ويذهب دوزي «ملوك الطوائف» ص 36 الى ان جيش يحيى كان عدده ثلاثة آلاف، ولم يشر دوزي الى مرجع خاص استقى منه هذا الرقم.

كان في مجلسه وبقى رأس يحيى في خزانة بني بي عباد حتى دخل المرابطون اشبيلية فطلبته حفيدته سبيعة من الامير سير بن ابي بكر وكان في اذن الرأس براءة فيها اسم يحيى بن علي (1).

والآن بعد ما انتصر القاضي ابو القاسم على يحيى الحمودي تطلع الى قرطبة ليحل فيها هو وخليفته المزيف، غير ان ابا الحزم ابن جهور وقف في وجه ابن عباد واستطاع ان يقنع اهل قرطبة بان ما يدعيه ابن عباد من وجود هشام المؤيد عنده ما هو الا كذب وزور، وبذلك منع ابن عباد وخليفته من دخول قرطبة واعقب ابن جهور هذا العمل بان قطع دعوةهشام الحصري ونقض بيعته(2) .

ثم تطلع القاضي بعد ذلك الى الانتقام من زهير اميـر المرية . (3) وهو الوحيد من امراء بني عامر الذي رفض دعوة هشام وفي الوقت الذي تحرك فيه الجيش الاشبيلي قاصدا الى المرية استغاث صاحبها باميرغرناطة (4)حبوس بن زيري الصنهاجي.

ازاء ذلك رجع الجيش الاشبيلي الى قواعده سالما من دون ان يقع قتال بين الفريقين(5).

---

(1) الذخيرة قسم 1 ج 1 ص 271 . البيان المغرب ج 3 ص 188 - 199 . اعلام الاعلام ج 3 ص 159 - 160 . المعجب ص 35 . ابن خلدون ج 4 ص 154 . ابن الاثير ج 9 ص 115 . ابو الفداء ج 2 ص 147 .

(2) ابن خلدون ج 4 ص 159 .

(3) «المرية» بالفتح ثم الكسر وتشديد الياء بنقطتين من تحتها. مدينة من كور البيرة اشتهرت باعمال الوشي والديباج. معجم البلدان ج 8 ص 42. الادريسي ص 197 . الروض المعطار ص 183 . معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ص 16 .

(4) «غرناطة» او اغرناطة مدينة بينها وبين وادي آش اربعون ميلا وكانت تعرف بغرناطة اليهود لان نازليها كانوا يهودا، وهي محدثة من ايام الفتنة شيدت مكان مدينة البيرة. الادريسي ص 203 . الروض المعطار ص 23 . معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ص 27 .

(5) ابن الاثير ج 9 ص 118 .

وفي الوقت الذي قتل فيه يحيى الحمودي بايع احمد بن موسى بن بقنه (1) ونجا الصقلبي لادريس بن يحيى ولقب بالمتأيد بالله وبايعه امير المرية واعمالها « رنـدة » (2) «والجزيرة الخضراء» (3) وعقد لاخيه يحيى على سبتة (4) وكان محمد بن عبد الله البرزالي ـ الذي كان حليفا لابن عباد ـ قد انقلب عليه وانضم الى اخوانه البربر وتكون حلف من مالقة وغرناطة وقرمونية ضد ابن عباد ووجه حملة الى اشبيلية سنة 429هـ . والى جانب هذا الحلف بقي مـن امراء الاندلس مـن لم يعتـرف بهشام ولم ينضم الى هذا الحلف نظرا لظروف جغرافية.

كان بنو ذي النون يقيمون باقليم «طليطلة» (5) بعيدا عن مقر هشام فلما كـانت الدعوة لهشام لم يعترفوا بـه ولم يهتم القاضي بامـرهم لبعدهم عن بلاده الا انه حدث بعد هذا التاريخ في عصر المتعضد ان تطلع يحيى بن ذي النون الى اشبيلية لتمد له يـد المساعدة في حربه ضد ابن الافطس فجاء وزيـر يحيى بـن ذي النون وهـو ابو عمر بن الحدي على

---

(1) هكذا ورد هذا الاسم عند المراكشي ص 41 . اما عند ابـن خلـدون ج 4 ص 154 ، وابن الاثير ج 9 ص 116 فقد ورد ابن بقية بالياء المثناة من تحت .

(2) «رندة» بضم اوله وسكـون ثانيـه حصن منيع بـالاندلس مـن اعمـال تاكرنا. معجم البلدان ج 4 ص 293 . الروض المعطار ص 79 .

(3) «الجزيرة الخضراء» او جزيرة ام حكيم. هي اول مدينة من مدن الاندلس وهي على جون الجزيرة الخضراء او جون جبل طارق، كانت متصلة باعمال شذونة وقد استخدمهـا العرب هي وجبل طارق مرفأ ومرسى، معجـم البلـدان ج 3 ص 99 . الادريسي ص 176 . الروض المعطار ص 73، دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 451.

(4) « سبتـة » مدينـة ببلاد المغـرب الاقصى علـى شاطيء البحر الرومـي مقابلـة للجزيرة الخضراء ومنها عبر العرب الى الاندلس . الادريسي ص 167 - 168. المغرب في ذكـر بلاد افريقية. والمغرب ص 103. الاستبصار في عجائب الامـصار ص 23.

(5) «طليطلة» بضم اوله وفتح ثانيه . مدينة بالاندلس تقع على نهر «تاجه» شرقي مدينة الوليد. وكان عملها يتصل بعمل وادي الحجارة. معجم البلـدان ج 6 ص 56. تقويم البلدان ص 118. الادريسي ص 187. الروض المعطار ص 130.

رأس وفد طليطلة ليقدم البيعة الي هشام الحصري وقرئت البيعة في مسجد اشبيلية سنة 436 هـ. وبهذاكسب بنو عباد نصرا جديداعلى خصومهم الذين ابوا الاعتراف بهشام الحصري (1).

قلنا ان البربر كونوا حلفا ووجهوا حملة الى اشبيلية سنة 429 هـ وقد اصبح المتحالفون الآن في ضواحي اشبيلية يعملون فيها من التدمير والتخريب ما يعجز عنه الوصف وقد أتلفوا واحرقوا كل ما استطاعت ايديهم ان تصل اليه ولم تقف هجماتهم العدائية الا عند ابواب «طريانة»(2) وهناك انبرى لهم ايوب بن عامر بن يحيى اليحصوبي قائد ابن عباد فاستطاع بمكره وحيله ان يزيح المتحالفين عن ضواحي اشبيلية وان يتسبب في نقض الحلف بين المهاجمين حتى انفضوا ورجعوا لحال سبيلهم وجوزى ايوب عن عامر بن يحى اليحصوبي بان عهد اليه القاضي بولاية «ولبة» (3) و «جزيرة سلطيش» (4) على ان يؤدي له الجزية (5).

وكان من الطبيعي ان ينتقم القاضي لما اصاب بلاده من التخريب على أيدي هؤلاء البربر ورأى ان يبتدئ بمحمد ابن عبد الله البرزالي امير قرمونية فجرد عليه حملة برئاسة ابنه اسماعيل وتقدمت هذه الحملة

(1) البيان المغرب ج 3 ص 220، 278 - 279.

(2) - «طريانة» تقع على الشاطئ الغربي الوادي الكبير مقابلة لاشبيلية التي تقع على الشاطئ الشرقي لهذا النهر. وكان يصل بين المدينتين جسر من خشب عائم على السفن. تقويم البلدان ص 110. صبح الاعشي ج 5 ص 535.

(3) «ولبه» او «اونبه» مدينة صغيرة غربي الاندلس من مدن جبل العيون تطل على جزيرة سلطيش وكانت احدى كور اشبيلية، معجم البلدان ج 1 ص 378. تقويم البلدان ص 110. الادريسي ص 188. الروض المعطار ص 135.

4 هي جزيرة صغيرة طولها نحوميل ونصف تحيط بها مياه المحيط من كل نواحيها وكانت تعد من اعمال ولبة تقويم البلدان ص 110 الادريسي ص 187 ، الروض المعطار ص 110

5 كوندي ج 2 ص 43 يوسف اشباخ ج 1 ص 41.

فاستولت على «اسونة» (1) و «استجة» (2) من البرزالي .
وكان البرزالي قد استغاث بحليفه ادريس العلوى أمير مالقاة وباديس بن حبوس امير غرناطة. ولما كان ادريس طريح الفراش فقد أمده بقائده احمد بن موسى المعروف بابن بوقنه، وأما باديس بن حبوس فقد ترأس الحملة بنفسه وجاء لاغاثة حليفة .
ويظهر ان البربر عند ما التقوا بالجيش الاشبيلى بهرتهم كثرة عددهم فولوا الادبار من غير قتال، وصمم اسماعيل بن عباد على ان يقتفي أثر المنهزمين، فتتبع جيش غرناطة حتى وقف عليه عند ابواب استجه، فأرسل باديس الى ابن بوقنه ليتداركه قبل ان يعصف به الجيش الاشبيلي ومن حسن حظ باديس بن بوقنة كان لايزال فى طريقه الى مالقة فرجع فى الحين لانقاذ صديقه .
وكان اسماعيل مغترا بقوة الجيش الاشبيلى اغترارا كبيرا على الرغم من انه كان بجيشه عدد لايستهان به من . البربر وكان الواجب عليه ان يحتاط منهم لانهم كانوا يواجهون فى الميدان اخوانا لهم من البربر ايضا . ولقد برهنت الحوادث على انه كان مخدوعا فانه لم يكد يشتبك مع البربر حتى فر البربر الذين كانوا معه وتركوه لابناء عمومتهم وانتهت المعركة بسقوط اسماعيل هو وفرسه فى حفرة فانقض البربر عليه وقطعوا رأسه ثم بعثوا به الى خليفتهم ادريس 431 هـ. ولم يعش ادريس بعد هذه الموقعة الا يومين وتوفى «ببشتر» (3) حيث كان مرضيا (4).

(1) «اشونة» مدينة بالاندلس كانت تعد من كورة استجة بينهما نصف يوم الادريسي ص 206 . الروض المعطار ص 23.
(2) «استجة»مدينة على «نهر شنيل» بينها وبين قرطبة مرحلة . الادريسي ص205. الروض المعطار ص 14 .
3) «ببشتر» بضم ففتح فسكون ففتح فراء اخيرة مدينة قريبة من قرطبة وقد تشبع الباء الثانية فيقال بباشتر كانت من اقليم رية ويقول الادريسي«وهى قلعة في غاية=

اما القاضي ابو القاسم فقد وقع عليه خبر قتل ابنه وقع الصاعقة ولكنه رغم ذلك استطاع ان يتعب اعداءه ويفرق تحالفهم. وقد خدمته الظروف الى حد كبير، ففى هذا الوقت كانت مالقة تضطرم بنزاع خطير حول العرش (1). وكذلك حدث ان زهيراً العامرى أمير المرية ذهب الى باديس أمير غرناطة ليجدد المعاهدة التى كانت بينه وبين أبيه حبوس من قبل، ولكن حدث سوء تفاهم بين الفريقين ادى الى تحكيم السيف بينهما وسقط زهير صريعا فى المعركة، واستولى على امارته «المرية» عبد العزيز بن ابى عامر أمير «بلنسية» وحليف القاضي ابن عباد (2).

وكان العرب فى غرناطة قد بدأو يتذمرون من حكم باديس بن حبوس لموالاته لليهود حتى أنه اخذ لوزارته رجلا يهوديا اسمه النغرلي فاستغل ابن عباد هذه الظروف في غرناطة وكان له بها اصدقاء مخلصون يكاتبهم ويثيرهم على باديس بن حبوس وفعلا وقعت مؤامرة بقصد قلب نظام الحكم في غرناطة كان يتزعمها رجل يسمى «ابا الفتوح» غير ان سر هذه المؤامرة افتضح في اللحظة الاخيرة وفر المتآمرون الى اشبيلية حيث آواهم القاضي ابو القاسم (3).

وفى الوقت نفسه كان هناك تنافس بين اشبيلية وقرطبة حول توسيع املاك الامارتين فبينما كانت قرطبة تسعى للاستيلاء على «سنتمرية الشرق» (4)

=الامتناع والتحصين والصعود اليها عن طريق صعب». الادريسي ص 204 الروض المعطار ص 37 معجم البلدان ج 2 ص 54. دائرة المعارف الاسلامية ج 3 ص 334.

4 راجع ابن خلدون ج 4 ص 154. المعجب ص 41، ابن الاثير ج 9 ص. 119.

1 - ابن خلدون ج 4 ص 154 المعجب ص 114 ابن الاثير 9 ص 116

2 الذخيرة قسم 1 ج 2 ص 162 البيان المغرب ج 3 ص 191 الاحاطة ج 1 ص 337 338 ابن الاثير ج 9 ص 119 اعلام الاعلام ج 3 ص 264

3) - البيان المغرب ج 3 ص 264 - 265. الاحاطة ج 1 ص 272. اعلام الاعلام ج 3 ص 264.

4) سميت بذلك للتفريق بينها وبين سنتمرية الغرب كان يحكمها بنو رزين اما الثانية=

او السهلة كانت اشبيلية تعمل للاستيلاء على «شنتمرية الغرب».
ولو ان النزاع لم يفصل فيه بشيء الا ان اشبيلية تقوي مركزها بمحالفة القاضي ابي القاسم للعامريين اصحاب «بلنسية» و «مرسية»(1) على الساحل الشرقي لاسبانيا (2).

ويقول كوندي (3)، ويوسف اشباخ (4). «ان ابا القاسم محمد ابن عباد قد عدل في اواخر عهده عن دعواه بان هشاما الثاني حي يقوم في قصره ولكنه عمد الى قصة اخرى كان يرجو من ورائها النجاح، فزعم ان هشاما توفى حقيقة، ولكنه اختاره لولاية عهده، وعهد اليه بالانتقام لما حل به من المحن».

وهذا ما يقوله كوندي ويوسف اشباخ ولعلهما يشيران بذلك الى الرواية التي انفرد بها ابن خلكان (5) من ان القاضي بن عباد استبد بالحكم لما توفى المدعو بهشام، ولكنهما يزيدان على ذلك ان القاضي ادعى ان هشاما اوصاه بالانتقام لما حل به من المحن، مع ان المعروف ان الذي كان يدعى هذه الدعوى هو علي بن حمود فيقال ان «هشاماً بن الحكم عند ما رآه من اضطراب امره وتيقنه من انصرام دولته صير الى على بن حمود ولاية عهده واوصى له

=وكان يحكمها بنو سعيد بن هارون. راجع الادريسي ص179 . الروض المعطار ص114. دائرة المعارف الاسلامية ج 3 ص 43-44 .

1 - «مرسية» بضم اوله والسكون وكسر السين المهملة وياء مفتوحة خفيفة وهاء مدينة بالاندلس كانت قاعدة تدمير. معجم البلدان ج 8 ص 24. الادريسي ص 194. الروض المعطار ص181.

2 - يوسف اشباخ ج 1 ص 42 - 43.

3 - ج 2 ص 150

4 - ج 1 ص 43

5 - وفيات الاعيان ج2 ص 28

بالخلافة من بعده وارسله الى «سبتة» بذلك سرا وولاه الملك دمه واستكتمه السر فيه اوانه وبلوغ زمانه (1).

وعلى كل حال فان ما يشير اليه ابن خلكان وكذلك ما يذكره كوندي ويوسف اشباخ لا يقوم على اساس من الصحة، اذ ان الثقاة من مؤرخي الاندلس كلهم اجمعوا على ان دعوة هشام ظلت قائمة الى ان الغاها المعتضد سنة 451هـ كما سيرد لنا.

ويقص علينا بعض المؤرخين (2) ان لقاضي ابا القاسم قد رزق في اياه الاخيرة بحفيد من ولده محمد المعتضد ومن الاميرة ابنة مجاهد العامري سيد دانية وقد تكهن المنجمون ان طالع المولود الجديد ينبىء بسعادة الجد وازدهاره في اواخر ايامه وان استدارة القمر تنبىء بسعادة الطفل ولكن هذ النور الذي يشع من القمر سيعتريه الكسوف سريعا وبعد مرور سنة من ولادة الطفل بينما كان القاضي يفكر في تجريد حملة على الادارسة اصيب بمرضه الاخير وتوفي ليلة الاحد بقيت من جمادي الاولى سنة 433 هـ على القول الراجح (3) وترك الامر لابنه الذي خلفه باسم محمد المعتضد بالله.

---

1 - الدخيرة قسم 1 ج 1 ص 29. البيان المغرب ج 3 ص 113 -114 . المعجب ص 28
2 - كوندي ج 2 ص 115 .
3 هذه رواية ابن بسام قسم 2 ص 10-11. وابن خلدون ج 4 ص156 .وابن الاثير ج 9 ص 119 .ابن خلكان ج 2 ص 28 ويذهب صاحب البيان المغرب الى انه توفى سنة 431 هـ. اما المراكشي ص 58 فيقول انه توفى 439 هـ.

(الباب الثاني)

المعتضد

433 هـ ـ 461 هـ

- 1 -

نشأة المعتضد

المعتضد ـ القابه ـ عنايته بالشعر والشعراء ـ عنايته بعمارة القصوو والقلاع دون المساجد ـ المعتضد بين زوجه وجواريه ـ قسوته ـ حديقة الرؤوس ـ حيلته في الانتقام ـ حادث ابنه اسماعيل.

✡ ✡ ✡

ولد أبوعمرو عباد محمد يوم الثلاثاء من الاسبوع الاخير من المحرم سنة 407 هـ وبمدينة باجة، وكان يلقب فى اول نشأته بفخر الدولة ثم تولى الحجابة فلقببالحاجب وهو لم يمنح في عصر بنى عباد الا للامراء من البيت المالك، فقد كان القاضى ابو القاسم عندما استدعى هشاما الحصري لمبايعته فى اشبيلية ، قد اسند حجابة هشام لابنه اسماعيل (1) ولماسقط اسماعيل هذا ميتا فى المعركة التي نشبت بينه وبين البربر اسند القاضي حجابة هشام الي ابنه الثانى ابيعمرو عباد محمد

1) راجع صفحة 53 من هذه الرسالة.

وينبغي الا يعزب عن بالنا ان وظيفة الحاجب في الانداس كانت تشبه الى حد كبير وظيفه رئيس الوزراء في عصرنا الحاضر (1).

واتد تولى ابو عمرو حكم اشبيلية بعد وفاة ابيه سنة 433هـ. وفي هذا الوقت كان امراء الاندلس يتهافتون على الالقاب السلطانية ويتباهون بها «فآل امرهم الى ان تلقبوا بنعوت الخلفاء» وترفعوا الى طبقات السلطنة وذلك بما في جزيرتهم من اسباب الترف والضخامة التي تتوزع على ملوك شتى وتنهض بهم للمباهاة ولاجل توثبهم على النعوت العباسيه قال ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في ارض اندلس   تلقيب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد(2)

وعلى ذلك فقد عمل ابو عمر وعباد محمد على ان يختار لنفسه لقبا يميز به بين امراء الاندلس الكثيرين من ذوي الالقاب الفخمة فاختار لقب «المعتضد بالله» تشبها بالمعتضد العباسي.

وقد وصفه مؤرخوا الاندلس بانه «قد اوتي من جمال الصورة وتمام الخلقة وفخامة الهيئة وثقوب الذهن وحضور الخاطر وصدق الحس ما فاق به ايضا نظرائه. ونظر في الادب مع ذلك قبل ميل الهوى به الى طلب السلطان» (3). وكان المعتضد يقول الشعر ويتذوقه كما كان ينفق الاموال بسخاء على شعرائه وندمائه الذين يشيدون بذكره (4). وكان

---

1) راجع اختصاصات الحاجب في مقدمة ابن خلدون ص 199 - 200 . ونفح الطيب ج 1 ص 101 . والحلل السندسية ج 1 ص 250 .

2) نفح الطيب ج 1 ص 99 .

3) الذخيرة قسم 2 ص 14. البيان المغرب ج 3 ص 207. اعلام الاعلام ج 3 ص 181. وفيات الاعيان ج 2 ص 28.

4) ذكرى المقري في نفح الطيب ج 2 ص 140 - 382: ان ابا علي ادريس ابن اليمان العبدري كان يوما بمجلس المعتضد فسأله ان يمدحه بقصيدة يعارض=

يوم الاثنين من كل اسبوع هو اليوم الذي خصصه لمجالسة الشعـ
ومطارحتهم القريض، وقد شجع الادباء والشعراء وخصص لهم دارا ف
قصره سميت دار الشعراء كما انشأ منصبا جديدا سمي صاحبه رئيس الشعراء

= قصيدته السينية التي مدح بها ابن حمود فقال له ابن اليمان اشعاري مشهورة و
صدري كريمة فمن اراد ان ينكح بكرها فقد عرف مهرها وكانت جائزته مائة د

1) ذكر المقرى في نفح الطيب ج 2 ص 468 » ان ابن جاخ الشاعر ورد
حضرة المعتضد فدخل الدار المخصوصة بالشعراء فسألوه فقال اني شاعر فقالوا انشد
من شعرك فقال :

اني قصدت اليك يا عباد قصد القليف بالجري للوادي

فضحكوا منه وازدروه، فقال بعض عقلائهم. دعوه فان هذا شاعر وما يبعد ار
يدخل مع الشعراء ويندرج في سلكهم، فلم يبالوا بكلام الرجل وتنادروا ب
المذكور فبقى معهم، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص لا يدخل فيه ع
الملك غيرهم، وربما كان يوم الاثنين، فقال بعض لبعض هده شنعة بنا ان يك
مثل هذا البادي يقدم علينا ويجتري على الدخول معنا، فاتفقوا على ان يكون
اول متكلم في اليوم المخصوص لهم عند جلوس السلطان، وقد رأوا ان يقول م
ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حسما لعلة اقدام مثله عليهم. فلما كان ا
المذكور وقعد السلطان في مجلسه، ونصب الكراسي لهم رغبوا منه ان يكون ا
القادم اول متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك فصعد الكرسي وانتظروا ان ين
مثل الشعر المضحك المتقدم فقال :

قطعت يا يوم النوى اكبادي وحرمت عن عيني لذيذ رقادي
وتركتني ارعى النجوم مسهدا والنار تضرم في صميم فؤادي
فكأنما آلى الظلام الية لا ينجلي الا الى ميعاد
ولرب خرق قد قطعت نياطه والليل يرفل في ثياب حداد
بشملة حرف كان ذميلها سرح الرياح وكل برق غادي
والنجم يحدوها وقد ناديتها يا ناقتي اعوجي على عباد
ملك اذا اضرمت نار الوغى وتلاقت الاجناد بالاجناد
فترى الجسوم بلا رؤوس تنثني وترى الجسود لقى بلا اجساد
يا ايها الملك المؤمل والذي قدما سما شرفا على الانداد
ان القريض لكاسد في ارضنا وله هنا سوق بغير كساد
فجلبت من شعري اليك قوافيا يفني الزمان وذكرها متمادي

وقد عني المعتضد ببناء القصور الفخمة والقلاع المنيعة وبذل الاموال في اقتناء الملابس الفاخرة وامتلاك الغلمان الذين كانوا زينة الحياة الدنيا في ذلك العصر. ورغما عن انه كان لا يبخل بشيء في سبيل ما ذكرنا الا ان استهتاره بالدين جعله يترك المساجد خرابا خلافا لما جرت به سنن المسلمين من الاعتناء بالمساجد وعمارتها ليذكر فيها اسم الله (1).

وعلى الرغم من ان المعتضد كان مغرما بزوجته الاميرة ابنة مجاهد العامري صاحب دانية والجزر الشرقية، فانه كان يحتفظ في قصره بسرب من الحظايا يبلغ عددهن سبعين جارية (2)، ويقول دوزي (3) «ومن الغريب ان هذا القاسي الجبار مع ما كان يلقيه في قلوب حرمه وجواريه الحسان من الفزع والرعب بنظراته المفزعة المروعة كان ينظم فيمن يقع في حبالهن من اولئك الغيد الحسان اشعارا تجمع الى الرقة والسلاسة، اللذة والمتعة».

واذا انتقلنا الى الكلام عن قسوة المعتضد وفظاعته الفينا حياة هذا الرجل شبيهة بحياة الوحوش الكاسرة، فقد كان سكيرا ماجنا سفاكا للدماء، مستهترا بالدين، لا يتورع عن سفك دم اعدائه واصدقائه على السواء.

وكان ترفه وبذخه يقتضي اموالا غزيرة كان يعتمد في جمعها

= من شاعر لم يفطلع ادبا ولا   خطت يداه صحيفة بمداد

فقال له الملك: انت ابن جاخ، فقال نعم. فقال اجلس فقد وليتك رياسة الشعراء» واحسن اليه ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لاحد بعده ».

1) الذخيرة قسم 2 ص 12 . البيان المغرب ج 3 ص 205 . اعلام الاعلام ج 3 ص 281 . يوسف اشباخ ج 1 ص 43 .

2) الذخيرة قسم 2 ص 14 . البيان المغرب ج 3 ص 207 .

3) ملوك الطوائف ص 104 .

على مصادرة وزرائه وكبار رجال دولته الذين قضى على أكثريتهم بالموت (1).

ويقول الفتح بن خاقان (2) في جود المعتضد وبطشه، وارتمى الى ابعد غايات الجود بما اناله واولاه لولا بطش في اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل، وتصور انبى ذلك العل والنهل، وما زال للارواح قابضا وللوثوب عليها رابضا يخطف اعداءه اختطاف الطائر من الوكر، وينتصف منهم بالدهاء والمكر».

وممن بطش بهم المعتضد، الوزير ابو الوليد اسماعيل بن حبيب الملقب بحبيب، وهو الذي كان ابوه القاضي قد اختاره ليتولى وزارته بدلا من الوزراء الذين شرد بعضهم وقضى على البعض الآخر(3)، وبقى حبيب هذا وزيرا للقاضي ابي القاسم ومن بعده وزيرا للمعتضد الى ان عصف بحياته (4).

ومن الوزراء المشهورين الذين اغتالهم المعتضد الوزير ابو عامر محمد بن عبد الله بن مسلمة، وهو من بيت مشهور في الاندلس تقلب افراده في مناصب الدولة الاموية. وقد اختص الوزير ابو عامر هذا بالمعتضد وتولى وزارته ونادمه وانس اليه، وكان ابو عامر بن مسلمة مغرما بالشراب حتى الف كتابا في الخمر سماه «حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح».

وذات يوم استدرجه المعتضد الى قصره واغتاله بطريقة غامضة ثم اذاع في الناس «انه زلت به قدمه فسقط في البحيرة وانكفا

---

1) يوسف اشباخ ج 1 ص 42 .
2) مطمح الانفس ص 11 . نفح الطيب ج 2 ص 460 .
3) راجع ص 53 من هذه الرسالة.
4) الذخيرة قسم 2 ص 11 .

ولم يعلم به الا بعد ما طفا. فأخرج وقد قضى (1) » .
ولكن الحادثة التى زعزعت من اركان دولة بنى عباد فيما بعد
هي حادثة اغتيال الوزير ابى حفص عمر بن الحسن الهوزني وهو من
الاسر العريقة باشبيلية، ومن علماء الحديث بها وهو الذي نقل الى
الاندلس صحيح البخاري وعنه اخذه اهل الاندلس . ولم يكن ابو حفص
الهوزني على وفاق مع المعتضد رغما عن الائتلاف والود الذى كان
ظاهرا بينهما، فلم يكد يتولى المعتضد الحكم حتى استأذن منه ابو
حفص في الحج ورحل فارا منه الى مصر ثم الى مكة ، غير ان ابا
حفص لم يستطع ان يبقى بعيدا عن بلاده فرجع اليها بعد ما قضى
مناسك الحج وتقرب من المعتضد الذي اتخذه مستشارا له في شئون
دولته، وذات ليلة بينما كان المعتضد غارقا في سكره بعث في طلب
ابي حفص الهوزني فلما مثل بين يديه «امر خادمين من فتيانه بقتله
فلما ترددا في تنفيذ امره قام اليه هو بنفسه وباشر قتله بيده» .
وكان عمل المعتضد هذا من الاسباب التي زعزعت اركان
دولة بني عباد» فبسبب قتل المعتضد لابي حفص الهوزني المذكور تسبب
ابنه ابو القاسم في فساد دولة المعتمد بن عباد وحرض عليه امير
المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب حتى ازال ملكه ونثر سلكه
وسبب هلكه» (2).

ويقول الحجاري(3) «وهذا الرءوف العطوف الدمث الاخلاق الالوف
ما مات حتى قبض ارواح ندمائه وخواصه بيده ولم يكلهم الى غيره ولم
يحوجهم الى احد بعده فجزى عنهم بما هو اهله .

---

1) مطمح الانفس ص 23 . نفح الطيب ج 2 ص 312 .
2) الذخيرة قسم 2 ص 49 -50 . نفح الطيب ج 2 ص 13 .
3) وفات الوفيات ج 1 ص 254 نقلا عن الحجاري.

وكان قد عرف منه ذلك واشتهر فصار الادباء بتحاشونه، ومن شنيع ما روى عنه ان غلاما دون البلوغ دخل عليه من غير استئذان فقطع رأسه، فسمع جارية تقول والله القبر احسن من سكنى هذا القصر فقال. والله لابلغنك ما طلبته، وامر بها فدفنت حية، وتعجب الناس من وزيره ابن زيدون كيف انفرد بالسلامة منه فقال. كنت كمن يمسك باذني الاسد يتقي سطوته تركه او امسكه».

وينقل لنا المؤرخون صورا قائمة عن حياة المعتضد. ومن اغرب ما يحكى عنه انه كان لا تلذ له الخمر الا اذا كان يطل من احدى شرفات قصره على حديقة بشاطىء نهر يمر تحت قصره. وكانت هذه الحديقة مرصعة بجماجم الموتى محلاة بالذهب والاحجار الكريمة فكانت تلقي الرعب والفزع في قلوب بطانته.

ولعله اقتدى في ذلك بمحمد المهدي الذي كانت بقصره حديقة مزوعة برؤوس الخارجين عليه. (1)

وكانت للمعتضد بجانب هذه الحديقة خزانة كان يعتز بها ويعدها من انفس ذخائره كانت تحتوي على رؤوس اعدائه مثل محمد بن عبد الله البرزالي وابن خزرون وابن نوح الدمري وغيرهم مقرونة برأس خليفتهم يحيى بن علي بن حمود. وكان المعتضد يبالغ في تطيبها وتعطيرها حتى تحتفظ بملامحها، ويقول ابن حيان (2)· «ولما فتح المرابطون اشبيلية وخلع المعتمد حدث انه وجد له جوالق مطبوع عليها فظن ان ذلك مال وذخيرة فاذا هو مملوء رؤوسا فاعظم ذلك وهاله امره ودفع كل رأس منها الى من كان بقي من عقبهم بالحضيرة. اخبرني من رأى رأس يحيى بن علي بن حمود يومئذ

1) الذخيرة قسم 2 ص 13.

2) البيان المغرب ج 3 ص 205 - 206 ، نقلا عن ابن حيان.

ثابت الرسم متغير الشكل فدفع الى بعض ولده فدفنه » (1).

وكان المعتضد كثير المكر والدهاء يتوصل الى غرضه بطرق ملتوية ومما يحكى عن دهائه «ان رجلا اعمى بمكة كان يدعو عليه بها وكان هذا الرجل من بادية اشبيلية. وكان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الاعمى، وذهب باقي ماله حتى افتقر ورحل الى مكة، فلم يزل يوعو على المعتضد بها الى ان بلغه عنه ذلك، فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حقا فيه دنانير مطلية بالسم، وقال، لا تفتح هذا حتى تدفعه الى فلان الاعمى بمكة، وسلم عليه منا، فاتفق ان سافر الرجل ومعه الحق، فحين وصل مكة لقى الاعمى ودفع اليه الحق وقال هذا من عند المعتضد فأنكر الاعمى ذلك، وقال. كيف يظلمني باشبيلية ويتصدق علي بالحجاز، فلم يزل الرجل يخفضه الى ان سكن واخذ الحق، فكان أول شيء فعله ان فتح الحق وعمد الى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه وجعل يقلب سائرها بيده، الى ان تمكن منه السم فما جاء الليل حتى مات » (2)

واكبر ظننا ان المعتضد لم يكن يخشى الدعاء عليه بل اهلك الرجل اسكاتا لصوته الذي كان في مكة دعاية سيئة ضد المعتضد.

وبهذه الطريقة قتل المعتضد رجلا آخر من اهل اشبيلية كان يدعو عليه بطليطلة في الاسحار فبعث اليه من قتله وجاءه برأسه (3).

هذه صورة واضحة لحياة المعتضد الخاصة بما تخللها من اجادة في

---

1) قال ابن عذارى ج 3 ص 199 «وجد رأس يحيى بن علي بن حمود في خزائن المعتمد بن عباد بعد مدة طويلة فطلبته حفيدته سبيعة من الامير سير وكان بعلها فدفنته في المسجد الذي قتل فيه عبد العزيز بن موسى بن نصير وكان في اذن الرأس براءة فيها اسم يحيى بن علي».

1) المعجب ص 59 .

3) » » 60 .

الاحسان وتمكن في البطش والانتقام، اما حياته السياسية فكانت خلوا من المحاسبة مليئة بالدماء، اذ لم تكن تأخذه هوادة في تصرفاته ولو كان احد ابنائه هو الضحية.

كان المعتضد عام 450 هـ. قد احرز مجموعةمن الانتصارات فآلت اليه بضعة من الولايات الغربية القربية من اشبلية فدفعت هذه الانتصارات المعتضد الى الزحف على قرطبة، ونزعها من بني جهور فعهد لابنه وولي عهده الحاجب اسماعيل بالزحف عليها ولكن اسماعيل تلكأ في تنفيذ اوامر والده. وكان قد بدأت تظهر عليه دلائل الاشمئزاز والتأفف من ابيه الذي كان يدفع به الى المواقف الحرجة ويعرض حياته الى الخطر، اذ طالما كان يبعثه الى المعارك من دون ان يمده بالعدد الكافي من الجنود، تلك كانت دفينة نفس اسماعيل. وكان مما هاجه ان بعض العبيد من حراس القصر اختلطوا به واخذوا يفسدونه على ابيه وانضم اليهم في هذا العمل رجل من البربر يسمى عبد الله البزلياني (1) كان قد انتقل من مالقة عندما استولى عليها باديس بن حبوس ونزل باشبيلية حيث اتخذه المعتضد كاتبا له، وكانت افكار البزلياني تجيش باطماع لاحد لها، وكان يأمل ان يصبح حاجبا لاي امير من امراء الاندلس فاتصل باسماعيل وطفق يزين له الخروج على ابيه واوحى اليه بان ينتقل الى الجزيرة الخضراء ويؤسس له بها حكما مستقلا عن ابيه، وقد لعبت هذه الهواجش بفكر اسماعيل في الوقت الذي امره ابوه بالهجوم على قرطبة فاعتذر اليه بانه لا يستطيع ان يذهب لقرطبة في قلة من العدة وهي قريبة

1 ـ هكذا ورد هذا الاسم في الذخيرة القسم الاول ج 2 ص 139 والقسم الثالث ص 45 وامافي ملوك الطوائف ص 142 فيسميه البرزيلي ولعلذلك تحريف فيالترجمة اذ لا شك ان البزلياني نسبة الى بزليانة وهي مدينة بالاندلس راجع ايضا الروض المعطار ص 44

من حليفها باديس بن حبوس امير غرناطة الذي لا يتواني في الاسراع ليدافع عن حلفائه، وكان المعتضد في حالة هيجان وغضب شديد حين اجاب ابنه بلهجة شديدة وقال له: «اذا لم تطع قولي واظهرت الخلاف فانني مضطر لا محالة ان آمر بضرب عنقك» فجرح انذار المعتضد اسماعيل في كبريائه وثارت ثائرته وتبلبل فكره ولم يدر ما يصنع، فذهب الى البزلياني ليستشيره في امره وكان البزلياني يرتقب مثل هذه الساعة ليضرب ضربته، فلما بلغته تطورات الموقف قال لاسماعيل: «انه قد حانت الساعة لتنفيذ الخطة التي ادليت بها اليك» وكان المعتضد في هذا الوقت قد انتقل من قصره باشبيلية الى منتزهه بالحصن الزاهر(2) فخرج اسماعيل على رأس جيش اشبيلية قاصدا الى قرطبة، الا انه بعد يومين من خروجه اصدر اوامره للجيش بالانتظار حتى يرجع الى اشبيلية، زاعما ان امرا من ابيه صدر اليه بالرجوع، وعلى ذلك عاد اسماعيل الى اشبيلية في ثلة من الجند المخلصين له وهاجم قصر ابيه وسلبه مما كان يحتويه من حلى ورياش وذخائر وحمل معه امه وحرمه على البغال وولى وجهه شطر الجزيرة الخضراء. واحتاط اسماعيل للأمر بان اصدر اوامره بنقل الزوارق التي كانت تحمل الناس ما بين اشبيلية والحصن الزاهر حتى لا يطلع والده على حقيقة امره غير ان احد المخلصين للمعتضد عبر النهر سابحا واخبره بالخبر.

لم يكن المعتضد يتوقع من ابنه ان يثور عليه وان يفكر في انشاء امارة مستقلة عن امارة اشبيلية الا ان المعتضد كان قد بلغه من قبل ان ابنه متضجر منه وانه يرتقب وفاته بفارغ الصبر ليخلفه في الحكم فكان المعتضد يتلقى هذه الانباء بشيء من الفتور، اما اليوم وقد فعل

---

1) هكذا ورد في الذخيرة القسم الثالث ص 45. اما ابن خلدون ج 4 ص 157 فيسميه حصن الفرج.

الابن فعلته فقد صمم المعتضد على ان يلقي القبض عليه ويجعله عبرة لمن اعتبر.

وعلى اثر ذلك وجه المعتضد في اثر ابنه كوكبة من الفرسان واصدر اوامره الى اصحاب الحصون التي سيمر عليها اسماعيل بان يغلقوا حصونهم في وجهه، وخشي اسماعيل ان يتألب عليه اصحاب الحصون فرأى ان يلجأ الى قلعة الورد وهي القاعة التي حملت فيما بعد اسم صاحبها اخي حصاد.

وكان اسماعيل يأمل ان يكون في حمايته، فاجابه الحصادي الى طلبه على شريطة الا يبرح هو وجنوده سفح القلعة حتى ياذن لهم بالدخول وبادر اخو حصاد بالكتابة الى المعتضد يخبره بان اسماعيل نزل في حمايته فتنفس المعتضد الصعداء وحمد الله على ان ابنه لم يلجأ الى اي احد من خصومه وطلب من اخي حصاد ان يرد المتآمرون اليه وعلى ذلك رجع اسماعيل خاسئا هو وانصاره الى اشبيلية فبادر المعتضد بقطع رأس وزيره البزلياني مع نفر من خواص اسماعيل.

اما اسماعيل هذا فقد ذهب به عن القصر الى احد السجون (1). واسترد المعتضد كل الذخائر التي نهبت من القصر «حتى ان زاملة من زوامله قصرت عنه «اي اسماعيل» عند جده في البر وغادرها في الصحراء رازحة فوقعت الى بعض فرسان والده فقبض عليها وصرفت بجملتها لم يقطع لها حبل فزعموا ان وقرها كان مالا صامتا وذخائر».

كان المعتضد اكتفى في تأديب ابنه ان امر بسجنه ولم يفكر في شيء اكثر من ذلك الا ان اسماعيل كان له انصار واعوان استمالهم

---

1 - هذا ما رواه صاحب المعجب ص 59 ولكن بالرجوع الى الى الرسالة التي بعث بها المعتضد الى صهره ابن ابي عامر بصدد هذا الحادث يتبين انه لم يدخل السجن وانما ادبه بالاعراض والاهمال.

بما كان يبذله اليهم من العطاء فدبر هؤلاء القوم فراره مـن السجـن وتم لهم ذلك، وذات ليلة اجتمع معهم فـي حفلة ساهرة تناولوا فيها العقار وفي هذه الليلة اجمعوا امرهم على ان يغتالوا المعتضد في مخدع نومه، ووزع اسماعيل السلاح على انصاره الذين تسوروا القصر في الهزيع الاخير من الليل وكان القوم قد دبروا امرهم ولم يبق عندهم ريب في نجاح المؤامرة، ولكن لشدة ما كانت دهشتهم - وهم يتسورون القصر - ان وجـدوا المعتضد في انتظارهم ممتطيا صهوة جواده على رأس كتيبة من الجيش فلم تكد اعين المتآمرين ترمقه حتى اسقط في ايديهم واطلقوا لسيقانهم العنان ولكن جنود المعتضد تعقبوهم وقتلوا بعضا منهم وا قـوا القبض على بعضهم الآخر. ولسنا نـدرى أكـان اسماعيـل من جملـة الذين هاجموا القصر ؟ ام انه لم يكن معهم وانما بعثهم الـى ذلك وجعل لمن قتل اباه المعتضد جعلا سنيا (1) ؟

وعلى كل حال فقد نكل المعتضد بجميع المتآمرين شر تنكيل اذ كان الغضب قد وصل به الى اقصى حد فاخذ ابنه الـى مكـان بعيـد من القصر وارداه بيده قتيلا بحيث لم يشهد مصرعه احد(2)، وهاج به الغضب فاخـذ يقتل وينكل بشركائه واصدقائه وخدمه، وحتى بنساء قصره وكم امر ببتر ايد وارجل وجدع انوف، وقطع رؤوس، وقتل فـي السر وقتـل فى العلـن (3).

بعد هذه الحادثة تغيرت اخلاق المعتضد وبدأ يظهر في حالة نفسية شاذة، وقد دخل عليه بعض الوزراء بعد ثلاثة ايام من ايام الحادثة فرأوا

---

1 - هذه رواية المعجب ص 59 ويتبين من رسالة المعتضد الى صهره ان اسماعيل كان فى جملة المهاجمين.

2 - مما يؤسف له ان المراجع التي بأيدينا لم تسعفنا بـوصف تفصيلي عـن الموقف بين الوالد والولد.

3 - ملوك الطوائف ص145 .

وجهه قد اربد وود كل واحد منهم انه لم يشهد ولم يزيدوه على السلام، وارتج عليهم الكلام نصوب فيهم وصعد وزأر كالاسد وقال: «يا شامتين مالي اراكم ساكتين اخرجوا عني، فقام كل يجر ساقيه ولا يقدم احد ان يطرف بشفر عين اليه، فلما صاروا بباب القصر نفذ بانصرافهم الامر فرجعوا وجلسوا ثم امر ان يحضر الكاتب ابن عبد البر فدخل ومجلسه قد احتفل، فقال له اكتب الى ابن ابي عامر وحلل دم الخائن الفاجر».

وجاء في هذه الرسالة التي بعثها المعتضد الى صهره ابن ابي عامر يبين له فيها الاسباب والدواعي التي ادت به الى قتل ابنه: «وذلك ايدك الله ان الغوي اللعين العاق الشاق اسماعيل ابني بالولاء لا بالوداد وتجلى بالمكاسب لا بالمذاهب كنت قد ملت بهواى اليه وقدمته على من هواسن منه وحبك الشيء يعمى ويصم والهوى يطمس عين الرأي اذ يلم فآثرته بارفع الاسماء والاحوال وخصصته بما بيدي من القواعد والاعمال ووسعت عليه في خطيرات الذخائر والاموال واخضعت له رقاب اكابر الجند ووجوه الرجال وما كنت خصصته بالايثار واستعملته بالمكافحة والفرار الا لجزالة كنت اتوسمها فيه كانت عيني بها قريرة وشهامة كنت اتوهمها له كانت نفسي بها مسرورة فاذا الجزالة جهالة والشهامة شرة وكهامة وقد يفتن الاباء بالابناء وينطوي عليهم ما ينطوون عليه من الاسواء مع ان الآراء قد تنشأ وتحدث والنفوس قد تطيب وتخبث لقرين يصلح او يفسد وخليط يغوي او يرشد ومن اتخذ الغاوي خدينا عاد غاويا ضنينا ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا وثب هذا اللعين من المهد الى سرير الجد ودرج من الاذرع الى المحل الارفع استغنى واثرى وتملا من النعم الكبرى فاشره ذلك وابطره واضفاه واكفره وطلب الازدياد واحب الانفراد والاستبداد وقيض له قرنا سوء اعدوه واردوه واتيح له جلساء مكر

اغروه وأغووه واشعر الاستحاش والنفار وزينوا لهالعقوق والفرار لينفردوا
معه في بلد ولا تكن عليهم يد احد فخرج ليلا باهله وولده خروجا شنيعا
فتق به قصري وخرق حجاب سترى يوم الجزيرة الخضراء ومايليها ايتمكن
منها ويعبث فيها وكنت غائبا على مقربة فارسلت في الحين الى تلك الجهة
من يصده عنها ويمنعه عما اراد منها، فسبقه الخبر وفاته نيل الوطر أوى
الى قلعة القائد ابي ايوب فوجهت الى اللعين اعرض عليه قبول عذره
وسربت الخيل مع ذلك للاحاطة به وحصره حتى الجأه ذلك من التنصل
والاعتذار، واجاءه الى الاستغاثة والاستغفار فاقلته وعفوت عنه، واغ فوت
عما كان منه، وصرفته الى جميع حاله، ورددت لديه جميع ماله، ولم
اؤد به الا بالاعراض والهجران وان كنت قد انسته مع ذلك بمزيد
الانعام والاحسان، فاذا به كالحية لا تغني مداراتها، والعقرب لا تسالم
شباتها وكأنه قد استصغر ما جنى وا. تحقر ما الم به واقتنى فزرى
وسرى ما صرت به الصغرى التي كانت الكبرى فلم اشعر به الا وقد
الف اوباشا وسقاهم الخمر ليستولي معهم بزعمه على الامر، وطرق الغدر
ليلا في بضعة عشر منهم فشعرت بالحركة وخرجت اليهم، فلما وقعت
على اعينهم تساقطوا هاربين وتطارحو خائفين خائبين، فالتقتهم انـط
حب السمسم وقتلتهم، وعجل الله حينهم وحتفهم، و نما كان رجاءهم
ان يجدوني في غمرة الكرى، وعلى غفلة من ان اسمع وارى ففالت
بحمد الله اراجيهم وخلت اعمالهم ومساعيهم واعقبتهم عواقب كفرهم
وتعديهم، فاعتبر في ورود المساءة من طريق المسرة وطلوع المحنة
من افق المحنة ...(1) بعض اهبات خبالا، والاعطيات وبالا وقد استجلبت

---

1) بياض بالاصل.

ابني محمدا ملتزم شكرك ومعظم قدرك لاقعده مقعده واسد به مسده والله اسأله الخيرة» (1).

على انه يجدر بنا ان نسجل له ان الرأفة والرحمة قد وجدتا الى قلبه سبيلا في حادث آخر.

ذلك ان ابنه محمدا كان قد خرج بامر ابيه عام 449هـ، لفتح مالقة بعد ان اتفق مع بعض زعمائها على ثورة داخلها يدبرونها.

فبعث بابنه محمد على رأس الجيش وكاد النصر ان يعقد بلوائه لو لا ان انصرف الى لهوه فهاجمه جيش قرطبة في غفلته وقضى على مشروع ابيه فغضب المعتضد واقصى ابنه عنه الا ان الولد استعطف اباه بقصيدة عامرة منها : ـ

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر ... ماذا يعيد عليك البث والحذر

فان يكن قد رقد عاق عن وطر ... فلا مرد لما ياتي به القدر

وان تكن خيبة في الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن اشياعك الظفر

يا فارسا تحذر الابطال صولته ... صن حد عبدك فهو الصارم الذكر

قد اخلفتني صروف انت تعلمها ... وغال مورد آلامي بها كدر

فالنفس جازعة والعين دامعة ... والصوت منخفض والطرف منكسر

وخلت لونا وما بالجسم من سقم ... وشبت رأسا ولم يبلغني الكبر

لم يأت عبدك ذنب يستحق به ... عتبا وها هو قد ناداك يعتذر

ما الذنب الا على قوم ذوي دغل ... وفى لهم عهدك المعهود اذ غدروا

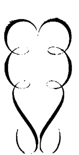
قوم نصيحتهم غش وحبهم ... بغض ونفعهم ان صرفوا ضرر

يميز البغض في الالفاظ ان نطقوا ... ويعرف الحقد في الالحاظ ان نظروا

لم اوت من زمني شيئا الذ به ... فلا اعرف لا كأس ولا وتر

---

1) الذخيرة قسم 3 ص 45 وما بعدها. البيان المغرب ج 3 ص 244 وما بعدها. المعجب ص 59. ملوك الطوائف ص 141 ـ 147.



1 راجع عن هذه القصيدة الذخيرة قسم 2 ص 26 - 27. الخريدة ج 1 ص 236. البيان المغرب ج 3 ص 275. قلائد العقيان ص 19.

- ب -

بين المعتضد وجيرانه المسلمين

قرمونية - مرتلة - لبلة - استغاثة صاحب لبلة بامير بطليوس وتكوين حلف من البربر ضد المعتضد - صاحب لبلة يتغلب على حلفائه - المعتضد يغزو بلاد ابن الافطس - تكوين حلف بين اشبيلية وقرطبة وبطليوس ضد طليطلة - المعتضد والامارات المجاورة - لبلة - شنتمرية الغرب - شلب - المعتضد والبربر - محاربة القاسم بن حمود - زيارته لامرائهم في ديارهم - موقف معاذ بن ابي قرة - البربر يردون الزيارة للمعتضد - تخلصه منهم باستثناء معاذ - غزو بلاد البربر - الاستيلاء على مورور وشذونة واركش وسريش ورندة - باديس ابن حبوس يفشل في الانتقام من المعتضد - الاستيلاء على قرمونية - محاولة جديدة ضد باديس بن حبوس - المعتضد يدبر ثورة في مالقة - البربر يخونون المعتضد وينتصرون لباديس - جزع المعتضد من خطر المرابطين.

بدأ المعتضد حياته السياسية وبلاد الاندلس منقسمة الى ثلاث معسكرات :

1 - معسكر يعترف بهشام خليفة على ماكانت عليه الحال ايام القاضي.
2 - معسكر آخر يرى ان الدعوة يجب ان تكون للخليفة الادريسي.
3 - معسكر ثالث يرى ان لا مصلحة له في هذا الفريق او ذاك

انما يظاهر الفريق الذي يرى لنفسه في مظاهرته مصلحة فنراهم مرة «لعباد المعتضد صاحب اشبيلية وكلهم على دعوته الهشامية ومرة «يتظاهرون على ضده في الظاهر اتم مظاهرة» الا انهم بين هذا وذاك «يتداخلون ويتعاونون على دفع الحوادث الطارقة لهم ولا يثرب بعضهم على بعض بخلاف رأي او دعوة».

اما الفريق الاول فكان مكونا من عامة الاندلسيين وقليل من البرابرة فكان فيه من الاندلسيين شعبتان: شعبة يتزعمها سليمان بن هود الجذامي صاحب الثغر الاعلى «سرقسطة» يظاهره مقاتل الصقلبي صاحب طرطوشة، وعبد العزيز بن ابي عامر صاحب بلنسية، ومن تحتهما من اصحاب الاعمال بالموسطة، وشعبة اخرى كان يتزعمها الوزير محمد بن جهور صاحب قرطبة يظاهره ابن معين صاحب المرية وسعيد ابن رفيل صاحب «شقورة» وغيرهما من الرؤساء(1).

اما الفريق الثاني فكان مكونا من عامة البرابرة يتزعمهم باديس ابن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة يظاهره ادريس بن يحيى صاحب مالقة.

اما الفريق الثالث. فريق الانتفاع بالظروف فكان يتزعمه مجاهد العامري صاحب دانية يظاهره ابن الافطس صاحب بطليوس ويحيى ابن ذي النون صاحب طليطلة واسحق بن محمد البرزالي صاحب قرمونية.

بدأ المعتضد عمله بأن وجه حملة على البربر اصحاب قرمونية فقد كانت تنتاب المعتضد وساوس واضطرابات نفسية، ويروي المؤرخون ان بعض المنجمين ذكر له ان دولة بربرية ستنشأ وسيكون على يدها سقوط دولة بني عباد، ولذلك فكر المعتضد في الاستيلاء على امارة قرمونية التي كانت تقض مضجعه، وخرج اسماعيل بن المعتضد على رأس جيش اشبيلية لحصار قرمونية سنة 434 ه، ولقد كتب لاسماعيل النصر على امير

---

1) البيان المغرب ج 3 ص 219.

قرمونية محمد بن عبد الله البرزالي، حيث استدرجه الى كمين واوقع به وانتهت المعركة بسقوط محمد بن عبد الله البرزالي ميتا ولكن قرمونية نفسها لم تسقط، وكل ما عاد على المعتضد انه اتسعت مملكته فى الجهة الغربية (1).

وفى سنة 436 هـ، هاجم المعتضد مدينة مرتلة وكان يحكمها ابن طيفور الذي كان انتزعها من عيسى بن نسب الجيش الثائر بها، وكان ابن طيفور هذا يناصب بنى عباد العداء وقد سبق له عند ما قام النزاع بين القاضى ابن القاسم بن عباد وبين محمد ابن الافطس على مدينة باجة، ان تقدم ابن طيفور لمساعدة ابن الافطس وجاء على كتيبة من الجيش لمهاجمة ابن عباد (2)، والآن رأى المعتضد ان الساعة قد ازفت لمعاقبة ابن طيفور فوجه حملة على «مرتلة» واستولى عليها وضمها الى مملكته (3).

وكان المعتضد قد وجه حملة اخرى لتستولي على مدينة لبلة التى كانت تحت حكم بنى يحيى اليحصبيين، وكان يتزعم بنى يحيى فى فى هذا الوقت عز الدولة بن يحيى اليحصبى، وهو الذى وجهت ضده الحملة فاشتبك مع المعتضد فى حروب طاحنة «ذهبت فيها النفوس والاموال وخربت القرى واحرقت الزروع والمنازل» وبقى الحال كذلك الى ان ضعف امر عز الدولة فكاتب ابا الوليد جهورا امير قرطبة يطلب منه السماح له بان يرتحل اليه بامواله واولاده ليكون فى جواره وحماه فاجابه الى طلبه، فخرج اليها مخلفا وراءه ابن اخيه ناصر الدولة وذا حل عز الدولة بطرف ابن جهور سنة 443 اكرم مثواه واجرى عليه ارزاقا

---

1) ابن خلدون، ج 4 ص 156 . ذيل البيان المغرب ج 3 ص 311 - 312 .

2) راجع ص 46 - 47 من هذه الرسالة.

3) راجع ابن خلدون ج 4 ص 158 .

واسعة وبقي بقرطبة حتى توفى بها سنة 446 هـ، اما لبلة فقد خلف عليها ابن اخيه ناصر الدولة ابي نصر فتح بن خلف (1).

لم يقف امر المعتضد مع بنى يحيى عند هذا الحد، لان المعتضد كان يرجو من حربه مع هذه الاسرة ان يستولي على المقاطعات التى كانت تحت نفوذها ليوسع املاكه من الناحية الغربية، فعلى الرغم من ان ناصر الدولة ابى فتح خلف اليحصبى الذى خلفه عمه في الحكم على «لبلة» قد خطب ود المعتضد وصالحه على مال يؤديه اليه كل سنة الا ان المعتضد نقض معاهدة الصلح وهاجم «لبلة» مرة اخرى، ولما عقد الصلح مرة ثانية مع المعتضد بادر هذا الاخير ونقضه، وعند ما ضاق ناصر الدولة ذرعا بالمعتضد التجأ الى المظفر بن الافطس امير بطليوس ليدفع عنه عدوان ابن عباد.

ولما كان بنو الافطس هم الآخرون في نزاع مع بنى عباد فانهم اظهروا عطفا كثيرا على قضية ناصر الدولة بن خلف وبادر المظفر الى مساعدة حليفه فاقبل الى لبلة ناصرا لابن يحيى، ولكن جيش اشبيليه استطاع ان يرد المتحالفين على اعقابهم، وهنا صمم ابن لافطس على ان يستعين في حربه مع ابن عباد بامير غرناطة باديس ابن حبوس.

وتألف حلف قوى من البربر ضم اليه محمد بن ادريس الملقب «المهدي» امير مالقة ومحمد بن القاسم الملقب ايضا «المهدي» امير الجزيرة الخضراء وباديس بن حبوس امير غرناطة واسحق بن محمد بن عبد الله البرزالي، الذى خلف اباه على قرمونية، وعبد الله ابن خزرون صاحب «أركش (2)»

---

1) راجع الذخيرة قسم 2 ص 141. البيان المغرب ج 3 انظر الذيل ص 299 - 301. ابن خلدون ج 4 ص 157 - 158.

2) - «اركش» حصن بالاندلس على وادي لكة وهو مدينة ازلية قد خربت مرارا وعمرت. راجع الروض المعطار ص 14.

ومحمد بن نوح الدمري صاحب «مورور (1)» وفتح الله بن يحيى امير لبلة وكان هؤلاء الامراء كلهم ياتمرون بامر باديس بن حبوس، وهكذا افلح المظفر بن الافطس في تاليف حلف قوي من البربر الذين جاؤوا بجموعهم لتخريب اشبيلية سنة 439هـ، واثناء هذا الصراع العنيف بين البربر والمعتضد حاول ابو الوليد جهور امير قرطبة ان يسعى بين المتحاربين في الصلح فلم يزدهم تدخله الا مكابرة وعنادا.

وبينما كانت قوات المتحالفين قاصدة ـ كل واحدة على حدتها ـ الى اشبيلية، اسرعت جيوش المعتضد في مهاجمة بلاد ابن الافطس وكان يوشك ان يسبق منفردا لنصرة ابن يحيى، وعاثت خيل المعتضد في ارض ابن الافطس والحقت بها اضرارا كثيرة ولما تمت له الغلبة على المظفر خرج المعتضد على غير عادته وهاجم مدينة لبلة حيث وقعت بين جيش اشبيلية وجيش بطليوس حرب دامية قتل فيها الكثير من الفريقين ثم افترق القوم وذهب ابن الافطس الى ناحية الشرق فاجتمع بباديس وحلفائه «وعاثوا في ارض اشبيلية وانقطعت السبل جملة وكثر القتل والهرج والسلب وامسى الناس في مثل عصر الجاهلية (2)».

في الوقت الذي هبت فيه الامارات البربرية لنشد ازر فتح بن خلف امير لبلة وتدافع عنه فوجئ الحلفاء بانقلاب هذا الامير عليهم وانضمامه الى اعدائه السابقين، ولعله آثر مهادنة ابن عباد ابقاء على بلاده التي اصبحت مسرحا للحرب بما يلازمها من تدمير وتخريب ولعله ايضا آثر مهادنة خصمه القوي على محالفة هذا الخليط من جيوش البربر، وبذلك انعكست الآية وصار الصديق عدوا والعدو صديقا.

---

1) كورة مورور متصلة باحواز قرمونية وهي في الغرب من كورة شذونة راجع الروض المعطار ص 188 . معجم البلدان ج 8 ص 183 .

2) الذخيرة قسم 2 ص 18 . البيان المعرب ج 3 ص 209 - 211 ، 229 - 230 . اعلام الاعلام ج 3 165 - 166 .

كان ناصر الدولة فتح بن خلف قد ترك عند حليفه السابق المظفر وديعة تحتوى على أموال كثيرة، فلما انتقل الى صف المعتضد خانه المظفر فيما يئتمنه عليه ووجه اليه حملة غارت على لبلة، ولما كان من الطبيعي ان يقدم المعتضد العون لحليفه الجديد فانه فاجأ جيش بطليوس الذى كان يخرب نواحى مدينة لبلة ووقعت بين الفريقين معارك مريعة كان المعتضد اثنائها يبذل الاموال لجنده في رؤوس جيش بطليوس حتى سقط منه في المعركة نحو مائة وخمسين رأسا، وكان ابو الوليد جهور امير قرطبة يقوم بين المتحاربين مقام منذر آل فرعون في التوسط بينهم علهم يقللون من غلوائهم، غير ان ابن الافطس ركب رأسه ولم يسمع لابن جهور كلاما، وعند ذلك عزم المعتضد على ان يلحق الدمار ببلاد ابن الافطس.

جمع المعتضد حلفاءه من بربر البرازلة الذين كانوا منشقين على اخوانهم واسند رياسة الجيش الى ابنه اسماعيل ومعه وزيره عبد الله بن سلام وامرهما بالزحف على ارض ابن الافطس سنة 442هـ.

اغارت جيوش اشبيلية على مدينة (يابرة) والحقت بها اضرارا فادحة ولم يكن لابن الافطس حليف سوى اسحق بن عبد الله البرزالي الذي انجده بجيش من البربر يقوده ابن اعز بن اسحق، ولم يكتف المظفر ابن الافطس بهذه المساعدة التى قدمها له البرزالي فامر بان يتقلد السلاح كل من يقدر على ركوب دابة من اهل مملكته. وبالرغم من ذلك فقد استطاع الجيش الاشبيلي ان ينزل بخصومه هزيمة فادحة وسقط في المعركة اسحق بن عبد الله البرزالي، وكذلك عبيد الله الخراز ابن عم المظفر الذى كان واليا من قبله على يابرة وارسل اسماعيل رأسيهما الى اشبيلية حيث اضيفتا الى رؤوس اعداء بني عباد في حديقة القصر او في الخزانة المخصصة للرؤوس.

شجع هذا الانتصار اسماعيل بن المعتضد قائد الجيش فتوغل في مملكة بطليوس وفتح عدة حصون ضمها الى مملكة اشبيلية ورغماعن النداءات التى كان يوجهها المظفر الى حلفائه ليردوا عنه خطر الاشبيليين فانهم تركوه يتلقى الضربات من جيش اشبيلية الظافر حتى وصل الجيش الاشبيلي الى اسوار بطليوس فحاصر المدينة بضعة ايام ثم رجع الى حال سبيله، ويقال ان عددا من قتل في هذه الوقيعة ثلاثة آلاف رجل (1).

وبالرغم من الكوارث التى لحقت المظفر فانه لم يرد ان يعترف بالحقيقة وابى ان يظهر للناس ان مالحق بلاده من الخراب والدمار علي يد اعدائه قد نال منه او اترف نفسيته، لذلك لم يقبل ان يعقد صلحا شريفا مع خصمه، وتظاهر بان بعث في طلب القيانات من قرطبة ليحيى معهن حياة اللهو والمجون ويقول ابن حيان (2) «فلما قضى المتعضد من تدويخه بلاده وطره وكر راجعا الى اشبيلية في شوال من العام، وردت علينا يؤمئذ بقرطبة غريبة، وذلك ان رسول المظفر بن الافطس ورد قرطبة اثر هذه الوقائع عليه، يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن نافيا بذلك الشمانة عن نفسه، ولم تكن له عادة بمثله. فنقب له رسوله عن ذلك وكنن قد عد من بقرطبة يومئذ فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لاطائل فيهما فاشتراهما له واقام رسوله يلتمس الخروج بهما فلم يستطع لقطع خيل المتعضد جميع الطرق، فأقام رسوله مدة بقرطبة الى ان ارسل بخيل كثيفة ومضى بهما وأولوا النهى يعجبون مما شهر به نفسه من البطالة ايام الحروب المحرمة لاظهار النساء على فحول الرجال العاقدة الازرة على ما كان يدعيه لنفسه من الادب والمعرفة.

---

1) الذخيرة قسم 1 ج 1 ص 361 - 363 . قسم 2 ص 17 - 19 . البيان المغرب ج 3 ص 209 - 212 .

2) الذخيرة قسم ثاني ص 19 نقلا عن ابن حيان. البيان المغرب ج 3 ص 211.

قال : وبحثت على هذه الاعجوبة فاذاهو معاند في ذلك لكاشحة المتعضد المرتاح بعد الظفر لاجتلاب قينه ابن الرميمى الوزير منقرطبة بعد وفاته حينئذ وقد استدعاها لما وصفت له بالحذق فى صنعتها فوجهت نحوه فتقبله المظفر فى اظهار الفراغ وطلب الملهيات وقد علم العالم انه لفي شغل عنهن».

وهكذا ظل النزاع بين المتعضد والمظفر مشتدا وابو الوايد ابن جهور رئيس قرطبة يسعى فى اصلاح ذات البين بينهما الى ان نجح فى مسعاه وعقد الصلح بين المتعضد والمظفر سنة 443 ه.

ولعل المتعضد اراد بهذا الصلح ان يكسب الوقت حتى يستعد للاتسيلاء على مدينة لبلة وغيرها من الامارات الصغيرة ليوسع املاكه من الناحية الغربية.

عند ما انتصر المتعضد انتصاره الحاسم على المظفر بن الافطس بدأ يتطلع الىتوسيع رقعة مملكته بالاستيلاء علىالولايات الغربية المجاورة لاشبيلية. وشاءت الظروف ان تساعد المتعضد على تنفيذ خططه. ذلك ان قرطبة التى كان يحكمها في هذا الوقت ابو الوايد محمد بن جهور منذ سنة 435ه كانت مهددة بالغزو من بنى ذي النون امرء طليطلة وخصوصا عندما خضعت طليطلة لفرديناند الاول ملك قشتاله وليون ورضيت بدفع الجزية اليه وكونت معه شبه تحالف استطاع به ان يعتمد اميرها المأمون يحيى ابن ذي النون على معاونة فرسان القشتالين فى مهاجمة قرطبة، وذلك فضلا عن المساعدة التى كان يقدمها له عبد العزيز ابن ابي عامر امير بلنسية والمرية (1).

اصبح من الطبيعي ان لا تقوى قرطبة على رد هجمات ابن ذى النون في ثوبه الجديد، لذلك تنازلت عن كبريائها واعترفت باستقلال

1) يوسف اشباخ ج 1 ص 49 .

جيرانها بني عباد وبنى الافطس واهابت بهما ان يتحدا معها على دفع الخطر الذي كان يهدد كيانها من بني ذي النون. ولما كان المعتضد ينظر بعتن الحذر الى توسيع امارة طليطلة فقد رضى ان يدخل في هذه المعاهدة رغما عن ان المأمون يحيى ابن ذي النون كان فى سنة 436 هـ كان قد اعترف بخلافة هشام الحصري الذي كان يحتضنه المعتضد (1) اما المظفر امير بطليوس فانه لما كانت العلاقة متوترة بينه وبين بني ذي النون فقد قبل هو ايضا هذا العرض من قرطبة، وبذلك تالف حلف من قرطبة واشبيلة وبطليوس ضد طليطة واميرها المامون يحيى بن ذي النون سنة 443 هـ. (2)

الا ان هذا الحلف كانت له آثار بعيدة المدى بالنسبة للمعتضد ذلك أن امراء الغرب اصحاب «لبلة» و «ولبة» و«جزيرة شلطيش» و«اكشونية» تطلعوا الى الانضمام الى هذا الحلف، غير ان المعتضد عارض في قبول انضمامهم كحلفاء مستقلين اذ كان يعتبرهم داخلين في نطاق حمايته.

وبالرغم من معارضة المعتضد فان امراء الغرب ارسلوا امير لبلة (3) لينوب عنهم في عقد محالفة خاصة مع قرطبة وحدها وقد وفق هذا الامير في مهمته حيث عقد مع قرطبة معاهدة تعهد فيها الجميع ان يكونوا يد واحدة على من يريد الاعتداء عليهم.

وطبقا لهذا الحلف خرجت جميع القوات المتحالفة الى قرطبة لتدفع عنها عدوان بنى ذي النون، غير ان المعتضد بدلا من ان يرسل قوة كبيرة لمعاونة ابن جهور اكتفى بان ارسل اليه قوة لا تزيد على خمسائة فارس

---

1) راجع ص 57 - 58 من هذه الرسالة.

2) يوسف اشباخ ج 1 ص 45، 49 - 50.

3) يسمى يوسف أشباخ هذا الامير بعبد العزيز بن يحيى اليحصبي ولعله يقصد عز الدولة محمد بن يحيى اليحصبي اذ ليس في بني يحيى من اسمه عبد العزيز، راجع يوسف اشباخ ج 1 ص 50 - البيان المعرب ج 3 انظر ص 299.

واحتفظ بجيشه كاملا ليستعمله فى ضم الولايات الغربية الى مملكته.

وبينما الامراء مشغولون في الدفاع عن قرطبة اذا بالمعتضد يجرد حملة على مدينة لبلة التي طالما حاول الاستيلاء عليها، ولم يجد المعتضد في هذه المرة صعوبة في الاستيلاء على هذه الامارة لان اميرها ناصر الدولة فتح بن خلف كان من الضعف بحيث كتب الى المتعضد يطلب منه السماح له بمغادرة لبلة الى قرطبة فسمح له المعتضد بذلك بل انه تفضل وارسل معه كتيبة تحرسه الى ان ابلغته الى منفاه الذي اختاره لنفسه سنة 443 ه، وبقى بها الى ان توفي سنة 446 ه.(1).

وكان يحكم ولبة وجزيرة شلطيش عز الدولة ابو زيد عبد العزيز البكري - والد ابي عبيد البكري صاحب كتاب المسالك والممالك - وكان لبني بكر شهرة واسعة وجاه عظيم في الاندلس، كما كان لهم اتصال وثيق باسماعيل بن عباد جد المعتضد، فاغتر عبد العزيز البكري بهذه الرابطة وبادر فارسل الى المعتضد يهنئه باستيلائه على لبلة.

وكان عبد العزيز يعرف ان ساعته قد دنت ولذلك شفع تهنئته للمعتضد بالاعتراف بطاعته وعرض عليه ان يتخلى له عن ولبة على ان يسمح له بالبقاء بجزيرة شلطيش. وتظاهر المعتضد بقبول هذا العرض ثم بعث اليه يخبره بانه سيزوره فى امر يهمه، ولكن عبد العزيز لم تطمئن نفسه الى هذا الاجتماع ففر من ولبة قبل ان يلحقه بها المغتضد ورحل الى جزيرة شلطيش فلما وصل المعتضد الى ولبة أمن اهلها على حياتهم واموالهم واسند ولاية المدينة الى ابنه محمد الظافر الذي عرف فيما بعد بالمعتمد على الله ثم حاصر عبد العزيز بشلطيش ومنع الناس من الاتصال به ولما كان عبد العزيز لا يستطيع مقاومة المعتضد فقد تخلى له عن

1) الذخيرة قسم 2 ص 19 - 141 البيان المعرب ج 3 ص 213 - 240 انظر الذيل ص 299 - 301.

جزيرة شلطيش بشروط وفى له بها المعتضد وذهب الى قرطبه التي كانت ماوى للمشردين من امثال هذا الامير سنة 443 ه، ثم اضاف المعتضد هذه المدينة الى ابنه المعتمد (1).

وفي خلال ذلك جرد المتعضد حملة على مدينة سنتمرية الغرب وكان بها المعتصم محمد بن سعيد بن هارون وكان هذا الرجل «مجهول النسب لا يعرف اكان من العرب ام من البربر؟، والرجال المجهول اصلهم في العادة يكونون من الاسبانيين سكان البلاد الاصليين»(2).

وكانت ايام المعتصم كلها اعيادا ومواسم لحسن سياسته وشهامته ولما كان يغدقه على رعيته من احسانه ولكن المعتضد لم يتركه يتمتع بحب رعيته فجرد عليه حماة وطرده من مدينته سنة 443ه، (3). وكان المعتصم قد ورث عن ابيه سعيد حكم مدينة اكشونية فلما تغلب المعتضد على سنتمرية لغرب واضافها الى ابنه المعتمد اتبعها باكشونية (4) فانتزعها من يد المعتصم سنة 449 ه (5).

بعد هذه الانتصارات وجه المعتضد انظاره الى ولاية «شلب»(6) وكان قد

---

1) الذخيرة قسم 2 ص 19 - 141. البيان المعرب ج 3 ص 224 - 240 - 141. انظر الذيل ص 299 ابن خلدون ج 4 ص 157.

2) ملوك الطوائف ص 124.

3) هذه رواية ذيل البيان المعرب ج 3 ص 198. ويذهب ابن خلدون ج 4 ص 157 الى انها سقطت سنة 439 ه، ونحن نرجح الرواية الاولى لاننا نعرف ان المعتضد كان في سنة 439 ه، في حرب طاحنة مع ابن الافطس وحلفائه البربر.

4) اكشونية بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم الشين المعجم وسكون الواو وكسر النون وياء خفيفة، مدينة بالاندلس يتصل عملها بعمل اشبونة. معجم البلدان ج 1 ص 317.

5) البيان المعرب ج 3 انظر الذيل ص 198. ابن خلدون ج 4 ص 157.

6) كانت شلب قاعدة كورة اكشونية وتقع في غربي اشبيلية وشماليها على ساحل المحيط وكانت مشهورة بالادباء والشعراء. راجع الادريسي ص 179. الروض المعطار ص 106. تقويم البلدان ص 110.

استبد بها منذ سنة 440 هـ(1)المظفر الاول ابو الاصبغ عيسى بن ابي بكر ابن مزين، وكان هذا الامير يخشى اعتداء المعتضد عليه فلذلك نراه يصانعه ويهاديه غير ان شيئا من ذلك لم يؤثر في المعتضد الذي اعلنها حربا شعواء على هذا الامير، ولما راى المظفر انه لا يكف عن عادته بما يصله من احسانه برز اليه بنفسه في جموعه ورجاله فكانت بينهم حروب ووقائع مات فيها بشر كثير والظهور في ذلك كله للمعتضد الى ان خلعه وقتله سنة «445هـ» (2) وبايع اهل سلب لابنه محمد الملقب (ناصر الدولة) الا انه اضطر ان يتنازل للمتعضد عن مدينة «باجة» وبقى يصانع المتعضد الى توفى سنة 450هـ، ثم بويع لابنه المظفر الثاني عيسى بن محمد. ولكن المعتضد لم يتركه يتذوق طعم الحكم فشن عليه الغارات «الى ان دخل عليه مدينة شلب عنوة بعد ان خرب اسوارها بالمجانيق واقتحم عليه قصر الامارة فاخذه وضرب عنقه سنة 455هـ، واضاف هذه المدينة الى ابنه المعتمد (3).

وبهده الانتصارات السريعة استطاع العتضد ان يوسع مملكة أشبيلية من الناحية الغربية على حساب هؤلاء الامراء الضعاف.

كان المعتضد عند ما هم بالاغارة على امراء الغرب قد عقد معاهدة صداقة بينه وبين امراء البربر فى الجنوب حتى لا يحارب في جبهتين فى وقت واحد، ولم تكن تلك المعاهدة الاكسبا للوقت حتى ينتهى من محاربة الامارات الغربية ثم يتفرغ لهم بعد ذلك لان المعتضد لم يكن ممن يحترمون العهود والمواثيق، فكان ضم قطعة من الارض

---

1) هذه رواية ذيل البيان المعرب ج 3 ص 197 . ويذهب ابن خلدون ج 4 ص 157 الى ان المظفر استبد بها سنة 419 هـ .

2) هذه رواية ذيل البيان المعرب ج 3 ص 297، ويذهب ابن خلدون ج 4 ص 157 الا انه توفى سنة 442 هـ، وهذا مستبعد.

3) راجع البيان المعرب ج 3 . انظر الذيل ص 298 . ابن خلدون ج 4ص157.

الى مملكته او اخضاع امير الى سلطته هو ما يتمناه ويسعى اليه، ولوكان في ذلك نقض لعهد اوميثاق، لذلك لم يكن يتوانى في حرب اصدقائه واعدائه على السواء.

وكانت الانتصارات التى احرزها المعتضد في النواحي الغربية انتصارات سريعة موفقة شجعته على ان ينقض العهد وان يزيد في رقعة مملكته بالتوسيع في الجنوب فوجه اهتمامه الى البربر وابتدأ بأ ضعفهم شوكة وهو القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، ولم تكن قوة القادم تتعدى في هذا الوقت مائه فارس، لذلك استعد المعتضد لمهاجمته وجمع الاساطيل والجيوش وكان للمعتضد من ذلك عدد كثير بما انضم اليه من الولايات.

خرج الجيش الاشبيلي فى سنة 446 ه، تحت امرة الوزير عبد الله ابن سلام فنزل على الجزيرة الخضراء وحاصرها برا وبحرا ورغما عن الاستغاثات المتكررة التي كان يبعثها القاسم الى حليفه سواجات اوسقوت البزغواطي صاحب سبتة، فان هذا تأخر عن نجدته، وعندئذ لم يجد القاسم بدا من النزول على امر القائد الاشبيلي الذي اعد له مركبا يسير فيه حيث شاء فآل امره الى ان نزل بقرطبة عند ابن جهور مع امثاله من الامرا‌ء المخلوعين. وبذلك سقط هذا المعقل الحصين في يد المعتضد (1).

غير ان قائد اشبيلية المنتصر عبد الله بن سلام، عند ما كان عائدا الى وطنه تحيط به هالة من المجد والفخار، خرجت عليه جماعة من بنى يرنيان والحقت به هزيمة فادحة سقط على اثرها صريعا وكان

---

1) هذه رواية الذخيرة قسم2 ص 19 . والبيان المعرب ج 3 ص 213 . ويروي لنا صاحب البيان ايضا في ص 231 رواية اخرى يذهب فيها الى ان القاسم رحل الى سبتة ونزل عند سقوط البرغواطي. اما صاحب اعلام الاعلام ج 3 ص 616 فيذهب الى ان القاسم انتقل الى المرية وبقي بها الي ان توفى.

هذا هو الثمن الوحيد الذي دفعه المعتضد في الاستيلاء على الجزيرة الخضراء (1).

بعد ذلك رأى المعتضد ان الوقت قد حان لضم ما بقي من الامارات البربرية الى اشبيلية غير انه رأى كذلك من الحكمة ان لايستعمل العنف في اول الامر معهم فاوحى اليه شيطانه ان يرحل في زيارة الى امراء البربر ليعجم عودهم من ناحية ويستميل ذوي النفوذ والجاه في اماراتهم من ناحية اخرى.

وكانت مجازفة من المعتضد عند ما خرج في اثنين من خدمه لزيارة هؤلاء الامراء، ونزل في اول الا ر ضيفا على الحاجب محمد بن نوح الدمري صاحب حصن «مورور» (2) من غير ان يكون لابن نوح علم بهذه الزيارة فرحب ابن نوح بضيفه واكرم وفادته وكان المعتضد طيلة ايام الضيافة يظهر السرور لما قام به مضيفه من كرم الضيافة، ولاجل ان يستميل رجالات البربر اليه وزع عليهم كثيرا من المنح والهدايا التي جلبها معه لهذا الغرض وبعد ما انتهت مدة الضيافة استاذن المعتضد ابن نوح في الرحيل وشكره على ما قام به نحوه، ثم استأنف سيره لزيارة ابي نور ابن ابي قرة اليفرني امير «تاكرونا» (3) ونزل عليه ضيفا في عاصمة ملكه «رندة» فاحتفل ابو نور بالمعتضد احتفالا عظيما، وكادت ايام الضيافة تمر من دون ان يكدرها شيء

---

1) الذخيرة رقم 2 ص 19 - 20. البيان المعرب ج 3 ص 213 ، 218 ، 231 - 243. اعلام الاعلام ج 3 ص 166 .

2) مورور كورة متصلة باحواز قرمونية وهي في الغرب من كورة شذونة ويسميها ياقوت «موزور» بالزاي ويقول انها مشتقة من الوزر، الروض المعطار ص 188، معجم البلدان ج 8 ص 193.

3) تاكرونا او تاكرونة مدينة بالاندلس كانت - على قول صاحب الروض المعطار تعد من اقليم استيجة، اما على قول ياقوت فانها كانت تعد من اقليم شذونة راجع الروض المعطار ص 260. معجم البلدان ج 2 ص 303.

ولكن بينما القوم ذات ليلة في سهرة يتسامرون ويتجاذبون اطراف الحديث، وكانت الخمر قد فعلت فعلها في رؤوسهم، اذ رأى المعتضد بعض الحركات المريبة تبدو على وجوه البربر وبدأت دلائل الشر تظهر على ملامحهم فتظاهر المعتضد بالتعب واستاذن الجالسين ان يسمحوا له بالاستراحة برهة من الزمن حتى يرجع اليه نشاطه، وفارق المعتضد المجلس وانتقل الى حجرة اخرى قريبة من حجرة السهرة حيث كان يسمع كل ما يدور بين القوم من حديث، وسمع المعتضد - وهو ملقى على السرير متظاهر بالنوم العميق - أحدهم يقول «يظهر ان عندنا كبشا سمينا قد مد صفحته للسكين المشحوذ وقد واتانا حظ سعيد كنا بعيدين عن ادراكه، ولو اننا بذلنا في سبيل هذه الفرصة ما في الاندلس من ذهب لم نجد ذلك شيئا، بينما ذلك الطاغية قد حضر بنفسه وأمكنكم من مقاتله انتم تعلمون جميعا ان ذلك الرجل هو الشيطان بعينه، فاذا ما قضينا على حياته لم ينازعنا احد السلطة في هذه البلاد» (1).

وكادت فكرة القتل اخيرا تستولي على عقول القوم، واخذوا يفكرون في طريقة التنفيذ وبينما هم يتشاورون في الامر اذا بواحد منهم وهو معاذ بن ابي قرة يخرج عليهم براي جديد وكان هذا الراي ينطوي على كثير من التسفيه لما سيقدم القوم عليه، اذ انه لم يشارك قومه في تفكيرهم، ورأى فيما سيقدمون عليه اهدارا للتقاليد التي جرت عليها قبائل البربر من أكرام الضيف والدفاع عن حوزته وقام معاذ بن ابي قرة في وسط قومه قائلا: «اياكم ايها القوم ان تفعلوا هذه الفعلة الشنعاء ان هذا الامير بزيارته لنا ومجيئه عندنا قد وثق وامن جانبنا واعتمد على اخلاصنا ووفائنا له، ومسلكه هذا يدل على انه يقطع بانا غير اهل بان نخونه او نخفر ذمته، ولدينا من الشرف وطيب العنصر ما يدعونا لان

---

1)ملوك الطوائف ص 127.

نحقق ظنه فينا وثقته بنا، وبماذا تتحدث عنا القبائل غدا اذا علموا اننا وطئنا باقدامنا قداسة حقوق الضيافة، فقتلنا ضيفنا؟ ففكروا ايها القوم مليا وتوبوا الى رشدكم ولعنة الله على من يرتكب هذه الجريمة».

جرى كل ذلك والمعتضد يسترق السمع وهو بين الموت والحياة ولم يتنفس الصعداء الا عند ما سمع اشراف البربر يؤمنون على كلام معاذ ابن ابي قرة، ولو ان معاذا كان يعلم ما تنطوي عليه نفسية المعتضد نحو قومه وما يضمره لهم من الشر لما تردد في حضهم على البطش به في هذه الفرصة التي سوف لاتعوض.

استيقظ المعتضد من تناومه ورجع الى المجلس ليشارك البربر في لهوهم ومجونهم - ولم تكد تباشير الصباح حتى استاذن المعتضد زعماء البربر في الرجوع الى اشبيلية بعد ما شكرهم على جميل كرمهم وما اظهروه نحوه من العطف والتقدير وأخيرا اعتذر لهم عن عدم تقديم الهدايا لهم لان ما كان عنده منها قد نفد وطلب احضار دواة وقرطاس ثم رجى من الحاضرين ان يملي كل واحد منهم ما يشهتيه من تحف يرسلها اليه عند ما يعود الى اشبيلية ولم يكن المعتضد بالبخيل في مثل هذه المواقف فانه لم يكد يستقر في عاصمة ملكه حتى بعث الى كل واحد منهم ما طلبه وما اشتهاه.

وبعد مدة قليلة من هذه الزيارة استدعى المعتضد ابن نوح الدمرى صاحب مورور وابا نور بن ابي قرة اليفرني امير تاكرونا ليرد اليهما بزعمه جميليهما وصنعهما نحوه ولم يكذب الاميران الخبر واسرعا لزيارة المعتضد وانضم اليهما امير ثالث هو عبدون بن خزرون امير بني رنيان اصحاب شذونة وشريش واركش. وبالرغم من ان هذا الامير الصغير لم تكن تشمله الدعوة الا انه تطفل وجاء يسعى الى حتفه بظلفه.

استعد الامراء الثلاثة لهذه الزيارة فقدموا الى اشبيلية في احسن زي

وابهى ملبس وافخم عدة راكبين الخيول المسومة ومتقلدين السيوف المزخرفة بالذهب والفضة، وكانوا نحو مائة فارس، وفى اليوم الثالث من وصولهم الى اشبيلية استدعاهم المعتضد الى قصره وعند ماكمل عقدهم وتزين بهم المجلس استدرجهم الى الحديث واخذ يعتب عليهم عدم اخلاصهم له في محاربة اعدائه ثم اخذ يغلظ لهم القول حتى ثارت ثائرة ابن نوح الدمري الذي لم يستطع كبح جماحه فرد على المعتضد بكلام هاج اعصابه فلم يتمالك هذا ان لطمه وصاح صيحة مرعبة بعبيده الذين كانوا ينتظرون الاشارة منه فدخلوا على البربر واقاموا من مجلسهم في منظر زري من النطم والشتم ينتفون لحاهم ويضربونهم على وجوههم ثم امر المعتضد بتكبيلهم واخذ جميع خيلهم وسلاحهم واخبيتهم بكل ما كانت تحتوي عليه من نفائس وكان القوم استدانو من اخوانهم كل طريف وتالد ليظهروا في اعين الاشبيليين بمظهر يليق بهم فاستولى المعتضد على كل ما كانوا يملكون فحصل من ذلك على مال كثير وبقي البربر في سجن المعتضد ولم يطلق منهم الا ابا نور بن ابي قرة فان المعتضد اطلق سراحه لمكيدة دبرها للانتقام منه اذا كاتبه على لسان جارية من جواريه برندة يخبره ان ابنه قد ارتكب الفاحشة بزوجه وعمته فلم يكذب ابا نور هذا الخبر لما كان يعلمه من فساد اخلاق ابنه وكان اول عمل قام به عند رجوعه ان ضرب عنق ابنه باديس ثم الحق به عمته ثم لم يلبث ان اكتشف ان الرواية كلها من اختلاق المتعضد فمات حسرة وندامةفي نفس السنة التي جرت فيها هذه الحادثة وهي سنة 450 ه‍' (1).

ولما قرب اجل بقية المسجونين الآخرين امر المتعضد باطلاق سراحهم ورد عليهم كل ما كان سلبه منهم ثم صنع لهم مأدبة فاخرة

1) البيان المعرب ج 3 ، انظر الذيل ص 313 ، ابن خلدون ج 4 ص 157 .

تمتعوا فيها بما لذ وطاب من المطعوم والمشروب وبعد ما فرغوا من المأدبة عرض عليهم ان يستحموا في حمام الزفاقين (1) الذي كان معدا لهم واستبقي منهم معاذ ابن ابي قرة.

ولم يكد امراء البربر يدخلون الحمام ويجلسون بازاء الحوض للاغتسال حتى خرج الخدم الذين دخلوا معهم ليعينوهم في قضاء مآربهم وكانوا قد اعدوا الجيار والآجر، واعطيت الاوامر ليبنوا باب الحمام على من فيه من البربر كما أعطيت الاوامر الى الوقاد ليزيدوا النار اشتعالا.

وبينما القوم يتلذذون بهذا النعيم الزائل اذ بهم يسمعون حركة من خلف الباب فلم يعيروها التفاتا وظلوا على حالتهم تلك الى ان ان بلغت درجة الحرارة غايتها واحسوا بضيق لتنفس فالتمسوا الباب ليخرجوا منه فاذا هو محكم الغلق ولم تمض عليهم برهة من الزمن حتى قضوا نحبهم خنقا(2).

بهذه الطريقة طريقة الغدر والخيانة انتقم المعتضد من زعماء البربر ولم ينج منهم سوى معاذ بن ابي قرة (3) لما ابداه من النبل والشجاعة

1) يصف دوزى هذا الحمام بقوله «وهو مماثل لما يوجد الآن من نظرائه في البلاد الاسلامية مغطاة ارضه بالرخام الملون مكسوة قبه بانصاف كرات جوفاء من زجاج غير صقيل لا رسال الضوء الى اسفل في وسطه فوارة تمج الماء الى اعلى، وفي جوانبه مغاطس مملوءة بالماء الساخن وصنابير بارزة في الجدران بعضها يصب منه ماء بارد وبعضها متصل بمرجل الحمام يصب منه ماء ساخن قد وصل الى درجة الغليان» ملوك الطوائف ص 131 .

2) الذخيرة قسم 2 ص 21. البيان المعرب ج 3 ص 214 - 273. انظر الذيل ص 395. اعلام الاعلام 274. ابن خلدون ج 4 ص 157. ملوك الطوائف ص 130 -132.

3) هذه رواية دوزي «ملوك الطوائف ص 132 » ويرى ابن خلدون ج 4 ص 157 . ان الذي نجا منهم هو ابن نوح الدماري لان المعتضد سالمه من بينهم لليد التي كانت له عنده. وهذا يناقض ما ذكرناه من ان ابن نوح هو الذي ثار في وجه المعتضد عند ما اغلظ له القول ويصرح صاحب البيان المعرب ج 3 ص 270 ان ابن نوح كان من بين الثلاثة الذين قضى عليهم في الحمام .

عند ما اراد قومه ان يعصفوا بحياة المعتضد على طريق الغدر والخيانة
وطال الانتظار بمعاذ بن ابي قرة فتجاسر وسال المعتضد عن السبب الذيجعل اخوانه يتأخرون في الحمام وهنا فاجأه العتضدبالحقيقة المرة قائلا له «لا خوف عليك اما اولئك الخونة من أهلك وعشيرتكفقد استأهلو العقاب واستحقوا ما حل بهم من هلاكهم خنقا فى الحمام لتآمرهم على قتلي حين كنت بضيافتهم وثق انني كنت متناوما ابان تآمرهم على قتلي وقد سمعت كل ما دار بينهم من الحديث فى هذا الموضوع الخطير كما استحسنت كلامك فى هذا الصدد ولست انسى ما حييت ما انا مدين لك بهمن هذا الجميل الذي طوقتني به وانت مخير الآن بين البقاء هنا حيث اقاسمك جميع ما املك ـ ان شئت ـ وبين العودة الى وطنك واذا اخترت العودة ورغبت فى الاقامة برندة فلك مني ان اغمرك بسني جوائزي ونفيس الهدايا»فاجابه معاذ بصوت حزين «وكيف العودة يا مولاي الى الوطن؟!» وكل ما فيه يمثل لي ذكرى من فقدتهم «فرد عليه المعتضد»عليك اذن ان تقيم باشبيليةآمنا لا تخاف شيئا »واعد له قصرا فخما لاقامته ومنحه الف قطعة من الذهب وعشرة من الخيل المسومة وعددا من العبيد ليكونوا تحت خدمته (1).
بعد ما قضى المعتضد على زعماء البربر على تلك الطريق التي رأيناها وفصل رؤوسهم عن اجسادها وضمها الى رؤوس يحيى بن حمود وعبد الله بن محمد البرزالي وغيرهممن امراء البربر بعث حملة الي بلاد اولئك الامراء وكان عماد الدولة ابن نوح الدمري قد خلف اباه ـ الذي قتل خنقا في حمام الزفاقين ـ على مورور فلم يزل المعتضد مغير على بلاده حتى كاتبه وخطب سلمه وعرض عليه ان يخلعنفسه ويخرج الى اشبيلية باهله وماله فاجاب المتعضد الى ما طلب وخرج

1) ملوك الطوائف ص 132 - 133 .

عماد الدولة بن نوح الى اشبيلية سنة 458 ه، حيث بقي بها الى ان توفى سنة 468 ه (1)

وكان محمد بن خزرون - اخو عبدون بن خزرون - قد تخلف عن دعوة المعتضد وبذلك نجا من الموت المحقق، غير ان المعتضد لم يتركه يتمتع بالحياة طويلا - فلم يكد يفرغ ممن عصف بهم من زعماء البربر حتي وجه اليه حملة حاصرته في مدن شذونة واركش وشريش، ولما لم يجده الحصار بنى بالقرب من هذه المعاقل حصنا شده بالخيل والرجال، ولما ضاق بالحصار محمد بن خزرون عرض على باديس بن حبوس امير غرناطة ان يتنازل له عن اركش وجميع ما بيده من بلاد شذونة وان يبيعه ما لديه من موءن وذخائر في مقابل ان يتنازل باديس لا بن خزرون عن بعض بلاده ليرحل اليها هو وقومه، وعلى ذلك خرج بنو ارنيان بأموالهم وحرمهم على نحو عشرين بغلا، غير انهم لم يكادوا يبتعدون عن القلعة التي خرجوا منها نحو عشرين ميلا حتي اعترضتهم خيل المعتضد بفحص « شلب » ووقعت بين الفريقين مجزرة دموية فالتجأ بنو ارنيان الي ربوة كانت قريبة منهم وحطو بها رحالهم، وعند طلوع الفجر هب في وجوه بني أرنيان كمين كان قد عده لهم المعتضد فأوقع بهم وقعة منكرة بعد ما قاتلوا على حريمهم واموالهمحتي ابيدوا عن آخرهم. وقبل ان يقتل اميرهم محمد بن خزرون امر احد غلمانه بان يجهز على امراته التي كانت فى غاية الحسن والجمال حتي لا تصل ايدي خصومه اليها، وكذلك امر ان يفعل بأخته ما فعل بزوجته. وهكذا استولي المعتضد

---

1) راجع البيان المعرب ج 3. انظر الذيل ص 296 .

بعد هذه الموقعة على اركش وسائر بلاد شذونه سنة 458 هـ (1).

وكان ابوا نصر بن ابي قرة قد خلف اباه على حكم اقاليم تاكرونا فلما اراد المعتضد اخضاع هذا الاقليم استمال اليه بعض الخونة بمدينة رندة قصبة الاقليم وبذل لهم الاموال حتى ثاروا على ابي نصر بزعامة رجل يعرف بابن يعقوب. وقصد الثوار الى قصر الامارة ولكن الامير عند ما سمع الثوار ينادون بشعار بني عباد عرف مصيره وقال بيدي لا بيد عمرو، والقى بنفسه من فوق سور دار الامارة فتشهم ومات سنة 459 هـ (2).

استقبل المعتضد سقوط رندة بفرح شديد حتىانه من يوم سقوطها وهو لا يفتر ان يردد - في ابيات شعرية - سقوطها والتغني بالقوم الذين حاربهم وتغلب عليهم فيقول. -

لقد حصنت يارندة	فصرت لملكنا عدة
أفادتنا لا أرماح	واسياف لها حدة

الى قوله:

فكم من عدة قتلت منهم بعدها عده	
نظمت رؤوسهم عقدا	فحلت لبة الشدة

وأعجب المعتضد بهذه القصيدة الرندية وأخذ الناس بحفظها وضبط معانيها ولفظها. (3).

تلقى باديس بن حبوس امير غرناطة خبر استيلاء المعتضد على

---

1) هذه رواية ابن عذارى (البيان المعرب ج 3 ص 271 - 273). ويرى صاحب ذيل البيان المعرب ج 3 ص 294. ان المعتضد استولى على هذه البلاد سنة 461 هـ، واجع ايضا اعلام الاعلام ج 3 ص 275 - 276.

2) هذه رواية ابن خلدون ج 4 ص 157. ويرى صاحب ذيل البيان المعرب ج 4 ص 312 ان رندة سقطت سنة 457 هـ.

3) الذخيرة قسم 2 ص 16. البيان المعرب ج 3 ص 208.

الامارات البربرية باضطراب وفزع شديد، وصار يرغي ويزيد كالبحر الزاخر ، وشق ثيابه واعلن اعواله وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه ، واقسم يمينا غير محنث فيها ان لا بد من الانتقام من العرب في اشخاص اهل حضرته حيث أنه لا قبل له بالانتقام من المعتضد بن عباد ، وحدد لذلك يوم الجمعة حيث يكون العرب من اهل غرناطة بمسجدهم الجامع فيهجم عليهم بخيله ورجله ويستريح من هؤلاء الذين ربما قد يقومون بقلب نظام الحكم في غرناطة بدسيسة المعتضد .

ولما كان باديس لا يكتم سرا عن وزيره اليهودى يوسف بن اسماعيل المعروف بابن النغرلي فانه افضى اليه بالامر وصارحه انه عازم على الانتقام من العرب الذين هم بغرناطة ، فنصح اليه اليهودى وحذره مغبة ما سيقدم عليه وقال له « هبك وصلت الى ارادتك ممن بحضرتك على ما في استباحتهم من الخطر، فانى تقدر على الاحاطة بجميعهم من اهل حضرتك وبسائط الممالك ؟ اتراهم يطمئنون الى الذهول عن مصائبهم والاستقرار فى مواضعهم ؟ ما أراهم الا سيوفا ينتظمون عليك في جموع يفرقونك في لجاجها أنت وجندك » .

غير ان باديس كان قد جن جنونه وملكت عليه فكرة الانتقام جميع حواسه فضرب بكلام وزيره عرض الحائط وبدأ يستعد لليوم المشهود بعرض الجند واعداد السلاح والتعبئة للهجوم .

ولعل اليهودي لم يطمئن الى تصرفات مليكه التي كان يدبرها سرا عنه ، فدس ابن النغرلى النساء على معارفهن من بيوتات العرب ينهونهم عن حضور صلاة الجمعة فى ذلك اليوم ويأمرونهم بالاختفاء وعدم الظهور ، ونقل النساء الخبر من بيت الى بيت حتى عم جميع انحاء غرناطة بعد وقت وجيز من اذاعته ، وشاع الخبر فى غرناطة بان باديس يدبر مذبحة للعرب فتختلف جميع العرب عن حضور الجمعة ولم يذهب

الى المسجد الا نفر يسير من عامة الناس. وعلم باديس بافتضاح سره والجيش تحت السلاح بقصره فاستشاط غضبا ولم يبق له شك في ان وزيره اليهودي هو الذي افسد عليه تدبيره، فأحضره وحمله مسؤولية فشل المؤامرة ولكن الوزير انكر ما نسب اليه وقال له متنصلا من هذه التهمة «ومن اين ينكر عن الناس الخبر وانت قد استركبت جندك وجميع جيشك في التعبئة، لا لسفر ولا لعدو وثب عليك؟ فمن هناك حدس القوم بأنك تريدهم، وقد أجمل الله لك الصنع في نفارهم ووقاك الله شرهم فأعد نظرك ياسيدي فسوف تحمد ما فيه رأيي وغبطة نصحي» ولم يثق باديس بوزيره الا بعد أن أيد رأيه وزير آخر من بربر صنهاجه، فعند ذلك استكان باديس ولم يعد يدري ماذا سيعمل لايقاف التوسع الاشبيلي (1)

وفي نفس هذه السنة سنة 459هـ حاول المعتضد الاستيلاء على قرمونية فتم له ذلك بعد جهد.

وذلك ان صاحبها العز بن اسحاق البرزالي عندما تيقن بأن لافائدة من استمرار مقاومته للمعتضد كاتب يحيى بن ذي النون امير طليطلة وعرض عليه ان يتنازل له عن قرمونية نكاية في خصمه المعتضد على ان يعوضه يحيى عن ذلك ببعض بلاده، وفعلا تمت الصفقة بين الفريقين وخرج العز بن اسحق بقواته الى حصن (المدور) (2) من اعمال ابن ذي النون فتخلى عنه يحيى الذي انتقل الى قرمونية واستولى عليها.

في هذا الوقت كان يحيى بن ذي النون يتطلع الى الاستيلاء على قرطبة الضعيفة كما كان المعتضد يرنو ببصره اليها. وعندما بلغه ما تم بين يحيى بن ذي النون وابن اسحق كتب الى يحيى في السر يقول له «ان قرمونية قريبة من بلادي وبعيدة من نظرك وهي اليق بي لأنها

---

1) الاحاطة ج 1 ص 270 - 271. ملوك الطوائف ص 136.

2) المدور حصن حصين مشهور بالاندلس بالقرب من قرطبة. معجم البلدان ج 7 ص 418.

بعيدة من بلادك فاصرفها الي واجعل يدي على يدك على تملك قرطبة حتى اصيرها اليك » . فسال لعاب ابن ذي النون لهذا العرض السخي وبادر بأن نزح بجيشه عن قرمونية وتركها للمعتضد ، وبذلك مرت الحيلة عليه ، فان المعتضد لم يكد يستولي على قرمونية حتى شحنها بالذخيرة والرجال ولم يف لابن ذي النون بشيء مما اتفقا عليه . وهكذا تم للمعتضد الاستيلاء على قرمونية التي طالما قضت مضجع بني عباد . (1).

وقد خلد لنا بعض شعراء المعتضد انتصارته على البربر وما الحقه بهم من قتل وتدمير ، يقول ابو بكر بن عمار من قصيدته التي مدحها المعتضد:

ادر المدامة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد اهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منا العنبرا

الى ان يقول:

شفيت بسيفك أمة لم تعتقد ... الا اليهود وان تسمت بربرا

أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم ... لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وصبغت درعك من دماء كماتهم ... لما علمت الحسن يلبس احمرا (2)

لم يبق للمعتضد عدو يخشى بأسه غير منافسه باديس بن حبوس امير غرناطة. وكان باديس قد انتزع مالقة من يحيى بن ادريس آخر ملوك بني حمود العلويين سنة 449 ه، فجرد المعتضد حملة على باديس وحاصر مالقه عدة ايام وانزل بها اضرارا فادحة ثم انقلب الى غرناطة فشدد عليها الحصار، ولما لم يخرج اليه احد من جندها اكتفى المعتضد بذلك ورجع بجيشه الى اشبيلية (3).

---

1) البيان المعرب ج 3 ص 269 - 283 . انظر الذيل ص 311 . ابن خلدون ج 4 ص 57 . اعلام الاعلام ج 3 ص 271 - 273 .

2) راجع القصيدة في قلائد العقيان ص 96 . والمعجب ص 71 . نفح الطيب ج 1 ص 306 ، ج 2 ص 141 .

3) البيان المعرب ج 3 ص 273 .

لم يستطع المعتضد ان يحقق لنفسه انتصارا يذكر ضد باديس ولذلك عمد الى الخيانة والدس يثير بهما الفتنة في مملكته وكان العرب من اهل مالقة قد بدأوا يتضجرون بالشكوى من ظلم باديس وينظرون بعين الآمل الى امير اشبيلية علة ينقذهم مما هم فيه من عسف وجور وكان المعتضد من ناحية يرتقب أقل حركة من هؤلاء العرب ليتقدم الى ميدان العمل ، وعلى ذلك فقد اتفق الفريقان على ان تنشب ثورة في مقاطعات مالقة في لوقت الذي يكون فيه المعتضد مستعدا لغزو البلاد بجيشه .

وفي اليوم المحدد لتنفيذ الخطة قامت ثورة في مالقة وبعض المقاطعات التابعة لها اشترك فيها خمس وعشرون حصنا وفي الوقت نفسه حزد المعتضد امره وارسل جيشا بقيادة ابنيه جابر ومحمد المظفر فاجتاز الحدو لمعاونة الثائرين ، ولم يمض اسبوع على هجوم الجيش الاشبيلي حتى كانت جميع الحصون قد سقطت في يد الجيش الاشبيلي واستولى على مالقة ما عدا قصبتها التى اعتصمت بها فرقة من السودانيين .

نصح زعماء الثورة لمحمد الظافر بان يشدد الحصار على الحصن ولا يأمن جانب المعتصمين به، اما البربر فقد دسوا اليه ان لا يكلف نفسه مهاجمة القلعة اذان المعتصمين بها سيستسلمون، وقد دخلت حيلة البربر عليه فركن الى الراحة من تعبه والاناخة على لهوه ولعبه، وتفرق اصحابه فى ارتياد الفتيات وطلب اللذات وكان ذلك في الوقت الذي بعث فيه المعتصمون الى باديس بن حبوس في طلب النجدة فوجه اليهم كتيبة عليها ابنه وقائد جيشه، ولم يشعر الاشبيليون الذين هم بمالقة الا وجيش غرناطة قد خالطهم، وبذلك تمت الحيلة على محمد الظافر حيث انه اغتر بما دس اليه البربر ولم يعمل بنصيحة زعماء الثورة واعمل جيش غرناطة فى الاشبيليين السيف فسقط منهم كثير من القتلى والجرحى وامتلات

ايدى الغرناطيين بما سلبوه من سلاح وكراع ومن فاخر المتاع، وفر محمد الظافر بفلول جيشه الى رندة حيث بقي بها شبه منفي 1

ولقد أثرت هذه المذبحة في المعتضد تاثيرا بليغا وأخذ يصب اللعنات على ابنه الذى تسبب باهماله ومجونه في ضياع ثمار هذا النصر المبين واصدر أمره الى ابنه برندة بان يبقى بها بعيدا عنه، وان لا يحاول الاجتماع به ابدا غير ان المعتضد عاد فغفر لابنه هذا الذنب عند ما بعث اليه يستعطفه بتلك القصيدة الرائية التى اشرنا اليها فيما سبق. (2)

وكان المعتضد في اخريات ايامه مبلبل الفكر من ظهور دولة المرابطين التي كانت تنمو ببلاد العدوة «وذلك لما كان يراه في ملحمة كانت عنده: ان هؤلاء خالعوه او خالعوا ولده ومخرجوه من ملكه». (3)

وذات يوم جاءته رسالة من سقوت او «سواجات» البرغواطي عامله فى سبتة يذكر له فيها: «ان القوم الملثمين المدعوين بالمرابطين قد وصلت مقدمتهم رحبة مراكش». فاستولى على المعتضد الغم فقال له احد وزرائه «وأين رحبة مراكش منا يا مولاى؟ واذا وصلها هؤلاء القوم فماذا سكون وبيننا وبينهم الليالي والايام والجماهير العظام؟» فقال المعتضد هو والله الذي اتوقعه واخشاه وان طالت بك حياة فستراه» (4) وأمر بان يكتب الى عامله على الجزيرة الخضراء بان يحصن جبل طارق (5) وان

---

1) الذخيرة قسم 2 ص 27 - 28. البيان المعرب ج 3 ص 273 - 275. قلائد العقيان ص 18 - 19.

2) راجع ص 77 - 78 من هذه الرسالة.

3) المعجب ص 62.

4) الذخيرة قسم 2 ص 22. وقد تصرفنا في هذا النص اما بالاصل من محو

5) سمي هذا الجبل باسم الفاتح العظيم طارق بن زياد ويعرف ايضا بجبل الفتح. وهذا الجبل شبه جزيرة من الصخر الجيري وهو يقع في الجنوب الشرقي من اقليم قادس وهو اليوم تابع لبريطانيا. راجع الروض المعطار ص 21. دائرة المعارف الاسلامية ج 6 ص 296.

✡ ✡ ✡

- ج -

بيـن المعتضـد والمسيحييـن

في الوقت الذي كان فيه الصراع محتد ما بين الامارات الاسلامية بعضها ببعض، كان هناك صراع آخر من هذا النوع بين الممالك النصرانية التي اقامها السكان الجبليون فى استورياش وبشكونية ولم يكـن ابنـاء شانجة الكبير الذين اقتسموا ملك ابيهم فيما بينهم سنـة 1035م يخشـون جانب الامارات الاسلامية التي مزقت اطرافها المنازعات وسادتها الفوضى وبذلك اضاع ملوك النصارى هذه الفرصة السانحة لحشد قواتهم وانتـزاع الامارات الاسلامية من يد خصومهم وفضلوا التناحر فيما بينهم (1).

غير ان ملوك النصارى رجعوا الى رشدهم في آخر الامـر واخـذوا يوجهون الحملات الى جيرانهم المسلمين فصار فرديناند سنة 1057م- سنة 449هـ، في جيش كثيف واخترق حدود بـلاد المظفر بن الافطس الـى

1) المعجب ص 62.
2) يوسف اشباخ ج 1 ص 14 - 15. ملوك الطوائف ص 170.

زامورة (1) محاولا استردادها من يد المسلمين وبعد ان استولى على بعض الحصون زحف على بازو «فيزى» ولم تاخذه في اعداء دينه شفقة ولا رحمة فأسر من اسر منهم ونكل بالباقي، ثم تقدم الى «لاميجو» فافتتحها في نفس السنة واسكن النصارى في تلك النواحي ليكونوا سدا منيعا ضد غزوات المسلمين (2)

وفي سنة 1064م - 456هـ، استولى على مدينة «قلمرية» (3) وساعده في الاستيلاء عليها واليها وهو من عبيد ابن الافطس اذ خاطب فرديناند سرا ان يؤمنه على نفسه واهله وخرج اليه من البلد ثم بعث احد قوامسه ليسولى على مدينة «سنترين» (4) ولكن المظفر ابن الافطس لحق بهذه المدينة في الوقت المناسب واستطاع ان يصالح القوم على جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار(5).

وفي السنة نفسها جرد فرديناند حملة على بلاد ابن هود واستولى على «بربشتر» (6) واذاق اهلها العذاب الاليم غير ان المقتدر ابن هود اعلن على فرديناند حربا دينية وجاءت جميع الامارات الاسلامية لمعاونته وحصر الجيش الاسلامي مدينة بربشتر حتى اخرج الاسبانيين منها سنة 457هـ - 1065م ولكن فرديناند عاد لمهاجمة ابن هود مرة اخرى حتى

1) زامورة او سمورة مدينة بالاندلس كانت دار ملوك الجلالقة، تقويم البلدان ص 119 - 120 . الروض المعطار ص 68.

2) البيان المغرب ج 3 ص 238 - 239 . يوسف اشباخ ج 1 ص 20 - 21 .

3) قلمرية. مدينة حصينة بالاندلس من بلاد برتغال تقع على نهر مندنيق. راجع الادريسي ص 183 . الروض المعطار ص 164 .

4) سنترين مدينة بالاندلس كانت معدودة من كورباجة وتبعد عن بطليوس باربعة مراحل. راجع الادريسي ص 186 . الروض المعطار ص 113 .

5) البيان المغرب ج 3 ص 238 .

6) بربشتر بفتح فسكون فضم فسكون ففتح وراء اخيرة، مدينة بشرق الاندلس الروض المعطار ص 39 .دائرة المعارف الاسلامية ج 3 ص 334 .

اضطره ان يدفع له جزية سنويه وان يتعهد بتقديم كل مساعدة في حربه مع اعدائه(1).

وكذلك فعل فرديناند مع المامون بن ذي النون امير طليطلة فانه جرد عليه حملة كادت ان تعصف به لولا انه تدارك الامر وتقدم الى فرديناند بالهدايا الثمينة من الفضة والاحجار الكريمة وزادعلى ذلك بان عرض عليه ولاءه وصار يدفع اليه الجزية كما فعل ملكا بطليوس وسرقسطة(2).

بعد ما فرغ فرديناند من هؤلاء الامراء توجه الى المعتضد وحاصره باشبيلية «واضطر اميرها لما آنس من روعة جيوش النصرانية أن يتعهد بدفع جزية سنوية لمملكة قشتالة وليون» (3).

ويذهب دوزي (4) الى ان المعتضد في أول الامر «لم يرتح الى دفع الاتاوة ورأى ان يستشير اهل مملكته ويستفتي فيها الفقهاء فجمعهم ليرى رايهم فيما يكون من الشروط وان يقرروا من الراي ما يعرضونه عليه، فاجتمعت كلمتهم على ان يدفع ملك اشبيلية جزية سنوية وان يسلم الى رسل يرسلهم اليه فرديناند جثمان القديسة «جست» العذراء التي استشهدت في عهد الاضطهاد الروماني.

وطبقا لهذا الاتفاق رجع فرديناند الى بلاده وبعث الى اشبيلية «الفينوس» اسقف العاصمة و«آردو» اسقف أشتورقة ليحملا معهما الى العاصمة جثمان القديسة مع ما سيدفعه المعتضد من الجزية المقررة.

ولقد أجهد القسيسان انفسهما في البحث والتنقيب عن هذا الجثمان المنشود فلم يهتديا اليه، وأخيرا اوحى الى الفينوس في منامه بان يبحث

---

1) البيان المعرب ج 3 ص 225 - 227. يوسف اشباخ ج 1 ص 15.
2) ملوك الطوائف ص 170. يوسف اشباخ ج 1 ص 15.
3) ملوك الطوائف ص 171.
4) شرحه.

عن جثمان لقديس آخر بدل الجثمان المفقود وكان هذا القديس الآخر يسمى «ايزيدور» وهو لا يقل قداسة - في نظرهم - واحتراما عن القديسة جست، وذهب الفينوس مع زميله الى المعتضد يتوسلان اليه بان يسمح لهما بالتنقيب عن جثمان هذا القديس ما دام انهما لم يعثرا على جثمان القديسة جوست التي شدا اليها الرحال.

وخشي المعتضد ان تتزايد اطماع المسيحيين في بلاده فعمد الى الدهاء ولم يترك هذه السانحة تمر من غير ان يقوم بدور من ادواره التمثيلية فاستطاع ان يوهم المسيحيين بضخامة ما يطلبون حتى تكون هذه آخر مطالبهم فقال للأسقف: انـي آسف جد الاسف فاني ان اعطيتك رفات ايزيدور فماذا يبقى لي بعد ذلك؟ على انني ايها الشيخ الوقور لاامتنع عن تنفيذ رغباتك وليكن ما اردت، قم فنقب وابحث عن القبر وانقل رفات الراقد فيه على الرغم مما يساورني بعد ذلك من اجله.

واجتهد الباحثون حتى عثروا على هذا القبر وعندما حمل الجثمان على مركبة ليبرح اشبيلية تقدم المعتضد نحوه ووضع عليه قطعة من الديباج المحلى بالنقوش والكتابات العربية وصار ينظر اليه في تحسر مصطنع ويقول «ها انت تبرح المدينة يا ايزيدور وانت تدري ما بين بلدينا من أوثق روابط المودة والعلائق» (1).

وهكذا كان المعتضد بارعا في تمثيل دوره فاستطاع ان يوقف أطماع المسيحيين واستغل هذا الحادث اياما حتى توفي فرديناند سنة 1069 م.

---

1) ملوك الطوائف ص 171 - 175.

المعتضد والخليفة هشام

يجدربنا قبل ان ننتهي من الحديث عن حياة المعتضد ان نوضح علاقته بالخليفة هشام ، وذلك ان المعتضد - بعد الانتصارات التي احرزها على اعدائه سواء في ميدان الحرب او في ميدان السياسة - راى من العبث ان يبقى متمسكا ببيعة هشام في الوقت الذى اصبح فيه اغلب امراء الاندلس خاضعين لسطوته وسلطانه، والا فما المانع من ان يصبح المعتضد خليفة للمسلمين بدلا من ذلك الخليفة الذي صنعه بيده وحمل امراء الاندلس على مبايعته .

وعلى ذلك فقد جمع المعتضد وزراءه وكبار رجال دولته في سنة 451 ه، ونعى لهم الخليفة هشام وذكر لهم ان الخليفة قد توفي منذ زمن بعيد من فالج اصابه ولم يستطع ان ينعاه لهم في الوقت الذي كان فيه في حرب حياة او موت مع اعدائه. اما اليوم وقد كتب له النصر على اعدائه فلم يبق هناك ما يبرر اخفاء موت الخليفة هشام. ولم ينس المعتضد ان يذكر لهم ان الخليفة - قبل موته - اوصى له بولاية العهد وانه تنفيذا لوصية الراحل قد كتب الى جميع امراء الاندلس الذين كانوا تابعين للخليفة هشام ان يبايعوه خليفة عليهم .

بهذه الميتة اختتمت حياة هشام الخيالية التي حيرت عقول اهل الاندلس وكادت ان تحير عقولنا معهم ايضا ويقول بعض مؤرخي الاندلس تعليقا على وفاة هشام هذه « صارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة وعساها ان تكون ان شاء الله الصادقة فكم قتل وكم

مات ثم انتفض من التراب ومزق الكفن قبل نفخة السور ووقعت الواقعة،
قال بعضهم فيه :

ذاك الذي مات مرارا ودفن   فانتفض الترب ومزق الكفن

فقد كان مات في يد اول خالعه محمد بن هشام بن عبد الجبار ثم نشر بيد واضح الصقلبي فتى محمد بن ابي عامر وملك مدة ثم قتله خالعه الثاني سليمان المستعين صاحب البرابرة ودفنه خفية ثم ابرز صداه علي ابن حمود الحسني المنتزي بذكره، الطالب بثأره على الدولة ودفنه الدفنة التي خلناها حقيقة الى ان نجم حيا باشبيلية بعد حقب فبنى هنالك ملكا , دال قرننا الى ان وقعت عليه هذه الميتة الثالثة فما نقول ونعتقد في الفرق بين هذه الميتات المتواليات اذا كان مائتها واحدا وليس الا السيف عليها ادلة غير اخلاص الدعاء لكلمة المسلمين في الائتلاف لما فيه الصلاح؟ (1).

☆ ☆ ☆

- ه -

وفاة المعتضد

وفي سنة 461هـ، أصيب المعتضد بمرض الذبحة الذي توفي منه(2)، وقبل خمسة ايام من وفاته ساءت صحته وضعف جسمه فاستدعى مغنيه السوسي

1) الذخيرة قسم 2 ص 20 - 21 . البيان المعرب ج 3 ص 249 .

2) هذه رواية ابن بسام في الذخيرة قسم 2 ص 11. البيان المعرب ج 3 ص 204. وفيات الاعيان ج 2 ص 29. ويورد لنا المراكشي في المعجب ص 62 رواية اخرى فيقول ان ملك الروم سمه في ثياب ارسل بها اليه

يطربه، وقد تفاءل المعتضد بالقطعة التي سيبتدي بها المغنى فكانت القطعة التي انشدها مبتدئة بهذا البيت :

نطوي المنازل علما أن ستطوينا فشعشعيها بماء المزن واسقينا

ومن الغريب ان القطعة التي انشدها كانت من خمس ابيات بعدد الايام التي بقيت من حياة المعتضد(1).

ويقال ان حزنه العميق على وفاة ابنته المحببة اليه «طاهرة» قد زاد من مرضه فضاعت جهود الاطباء في شفائه، وان تحسنت صحته في صباح الليلة التي دفنت فيها ابنته، غير ان المرض ازداد عليه في المساء وكان مساء سبت (2) فارتفعت روحه الى بارئها وعلت اصوات الخدم والحريم بالعويل من كل جهات القصر، فعلم الناس ان المعتضد الذي قبض بيده كثيرا من الارواح قد ذهب الى ربه ليلقى جزاءه وكان ذلك في اليوم الثاني من جمادى الاولى سنة 461 ه، وتوفى وله من العمر 57 سنة وثلاثة اشهر وسبعة ايام.

---

1 نفح الطيب ج 2 ص 392.وفيات الاعيان ج 2 ص 29 .

2) هذه رواية ابن بسام فى الذخيرة قسم 2 ص 11 ويذهب ابن خلكان «وفيات الاعيان ج 2 ص 29 » انه توفى يوم الاثنين غرة جمادي الاخرة.

المعتمد

461 هـ - 488 هـ

- 1 -

نشأة المعتمد

مولده وشبابه - ولايته الملك بعد ابيه - اخلاقه الخاصة وسياسته في بطانته - بين المعتمد وشاعره ابن عمار - بين المعتمد واعتماد الرميكية .

ولد ابو القاسم محمد الظافر المعتمد على الله بمدينة باجة سنة 431هـ، وظهر على مسرح السياسة عند ما اكتسح والده الامارات الغربية سنة 443 هـ، اذ اسند اليه والده حكم «اونبة» و «شلطيش» و «شنتمرية»، ولما سقطت ولاية «شلب» سنة 455هـ، اضافها المعتضد الى ولده المعتمد ايضا(1)، وفي هذه المدينة تعرف هذا الامير بالشاعر ابي بكر بن عمار الذي لعب دورا هاما في الحياة السياسية والادبية. وعند ما قتل المعتضد

1) راجع ص 88 - 89 من هذه الرسالة

وأده الحاجب أسماعيل استدعى ولده الثاني «المعتمد واسند اليه حجابته وعهد اليه بقيادة الجيش (1).

وفي اليوم الثاني لوفاة ابيه اجتمع مجلس الشورى وحضر المعتمد فاقسم اعضاؤه يمين الولاء والاخلاص، وكذلك فعل اليهود، واحتفل بتنصيب المعتمد ملكا على اشبيلية وجميع الامارات الخاضعة لها واركب على ظهر جواد وطيف به في شوارع المدينة وامامه الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة، وبعد ما طافوا به المدينة ذهبوا به الى المسجد حيث القى الخطبة التقليدية (2).

واشتهر المعتمد بذكائه وغزارة ادبه وجزالة شعره حتى كان اهل عصره يشبهونه بالواثق بالله من ملوك بنى العباس (3).

وكان كريما جوادا كثير الندى يشجع الشعر والشعراء «ولذلك كانت حضرته ملقى الرجال وموسم الشعراء وقبلة الآمال ومألف الفضلاء حتى انه لم يجتمع بباب احد من ملوك عصره من اعيان الشعراء وافاضل الادباء ما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنابه» (4) وقصارى القول ان المعتمد كانت فيه من الخلال الحميدة ما دعى المراكشي (5) ان يقول فيه «واذا عدت حسنات الاندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت فالمعتمد هذا احدها، بل اكبرها».

لم يكد المعتمد يتولى عرش اشبيلية حتى اعاد اليها كل اولئك الذين غضب عليهم والده من قبل، وبذلك كسب عطف بعض رعاياه. على ان اهم نقد وجه اليه هو استهتاره بالدين كأبيه فقد كان المعتمد مدمنا

1) راجع ص 77 من هذه الرسالة.
2) كوندي ج 2 ص 176 - 177.
3) المعجب ص 63.
4) وفيات الاعيان ج 2 ص 29.
5) المعجب ص 63

شرب الخمر وكلما كان على وشك الدخول في موقعة حربية كان يبيح لجنده الشراب المحرم، (1) وكانت قصوره مأوى للسكارى من ندمائه.
وقد نقل لنا احد المؤرخين (2) اوصافا لمجالس المعتمد هذه فقال: «اخبرني ذخر الدولة انه دخل على المعتمد في دار المزينة والزهر يحسد اشراق مجلسه والدر يحكي اتساق تأنسه وقد رددت الطير شدوها، وجددت طربها وشجوها والغصون قد التفت بسندسها والازهار تحيي بطيب تنفسها والنسيم يلم بها فتضعه بين اجفانها، وتودعه احاديث آذارها ونسيانها، وبين يديه فتى من فتيانه يتثنى تثني القضيب ويحمل الكاس في راحة ابهى من الكف الخضيب، وقد توشح وكأن الثريا وشاحه وانار وكان الصبح بين محياه كان اتضاحه فكلما ناولته الكأس خامر مسوره وتخيل ان الشمس تهديه نوره فقال المعتمد:

لله ساق مهفهف غنج — قام ليسقي فجاء بالعجب
اهدى لنا من لطيف حكمته — في جامد الماء ذائب الذهب

وكان المعتمد لا يستوزر وزيرا الا اذا كان شاعرا اديبا ومن وزرائه الذين هم من هذا الطراز ابو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد ابن زيدون الشاعر المشهور صاحب ولادة، والوزير ابو بكر بن عمار فهذان الوزيران هما «فرسا رهان ورضيعا لبان في التصرف في فنون البيان، وهما كانا شاعري ذلك الزمان» (3).
وكان ابن عمار شاعرا افاقا يستجدي بشعره ملوك الطوائف وظل على تلك الحال حتى نزل على المعتضد ومدحه بقصيدته الرائية التي مطلعها،

ادر الزجاجة فالنسيم قد انبرى — والنجم قد صرف العنان عن السرى

---

1) يوسف اشباخ ج 1 ص54.
2) الفتح بن خاقان في قلائد العقيان ص 9
3) وفيات الاعيان ج 2 ص 5 - 6.

وهي القصيدة التي هاجم فيها ابن عمار البربر فلما بلغت هذه القصيدة الى مسامع المعتضد أمر له بصلة حسنة من « مال وثياب ومركب وأمر ان يكتب في ديوان الشعراء» (1). وفي اشبيلية سحر ابن عمار محمدا المعتمد واخذ بلبه فكان لا يفارقه ليل نهار، ولما خرج المعتمد الى «شلب» واليا عليها من قبل ابيه اخذ معه صديقه ابن عمار واتخذه وزيراومشيرا. ولعل الصديقين اغتنما هذه الفرصة وغرقا في حياة اللهو والمجون حتى سائت سمعتهما واضطر المعتضد الى التفريق بينهما فعاد ابن عمار الى حياته الاولى، حياة التجوال والاستجداء وبقي على تلك الحال حتى توفى المعتضد وتولى المعتمد عرش اشبيلية فاستدعى صديقه ابن عمار مرة اخرى « وانهضه جليسا وسميرا وقدمه وزيرا ومشيرا ثم خلع عليه خاتم الملك ووجهه اميرا وكان قد اتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا»(2).

وحدث ذات يوم ان كان المعتمد وصديقه ابن عمار يركبان زورقا للنزهة في نهر اشبيلية واذا بالنسيم قد هب على النهر مكون من الماء منظرا عجيبا فقال المعتمد لوزيره، اجز: « صنع الريح من الماء زرد» فارتج على ابن عمار واخذ يعبث بلحيته يستوحي بتلك الحركة ملكة شعره، وبينما هو غارق في تفكيره اذ سمعا صوتا من جانب الوادي فتبيناه فاذا هو صوت حسناء رشيقة القد جميلة المحيا تجيب بصوت كله رقة وعذوبة: اي درع لقتال لوجمد. فعجب من طلاقتها وسرعة بديهتها وتقدم اليها المعتمد مشدوها فسألها عن نسبها فانتسبت فاذا هي اعتماد الروميكية وقد اعجب المعتمد بسحرها وجمالها وعمل على شرائها من مولاها « رميك ابن حجاح» ثم تزوجها واختار لنفسه لقبا يناسب اسمها

---

1) المعجب ص 68.
2) وفيات الاعيان ج 2 ص 5 - 6

«اعتماد» فتلقب منذ ذلك الحين بالمعتمد وكان قبل ذلك يعرف بمحمد الظافر (1). وقد فتن المعتمد بزوجته واحبها حبا جنونيا وكان لا يخالف لها امرا، فذات يوم اطلت من نافذة قصرها فرأت الناس يمشون في الطين فاشتهت المشي في الطين فأمر المعتمد فسحقت اشياء من الطيب في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على اخلاط الطيب وعجنت بالايدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها، فسمي هذا اليوم يوم الطين.

ولعل المعتمد قد حدث له مع زوجته ما يحدث عادة بين الزوجين من اختلاف في الرأي ادى الى ان غضبت منه وصارت تنعي بؤسها وشقائها واقسمت يمينا انها «لم تر منه خيرا قط» فذكرها المعتمد بما فعله معها يوم الطين قائلا «ولا يوم الطين» فعند ذلك تذكرت واعتذرت له عما بدر منها (2).

1) نفح الطيب ج 2 ص 451 · وفيات الاعيان ج 2 ص 7

2) نفح الطيب ج 1 ص 205 ج 2 ص 483 - 484 ·

بيـن المعتمـد وجيرانـه المسلميـن

الاستيلاء على قرطبة - بين المعتمد وابن ذي النون - محالفة المعتمد لامير برشلونة - ابن ذي النون يضرب المتحالفين - ريموند يطالب المعتمد بغرامة حربية - المعتمد يسك مسكوكات زائفة - سقوط قرطبة في ايدي ابن ذي النون - هل دخل ابن ذي النون اشبيلية ؟- راي كوندي واشباخ - تعليق عنان - رأينا - المعتمد يسترد قرطبة - الاستيلاء على مرسية

اما في الحياة السياسية فكان على المعتمد ان يتم السياسة التي رسمها اسلافه من قبل، وهي ضم جميع الامارات الاسلامية بالاندلس الى اشبيلية وجعل كلمة بني عباد هي العليا .

كان المعتضد من قبل قد حاول حصار قرطبة والنزول بقصر الزهراء فخذله ابنه اسماعيل (1). واليوم اراد ابنه المعتمدان يحقق مافشل في طلبه ابوه وينبغي الا يعزب عن بالنا ان المعتضد كان قد لعب دورا خطيرا في سياسة قرطبة مهد به السبيل لابنه المعتمد وذلك انه في سنة 456 ه ،حدث ان تنازل ابو الوليد ابن جهور عن رياسة مجلس شورى قرطبة سنة فتقلد ابناه شؤون الدولة نيابة عنه ، فعهد الى ابنه عبد

1) راجع ص71 من هذه الرسالة.

الرحمن بالنظر في امر الجباية والاشراف على شئون موظفي الدولة وكذلك عهد اليه بالتوقيع على الصكوك السلطانية، اما ابنه الاصغرعبد الملك فقد عهد اليه بالنظر في امر الجند، وكان لهذين الاميرين وزير يشرف على اعمالهما ويستأنسان اليه في مشورتهما، هو ابو الحسن ابراهيم المعروف بابن السقاء، وكانت الامور تجري في مجراها الطبيعي طلية مدة وزارة ابن السقاء المذكورولكن المعتضد كان يعلم انه لا امل له في الاستيلاء على قرطبة الا اذا ازاح ابن السقاء من أمامه، فدس المعتضد الى عبد الملك يغريه بقتل وزيره ابن السقاء، كما دس الى ابن السقاء يغريه بعبد الملك، وبدات الشكوك تنتاب كلا من الامير والوزير على حد سوء واخذ كل منهما يضمرالشر لصاحبه، ولكن عبد الملك كان اسرع من وزيره في تنفيذ خططه حيث استدرج ابن السقاء الى قصره وقتله، فخلا الجو لعبد الملك ولم يعد هناك من يسدي اليه النصيحة ويمنعه من التقرب الى اعداء بني جهور (1) .

وكان المعتضد ينتظر ما حدث بفارغ الصبر، فانه لم يكد يسمع بخبر مقتل ابن السقاء حتى ارتبط برباط الود والصداقة مع عبد الملك ابن جهور واغتر عبد الملك بما كان يبديه نحوه المعتضد من الود والصداقة واسرع الى اشبيلية حيث نزل ضيفا على المعتضد بضعة ايام ولم يقف عبد الملك عند هذا الحد بل انه عندما فرغ من ابن السقاء رجع الى اخيه عبد الرحمن فاعتدى على سلطته ثم سجنه في قصره، وبذلك انحدر عبد الملك بدولته الى الهاوية وخلق لنفسه كثيرا من الاعداء الذين كان هواهم مع الوزير ابن السقاء. ومرت الايام ومات المعتضد وتولى بعده المعتمد والحالة تزداد سوءا في قرطبة الى ان جاء اليهما

---

1) الذخيرة قسم رابع ج 1 ص 186 وما بعدها. البيان المعرب ج 3 ص 251-255 - 261 .

المأمون يحيى بن ذي النون سنة 462 هـ، في جيوش طليطلة وقشتالة وشنتمرية الشرق «السهلة» وانزلت هذهالجيوش الدمار بجند قرطبة، كما انزلت الدمار بجيوش اشبيلية وبطليوس التي جاءت لتدفع عن قرطبة عدوان بني ذي النون(1).

افزعت هذه الحوادث مجلس شورى قرطبة واثارت مخاوف المدينة اما عبد الملك بن جهور فكان في منتزهه بقصر الزهراء يقضي اوقاته مع الشبان في اللعب بالجريد، غير انه لما جد الجد استبدل بالجريد رماح الحرب وبث الحماس في القرطبيين فهبوا جميعا متقلدين سيوفهم ورماحهم للدفاع عن مدينتهم. ولما كان عبد الملك ابن جهور قد انفض عنه اغلبية جند قرطبة الذين كانوا موالين للوزير ابن السقاء فانه طلب العون من المعتمد ابن عباد وبعد تردد من هذا الاخير امده بثلاثمائة فارس ثم اردفها بالف فارس مع قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين، واستطاعت هذه القوة ان تطرد ابن ذي النون من قرطبة. غير ان الجيش الاشبيلي - الذى جاء في الظاهر لانقاذ قرطبة - كان قد اصدرت اليه الاوامر بالاستيلاء على هذه المدينة بمجرد طرد ابن ذي النون عنها.

وعلى ذلك فلم يكد جيش طليطلة يولي الادبار حتى عقد قواد اشبيلية مؤامرة مع بعض القرطبيين لخلع عبد الملك بن جهور والاعتراف بسيادة بني عباد، وظلت هذه المؤامرة في طي الكتمان بحيث لم يدر بها عبد الملك الا في اليوم السابع من طرد ابن ذي النون، ففي هذا اليوم تظاهر جيش اشبيلية بالاستعداد للرحيل الى بلاده، ولكن بينما كان عبد الملك يتخذ الاهبة لوداع جيش الانقاذ سمع صيحة الثورة ورأى - وقلبه يتفطر حسرة وندامة - فرسان اشبيلية الذين

---

1) كوندي ج 2 ص 165 وما بعدها. يوسف اشباخ 1 ص 50 - 51.

جاؤوا لمساعدته قد احاطوا بقرطبة احاطة السوار بالمعصم واقتحموها عنوة، وتقدم الجند الى دار عبد الملك واحاطوا به فى غرفته التي التجأ اليها، اما الشيخ ابو الوليد بن جهور فقد احتمى بمقصورة المسجد مع بناته وحرمه فاقتحمها عليه طائفة من نصارى جند اشبيلية وجردوهم من كل ما كانوا يملكون، ثم القي القبض على عبد الملك واخيه عبد الرحمن وحملا معا الى اشبيلية. اما والدهم ابو الوليد - الذى كان قد بلغ من الكبر عتيا - فقد حمل على دابة ونقل الى جزيرة شلطيش حيث توفي بها اسيرا بعد اربعين يوما، وبذلك سقطت جمهورية قرطبة فى يد المعتمد بن عباد سنة 462 ه (1).

ولقد ترك لنا المعتمد ابياتا من شعره يتحدث فيها عن دخوله قرطبة فيقول:

من للملوك يشأ والامير البطل	هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت	من جاء يخطبها بالبيض والاسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها	فاصبحت فى سرى الحلى والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس	كل الملوك به فى مأتم الوجل
فراقبوا من قريب لا ابا لكم	هجوم ليث بدرع البأس مشتمل(2)

وبعد ما سقطت قرطبة في يد المعتمد اقام ابنه الرشيد واليا عليها واخذ يستهوي سكان المدينة باقامة الحفلات ومنها حفلات مصارعة الوحوش التى كانت من مميزات الحياة الاجتماعية في اشبيلية ولما كان اهل قرطبة غير متعودين على هذه الاساليب المرحة فى حياتهم

---

1) الذخيرة قسم 1 ج 2 ص 123 - 126.البيان المعرب ج 3 ص 259 وما بعدها. ابن خلدون ج 4 ص 159 . ابن الاثير ج 9 ص 119 . اعلام الاعلام ج 3 ص 173 - 175 183 - 184

2)قلائد العقيان ص 11 .

الاجتماعية فقد استطاع المعتمد ان يجلب رضاهم ويجعلهم ينسون الحكومة القديمة(1).

لم يسكت المأمون بن ذي النون لهزيمته بقرطبة وعول ان ينتقم من المعتمد في اشخاص حلفائه امراء تدمير (2) وبلنسية وتقدم على رأس جيشه الذى جلبه من بلنسية وشنتمرية الشرق وتوجه الى مرسيه وتدمير وكان الوالي على الاولى احمد بن طاهر وعلى الثانية ابو بكر بن عمر واستعان المامون بن ذي النون بجيوش قشتالة وجليقية فكتب الواليان ابو بكر بن عمر واحمد بن طاهر لحليفهما ملك اشبيلية يستعينان به على صد الغارة التي شنها عليهم ملك طليطلة.

ورغما عن ان المعتمد بن عباد كان مشتغلا بالحرب مع غرناطة ومالقة فانه بعث وزيره ابا بكر بن عمار لانجاد مرسية فخرج ابن عمار ناشرا اعلامه اليها ولما وصلها نزل في بيت ابن طاهر حيث تلاقى مع اعيان البلد واخذ يبث فيهم الشجاعة والاقدام(3).

رأى ابن عمار ان قوته مضافة الى قوة مرسية وتدمير لا تستطيع الوقوف امام جيش المامون بن ذي النون لذلك جمع اهل مرسية مبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب ليستاجر بها ابن عمار قوة من الكونت ريموند برنجار امير برشلونة وتمت الصفقة بين ابن عمار وبين الكونت ريموند على ان يتسلم هذا الاخير المبلغ المذكور عند ما تصل قواته الى مرسيه (4).

---

1) كوندى ج 2 ص 177 وما بعدها. يوسف اشباخ ج 1 ص 54 - 55.

2)تدمير اسم كورة بالاندلس سميت باسم حاكمها «تيو درمير» الذي كان عامل رذريق ملك طليطلة عليها. الادريسي ص 185 . الروض المعطار ص 62 .دائره المعارف الاسلامية ج 5 ص 16 .

3) كوندي ج 2 ص 178.يوسف اشباخ ج 1 ص 55.

4) ملوك الطوائف ص 243 - 245 ، كوندي ج 2 ص 179 - 181.يوسفاشباخ ج 1 ص 55.

وزيادة في التاكيد فقد اتفقا ان يستلم ريموند ابن المعتمد المسمى بالرشيد ليكون لديه رهينة ويتسلم ابن عمار ابن اخي ريموند ليكون لديه رهينة وتم الاتفاق وارسل ابن عمار الى المعتمد يخبره بهذا الاتفاق واجتمع جيش اشبيلية بجيش ريموند وزحف الجميع على مرسية فوجدوها محاطة بالجيوش التي جمعها المأمون بن ذي النون من بلنسية و«دانية» و «مربيطور»(1) و «شنتمرية الشرق» وفرق اخرى من «جليقية و قشتالة» (2).

والآن بدات الشكوك تنتاب ريموند وظن ان الاتفاق الذي عقد بينه وبن ابن عمار لم يكن الا مكيدة اسلامية، واتفق ان المعتمد تهاون في دفع ما تعهد به في الاجل المحدد له، ولما كانت قوات اشبيلة التي جاءت مع ابن عمار الى مرسية قليلة العدد فان ريموند ابى ان يزحف على مرسية الا اذا كان جيش اشبيلية مساويا في العدد لجيشه.

وتقدم ريموند خطوة اخرى ليضمن لنفسه النجاة من المكيدة الاسلامية التى ظنها حبكت له فى الخفاء والقى القبض على الرشيد ابن المعتمد ليكون لديه رهينة (3).

لم تكن هذه الاضطرابات التي كانت في صفوف الحلفاء لتخفى عن المأمون بن ذي النون، فقد كان متتبعا جميع التطورات من طريق جواسيسه، ولذلك لم يمهل اعداءه حتى ينظموا صفوفهم، بل اجبرهم على خوض لمعركة معه سنة 466 ه، وكانت مذبحة مربعة بين الفريقين واخيرا فرت جيوش اشبيلية وبرشلونة بعد ان تركت وراءها كثيرامن

---

1) مربيطور او مرباطر حصن بالاندلس قريب من طرطوشة. راجع الادريسي ص 191 . الروض المعطار ص 108 . معجم البلدان ج 8 ص 14.
2) كوندي ج 2 ص 179 - 181. يوسف اشباخ ج 1 ص 55 .
3) ملوك الطوائف ص 244 - 245.

القتلى والجرحى، واستولى المأمون على مرسية واريولة وعدة مدن اخرى (1)

وفي هذا الوقت كان المعتمد قد عبر الوادي اليانع فى طريقة الى مرسية وهنا التقى بفلول جيشه الذين اخبروه بالكارثة التي لحقتهم وان ريموند قد اعتقل ابنه، فلم يطق المعتمد صبرا على ما سمعه وامر بان يلقى ابن اخى ريموند - الذي كان رهينة عنده - فى الاغلال.

ويذهب دوزى (2) الى ان الوزير ابن عمار قد اسره ريموند مع ابن المعتمد وانه بقي في الاسر عشرة ايام «دخل فيها ابن عمار في جوار «جاين» فاطلق سراحه وجاء الى المعتمد»، ولكنه لم يستطع المثول بين يديه تفاديا من غضبه وتلطف فارسل اليه يستعطفه بقصيدة طويلة استسهلها بقوله:

أأسلك قصدا ام اعرج عن الركب فقدصرت من امرى على مركب صعب

ويقال ان المعتمد قد رد على هذه القصيدة بقصيدة اخرى.

اما كوندى (3) في حديثه عن هذه الواقعة فانه لايشير الى أن بن عمار كان فى جلمةمن قبض عليهم، بل انه يذكر لنا فى صراحة ان ابن عمار كان فى مقدمة فلول جيشه المنهزمفيقول: «والآن لم يكن في قدرة الجيش الجديدالذى يرأسه ابن عبادملك اشبيلية الدخول في الحرب فرجع الى «شقورة» ومنها عاد الى جيان، وكان في ركاب المعتمد بن اخي سيد برشلونه وقريبه المرتهن، وقد جاء ابن عمار بعد هزيمته يطلب من سيده ان ينفذ بقية العهد الذي وعد به ريموند لانه بغير هذه الوسيلة لا يمكن اعادة الرهينة «الامير الرشيد بن عباد».

ويبدو لنا ان رواية كوندي اقرب من الصحة من رواية دوزى

---

1) كوندى ج 2 ص 180 - 181 .
2) ملوك الطوائف ص 245 .
3) ج 2 ص 181 - 182.

وخاصة ان القصيدة التي استشهد بها دوزى اوردها الفتح بن خاقان (1) في مناسبة اخرى سنشير اليها فيما بعد.

اخذ ابن عمار يدير مع المعتمد وسيلة ليدفع بها لريموند العشرة آلاف قطعة من الذهب المتفق عليها ليفك ابنه من الرهن، وبينما هما في حيرة لضيق ذات اليد عن الوفاء اذا بريموند تتسع اطماعه ولم يعد يكتفي بالعشرة آلاف، بل يرتفع بطلبه الى ثلاثين الفا، ولما كان المعتمد عاجزا عن تنفيذ مثل هذا الطلب فقد امر بضرب مسكوكات زائفة ودفعها لريموند وبذلك تمت الحيلة عليه وانقذ المعتمد ابنه من الاسر (2)

كان المامون يحيى بن دي النون يترقب الفرص لينقض على المعتمد وينتزع منه قرطبة، والآن وقد ابتسم له الحظ في موقعة مرسية فقد رأى الا يترك الفرصة لخصمه المعتمد لكي يتحالف مع بني هود امراء سرقسطة وبني الافطس امراء بطليوس، فتقدم لمهاجمة المعتمد من ثلاث جهات، فامر ابن لبون صاحب مرسية بان يزحف نحو جيان وارسل قوة اخرى الى سرقسطة لتمنع المعتمد من الاتصال بابن هود وتقدم هو في جيش طليطلة ومعه حليفه ملك جليقية ودخلوا منطقة قرطبة وعاثوا فيها فسادا (3).

وكان المأمون بن المعتمد حاكم قرطبة وقائد الحامية بن مرتين غافلين عما يجرى حولهما فان الحارث بن الحكم المعروف بابن عكاشة صمم على ان ينتقم لاسياده بني جهور من المعتمد، فكان كثيرا ما يطرق ابواب قرطبة ليلا - في غفلة من اهلها - ويتحدث الى بعض الحراس بقصد الاطلاع عما يدور داخل اسوار المدينة (4).

وفي ليلة من ليالي سنة 467هـ، تسلل ابن عكاشة على رأس كتيبة

---

1) قلائد العقيان ص 60 - 61.
2) ملوك الطوائف ص 248 - 249.
3) كوندي ج 2 ص 184 - 186 . يوسف اشباخ ج 1 ص 56.
4) ملوك الطوائف ص 224 - 233.

من الجنـد الى داخل المدينة وبادر الى الزهراء حيث كان قصـر الامارة ودهم الحراس الذين سرعان مـا غلبوا على امرهـم واوشك ان يقتحم على الامير قصره لولا ان بعض الحراس اسرعوا الى ايقاظ الامير من نومه فخرج في عدد قليل من عبيده وحراسه وقاوم المهاجمين مقاومة مجيدة ، ولكن لسوء حظه زلت به قدمه وسقط فوثب عليه بعض الجنود وحزوا رأسه ثم تركوه ملقى على الارض عاريا فمر بـه بعض شيوخ قرطبة فرآه على تلك الحالة وادركته الشفقة عليه فنـزع رداءه وستره به ، ويقال ان المعتمد كان كلما تذكر مصرع ابنه وتذكر معه ذلك الشيخ الذي احسن اليه في موته كان يردد هذا البيت فيقول.

ولم ادر من القى عليه رداءه الا انه قد سل عن ما جد محض

وبعد ما استولى ابن عكاشة على قصر الامارات توجه الـى قصر ابن مرتين قائد الحامية فوجده في غفلة من الظهر يتعاطى كؤوس الخمر مع فتياته الجميلات فلما دهم القصر حاول ابن مرتين ـ ولكن بعدفوات الوقت ـ ان يلوذ بالفرار فالقى القبض عليه وقتل في الحيـن ، وفى اليوم الثانى قصد ابن عكاشه الى المسجد الجامع واستدعـى اليـه اهل الحل والعقد من القرطبيين حيث اعطوا يمين الولاء والاخلاص للمأمون يحيى بن ذي النـون (1) .

ويجمل بنا ـ ونحن في معرض الكلام عن النزاع بيـن المأمـون ابن ذي النون والمعتمد ـ ان نشير الى حكاية غريبة قصها علينا كوندى(2) ونقلها عنه يوسف اشباخ (3) وتتخلص في ان المأمـون لما استولى علـى قرطبة « تقدم نحو اشبيلة ولم يكـن بها يومئـذ سوى قـوة يسيرة لان

1) قلائد العقيان ص 111 . ابن خلدون ج 4 ص 156 - 161 . ابـن الاثيـر ج 9 ص 191 .
2) ج 2 ص 184 - 187 .
3) ج 1 ص 56 - 57 .

جيوش ابن عباد كانت متفرقة في جيان (1) ومالقة والجزيرة الخضراء اما لاجل الدفاع او الهجوم، ولم يلق جيش طليطلة مقاومة الا امام القصر حيث كانت هناك قوة من الحرس الملكي اللغوية فدافعت دفاعا جيدا استسلمت في آخره واستولى امير طليطلة الظافر على جميع الاموال ووزعها على جنده وحلفائه ولكنه خرص على الا يمس نساء المعتمد بسوء.

ثم يقولان غير ان المأمون ارتكب خطأ فاحشا اذ لم يتم الحرب بسرعة فبدلا من ان يسعى الى لقاء ابن عباد في ميدان الحرب لبث في اشبيلية ستة اشهر استطاع فيها المعتمد ان يختتم حروبه مع الادارسة بنجاح اذ استولى على الجزيرة (2) وعلى مالقة ذاتها. واستطاع ايضا ان ينزع بعض البقاع من عبد الله بن بلكين، وتفرغ المعتمد وجاء في جيوشه وتقدم نحو المدينة مقسما انه سيدافع حتى الموت، ورغما عما ابداه الطليطليون من شجاعة في مقاومة الاشبيليين فان المعتمد استطاع بمساعدة الاشبيليين ان يعيد عاصمة ملكه اليه» (3).

هذه هي القصة التي ذكرها كوندي ونقلها عنه يوسف اشباخ وهي قصة لم توردها المصادر الاسلامية ولم تشر اليها لا من قريب ولا من بعيد وهي تجمع على ان اشبيلية ظلت طيلة حكم بني عباد في ايديهم الى ان سقطت في ايدي المرابطين سنة 484 هـ.

---

1) جيان بفتح ثم التشديد وآخره نون مدينة بالاندلس بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخا وكورتها متصلة بكورة تدمير وكورة طليطلة. راجع الادريسي 202. الروض المعطار ص 70 معجم البلدان ج 4 ص 175.

2) اشارة المؤلفين الى سقوط الجزيرة ومالقة في ايدي المعتمد غلط فاحش لانه قد سبق لنا ان ذكرنا ان الجزيرة سقطت في عصر المعتضد سنة 456 هـ، اما مالقة فكان قد استولى عليها باديس بن حبوس سنة 465 هـ. راجع ص 91 من هده الرسالة.

3) نقلنا هذه الحادثة بتصرف عن كوندي ويوسف اشباخ في المرجعين السالفي الذكر.

ويذهب عبد الله عنان في تعليقاته على يوسف اشباخ (1) الى ان الامر قد اختلط على المؤلفين وان الامر يتعلق هنا بخلط بين هذه الواقعة المزعومة وبين واقعة حقيقة اخرى، وهي استيلاء المأمون على قرطبة ووفاته بها ثم استرداد ابن عباد لها.

ونحن لا نستطيع ان نشارك عنان في هذا الاستنتاج لان حادثة سقوط قرطبة في يد المأمون واسترجاع ابن عباد لها لم يغفلها كوندي ويوسف اشباخ بل انهما اشار اليها بحديث مستفيض، وبعد ما فرغا من ذكرها عقبا عليها بواقعة اشبيلية المزعومة (2) ، و اذا فلم يبق هناك مجال للخلط بين الواقعتين ، ولم يبق الا ان واقعة اشبيلية كلها مختلقة من مخيلة المصادر المسيحية التي اعتمد عليها كوندي .

قلنا ان المأمون بن ذي النون ، قد انتزع قرطبة من يد المعتمد بمساعدة الحارث بن عكاشة ، ولقد ظلت قرطبة في يد المأمون زهاء ثلاث سنوات توفي خلالها المأمون، ويقال انه مات مسموما في نفس السنة التي استولى فيها على قرطبة وهي 467 هـ (3) وبعد مرور ثلاث سنين استعد المعتمد لارجاع قرطبة الى نفوذه ، فجاء بخيله ورجله وضرب الحصار على قرطبة في الوقت الذي كان فيه ابن عكاشة يطمح في ان يصبح ملكا متوجا بها (4).

ولم يلبث ابن عكاشة ان تبين له ان اهل قرطبة يؤثرون حكم المعتمد على حكمه وحكم القادر بن ذي النون ، حفيد يحيى المقتـل وبدأ يلمح دلائل الشر والخيانه على وجوه اولئك الذين كان يعتبرهم اصدقاءه وانصاره فترك المدينة من احدى ابوابها بينما كان المعتمد

1) ج 1 ص 56 - 57 هامش .

2) راجع كوندي ج 2 ص 184 185 . يوسف اشباخ ج 1 ص 56 .

3) ابن خلدون ج 4 ص 159 - 161 . اعلام الاعلام ج 3 ص 184 - 185 ، 206.

4) هذه رواية كوندي ج 2 ص 197 . ويوسف اشباخ ج اص 57.

يدخلها من باب آخر ولكن فرار ابن عكاشه كان متأخرا اذ لم يكد المعتمد يعلم بفراره حتى انقلب الى مطاردته في كوكبة من الفرسان مدججين بالسلاح وادركه، ولعل المعتمد خشي ان يخونه جواده ويتعثر به في هذه المرحلة الحاسمة فاستل حربته ورمي بها خصمه الذي كان منه غير بعيد فسقط مدرجا بدمائه (1) ولم يكتف المعتمد بذلك بل امر بان تصلب جثته على قنطرة قرطبة وبجانبها كلب مبالغة في الاهانة والانتقام لابنه سراج الدولة، وبذلك عادت قرطبة الى حكم المعتمد فاسند ولايتها الى ابنه المأمون الفتح سنة 469 ه (2).

لم يقنع المعتمد بهذا النصر الذي احرزه لذلك عمل على توسيع رقعة مملكة اشبيلية بالاستيلاء على «مرسية» التي كانت من قبل داخلة في حدود مملكة زهير العامري ثم ضمت الى مملكة بلنسية وكانت في هذا الوقت مستقلة تحت حكم ابن عبد الرحمن بن طاهر المسمى بالرئيس (3).

وقد نعمت مرسية في بحبوحة من العيش في عهد ابن عبد الرحمن ووالده ابن بكر من قبل، ولكن عدل بني طاهر لم يمنع بعض الخونة

---

1) هذه هي رواية كوندي ج 2 ص 187. ويوسف اشباخ ج 1 ص 58 - 59. ويذهب ابن الخطيب الى ان احد اليهود من اهل قرطبة هو الذي قتل ابن عكاشة على قنطرة قرب المدينة» اعلام الاعلام ج 3 ص 184 - 185.

2) ابن خلدون. ج 4 ص 139 - 1614. اعلام الاعلام ج 3 - ص 184 - 185 106. المعجب ص 80. ابن الاثير ج 9 ص 119.

3) كان بنو طاهر ذوي بيت عامر وعدد وافر بالاندلس يفخرون بالعروبة وينتسبون الى قيس عيلان، وقد جمع ابو عبد الرحمن بن طاهر الى ثروته المالية ثروة اخرى ادبية فكان في هذا الميدان بمثابة الصاحب ابن عباد في الشرق «وكانت له رسائل تدل على نبله لاسيما اذا هزل فانه يتقدم على الجماعة ويستولي على ميدان الصناعة» راجع الذخيرة قسم 3 ص 7 - 9. الحلة السيراء ص 186 - 189. اعلام الاعلام ج 3 ص 232 - 233.

من التآمر على سلامة مملكتهم، وكان ابو بكر بن عمار وزير المعتمد كثيرا ما يتردد على مرسية ويشتري ضمائر اهلها بالمال، فاستطاع بذلك ان يكون له انصارا واتباعا، وكان ابن عمار كثيرا ما يشجع المعتمد على فتح هذه المدينة وقد دخل يوما على المعتمد وانبأه بان كتبا وردت اليه من مرسيه تفيد ان اشرافها ينتظرون الجيش الاشبيلي لينقذهم من ظلم بني طاهر، وظل يمنى المعتمد حتى آمن بالفكرة.

وفي سنة 471هـ خرج ابن عمار على رأس الجيش الاشبيلي قاصدا الى مرسية وفي طريقه اليها مر على قرطبة ليأخذ منها كوكبة من الفرسان ثم استأنف سيره وعرج على «حصن بلج (1)» حيث نزل ضيفا على قائد الحصن أبي محمد عبد الرحمن بن رشيق، وكان بطلا مغوارا واعجب ابن عمار بمواهبه الحربية واستدعاه ليخرج معه الى مرسية، وقبل الوصول اليها انقض في طريقه على «القنت» (2) و «قرطاجنة» (3) و «لورقة» (4) و «اريولة» (5) ثم تقدم الى حصن «مولا» وكان هذا الحصن بمثابة مفتاح لمرسية اذ كانت لا تصل الذخائر والمؤن اليها الا عن طريق هذا الحصن، وبعد حصاره مدة طويلة ترك ابن عمار قيادة الجيش

1) حصن بلج نسبة الى بلج ابن بشر الثقفي الذي دخل الاندلس على رأس الجيش الشامي.

2) مدينة بالاندلس بينها وبين دانية على الساحل سبعون ميلا، كانت مشهورة بانشاء السفن والحراريق، راجع الادريسي ص 193 . الروض المعطار ص 170.

3) مدينة بالاندلس من كور تدمير وهي فرضة مدينة مرسية، ولها مينا ترسو فيه جميع المراكب. وبين هذه المدينة وقرطبة اربعون ميلا راجع الادريسي ص 194 . الروض المعطار ص 151 .

4) مدينة الاندلس من كورة تدمير وهي كثيرة الزرع والدرع والخمر، وبينها وبين مرسية اربعون ميلا. راجع الادريسي ص 196. الروض المعطار ص 171,

5) اريوله او «اوريوله» حصن ومدينة بالاندلس من كورة تدمير، يقع على ضفة النهر الابيض. وبين هذا الموقع ومرسية اثنا عشر ميلا. راجع الادريسي ص 193. الروض المعطار ص 34.

المحاصر الى ابن رشيق ورجع الى اشبيلية، ومرت عشرون يوما انقطع فيها عن مرسية كل امداد او معونة وقلت الاطعمة واصبح الناس مهددين بالمجاعة والامراض، وبدأت دلائل الثورة تظهر على اهل مرسية وفعلا تجمهر الناس وذهبوا الى ابي عبد الرحمن بن طاهر يطلبون منه ان يجد لهم مخرجا من الضيق الذي حل بهم ولعلهم طلبوا منه ان يسلم المدينة الى المحاصرين فوعدهم بانه اذا لم يصله مدد من القادر بن ذي النون في ظرف عشرين يوما فانه سيسلم المدينة الى المحاصرين.

لم يكد ابن عمار يعلم بما وقع في مرسية حتى خرج في جيش ونزل به على مرسية ولما رأى المحاصرون في المدينة الجيش الجديد ضعفت نفوسهم وخارت قواهم وفتحو الابواب للجيش الظافر الذي القى القبض في الحين على ابي عبد الرحمن بن طاهر (1).

وفي اليوم الثاني لسقوط مرسية دخل اليها ابن عمار دخول الفاتحين بين ضرب الطبول ونشر الالوية وعلى رأسه تاج مرصع كالذي كان يضعه الملوك على رؤوسهم ولم يكد يستقر في مرسية حتى بدأت تظهر عليه دلائل الغدر والخيانة لسيده فكان يوقع على الرقاع المرفوعة اليه

---

1) يذكر انه لما ثار الناس على ابن طاهر «خرج هو وابن اخيه مخففين لاثيابهما هاربين بشمائلهما وكل شيء لهما رصد وفي كل فج عليهما عين ويد، فلقيا رجلا من اهل مرسية يدعى «النغيلة» كان عندهم مشهور المنزع مضروبا به المثل في برود المقطع وقد حمل قنية فاعتقلها ولبس فروة فحولها وفي رأسه قلمون طويل ابرد من طلعة العذول، فقال ابن طاهر لابن اخيه، يا بني اين المهرب، قد قامت علينا كل قبيلة حتى العرب، ما هو الا عمرو بن معد يكرب او يزيد بن الصقعب»

وقد كان ابن طاهر خفيف الظل بارع النكتة، لم تفارقه حتى في احرج ارقاته فبينما هو يوما في سجنه اذ زاره ابن اخت لابن رشيق « وكان ذا لحية طويلة ثقيلة فوقف عليه يتفجع ويتملق اليه ويتصنع فقال له ابن طاهر خلاصي بيدك ان شئت اخرجتني في لحيتك لتخلصت ونجيت». اه. نقلا عن الذخيرة قسم 2 ص 8 - 9.

علاقـة المعتمـد بالمسيحيين

الاذفونش يسير صوب اشبيلية ـ حيلة الوزير ابن عمار في دفعة عنها ـ المعتمد يستعين بالمسيحيين ضـد ابـن ذي النون ـ رواية يوسف اشباخ عن زواج الاذفونش بابنة المعتمد ـ ردنا عليه ـ بين المعتمد وبني زيري ـ طمع المسيحيين في املاك المسلمين عامة ـ مسئولية المعتمد في هذا ـ الاذفونش وطليطلة ـ الخلاف بين المعتمد والاذفونش ـ الاذفونش يتفق مع ملك نافار لمهاجمة المسلمين عامة ـ مصير ابن عمار.

اصبح المعتمد بعد ذلك اقوى شخصية في ملوك الطوائف، ـ غير انه رغما عن الانتصارات الباهرة التى احرزها لم يكن اكثر استقلالا من غيره من ملوك الاندلس، فقد كان يدفع الجزية لغرسية احد ابناء فرديناند ثم كان يدفعها لملك جليقية وأخيرا كان يدفعها للفونس السادس

---

1) راجع عن سقوط مرسية الذخيرة قسم 3 ص 7 - 12 - الحلة السيراء ص 186 189 .المعجب ص 75.اعلام الاعلام ج 3 ص186 - 232 -233 . ابن الاثير ص 121.ملوك الطوائف 249 - 251 .

«الاذفونش» عند ما استولى على مملكته سانكو وغرسية (1).

وحدث ذات يوم ان جاء الاذفونش لغزو اشبيلية لانه لم يكن يقنع بما تدفعه من جزية، ففزع اهلها من كثرة جيوش المسيحيين وتيقنوا هلاكهم على ايديهم، غير ان هذه الجيوش قدر لها ان ترتد على اعقابها بحيلة غريبة، ذلك ان ابن عمار رأى ان جيش اشبيلية لا يقوى على صد هجمات الجيش المسيحي وعلى ذلك عول على ان يستعمل مع الاذفونش بعضا من حيله المشهورة، ولما كان يتمتع به هذا الوزير من الشهرة بين ملوك النصارى والمسلمين على السواء فانه استطاع بمهارته ان يكون له اصدقاء من الجيش المسيحي وأخذ يتردد على خيامهم بقصد الزيارة بين آونة واخرى، وكان يحمل معه في هذه الزيارات المكررة « سفرة شطرنج في غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الابنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب وجعل ارضها في غاية الاتقان».

وكان ابن عمار قد اعلن انه جاء رسولا من قبل المعتمد لمفاوضة الاذفونش فتلقاه هذا بالترحاب واصدر امره الى كبار قواده ان يترددوا على ابن عمار في خيمته التي خصصت له، وذات ليلة اظهر بن عمار رقعة الشطرنج التي كانت لاتفارقه فاعجب بها الحاضرون ونقلوا خبرها الى الاذفونش، ولما كان الاذفونش يهوى هذه اللعبة فقد بعث في طلب ابن عمار وسأله: «كيف انت في الشطرنج؟» فكان جواب ابن عمار انه يتقن هذه اللعبة كل الاتقان، ثم قال الاذفونش: «بلغني ان عندك سفرة في غاية الاتقان» فأجاب ابن عمار اى نعم». فقال له الاذفونش «فكيف السبيل الى رؤيتها؟» وقال ابن عمار نجد تراجمته قل له «انا آتيك بها على ان العب معك عليها فان غلبتني فهي لك وان غلبتك فلي حكمي»

1) ملوك الطوائف ص 237 .

فقال الاذفونش. «هلمها لننظر اليها» فلما جاءت اعجب بصنعها وقال «ما ظننت ان اتقان الشطرنج يبلغ الى هذا الحد ..!» ثم اردف كلامه قائلا» ماذا تقول؟ على اي شيء سيكون لعبنا؟» فاعاد عليه ابن عمار ما قاله من قبل، ولما كان الاذفونش لا يريد ان يلعب على شيء مجهول فقد قال لابن عمار: «لا لعب معك على حكم مجهول لا ادري ما هو؟ ولعله شيء لا يمكنني؟» ولكن ابن عمار كان مصمما على رأيه الاول فقال له «لا العب معك الا على هذا الوجه» ثم طوى سفرته وغادر خيمةالاذفونش.

عند ما رأى ابن عمار انه لا يستطيع التأثير في الاذفونش ذهب الى بعض اصدقائه في معسكر المسيحيين ووزع عليهم الاموال ليستجلب اخلاصهم له، ولم يكتمهم خطته التي يريد تنفيذها مع الاذفونش وكان هذا قد تعلقت نفسه بتلك الرقعة التي يملكها ابن عمار، وكان ابنعمار بارعا في تمثيل دوره اذ استطاع ان يكتسب صداقة احد قواد الاذفونش ويجعله يقنع مليكه باللعب مع ابن عمار، وكان مما قاله هذا القائد للاذفونش: «ان غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملكمثلها، وان غلبك فما عساه ان يحتكم؟» وصار هذا القائد يفتل سيده في الدورة والغارب ويذم له مظهر العاجز الذي يظهر به في اعين الناس وقال له «ان طلب منك ابن عمار ما لا يمكن فنحن لك برده».

ولعل هذه الكلمة كان لها موقع في نفس الاذفونش فقبل فكرة اللعب مع ابن عمار على شرطه الذي اشترطه وارسل في طلبه فلما دخل عليه قال له «اني قد رضيت بشرطك فهيا بنا الى اللعب» ولكن ابن عمار لم يكن بالرجل الذي يغريه الطمع فيقدم على امر دون ان يحتاط له، فقد كان ابن عمار احد دهاة الاندلس الثلاثة، فكان الاذفونشيقول: «رجال الاندلس ثلاثة ابوبكر بن عبد العزيز، وابو بكر عمار وششنند». ولذلك نرى ابن عمار بعد ما رضي الاذفونش باللعب معه على شرطه

الذي شرطه يقول له: «اجعل بيني وبينك شهودا سماهم له» وعلى ذلك ابتدأ اللعب بين الرجلين، ولم تكن الا جولة وجولتان حتى رجحت كفة ابن عمار على الاذفونش وكسب الرهان، وهنا تقدم ابن عمار الى الاذفونش وقال له «صحيح ان لي حكمي؟» قال نعم، فما هو؟» قال ابن عمار «ان ترجع من هنا الى بلادك» فبهت الاذفونش من هذا الطلب الذي فاجأه به ابن عمار اذا لم يكن ينتظر من ابن عمار ان يطلب هذا الطلب الغريب اذا كسب الرهان، وقال لقواده «قد كنت اخاف من هذا حتى هونتموه علي» وهم الاذفونش بان يتحلل من عهوده التي قطعها لابن عمار ولكن انصاره احاطوا به وما زالوا يلاطفونه على ان يعدل عن فكرته حتى لان لهم، غير انه اشترط ان لا يرفع الحصار عن اشبيلية الا اذا اخذ اتاوة سنتين زيادة عن السنة المقررة. فقال له ابن عمار «هذا كله لك» وبذلك حسم النزاع ورجع الاذفونش الى بلاده ونجت اشبيلية بفضل مكيدة ابن عمار من خراب محقق (1).

كان نجم المعتمد قد اضاء في سماء الاندلس بفضل الانتصارات التي كان يحرزها سواء في ميدان السياسة او في ميدان الحرب، وقد طمحت نفسه للاستيلاء على امارة بني زيري بغرناطة وامارة بني الافطس ببطليوس غير انه كان يرتاب من القادر بن ذي النون ملك طليطلة ويراقب حركاته عن كثب، ولما كان القادر بن ذي النون يتمتع بمساعدةملك قشتالة الاذفونش السادس فقد فكر المعتمد في التفريق بين الحليفين حتى يخلو له الجو (2).

وفي سبيل تحقيق هذه الاطماع بعث المعتمد وزيره ابن عمار الى حليفه سيد برشلونة ريموند الكبير، يطلب منه ان يعاونه عند الحاجة

1) المعجب ص 73 - 75 ملوك الطوائف 238 - 242.
2) يوسف اشباخ ج 1 ص 59 - 60.

بفرسان برشاونة. وكذلك بعث هذا الوزير سنة 471 هـ. (1079م) الى قشتالة ليفاوض ملكها الاذفونش السادس في عقد معاهدة الصداقة بينه وبين المعتمد، ولقد كلل مسعى ابن عمار بالنجاح وتوصل الى عقد معاهدة بين الملكين تعهد فيهاالاذفونش ان يمد صديقه المعتمد بالجنود المرتزقة ضد جميع اعدائه، وتعهد المعتمد في مقابل ذلك ان يدفع مقدارا كبيرا من المال والا يعارض الاذفونش في فتح طليطلة ويقال ان ابن عمار قد اخذ - ثمنا لنجاحه في هذه المفاوضة - خاتمين من ماس اهداهما له الاذفونش، وهذا علاوة على ما استولى عليه من اموال باهظة (1).

وقد انفرد يوسف اشباخ ، وكرد علي بذكر حادثة لا نقرهما عليها كما لا تقرهما عليها ديانة المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم، تلك هي حادثة زواج الاذفونش بسيدة او «زايدة» ابنة المعتمد او ضمها الى زوجه كحظية له فكرد علي يذكرلنا هذه الرواية كانها صحيحة لا شك فيها اذ يقول « ان ملوك المسيحيين على عهد توزع الاندلس بين ملوك الطوائف ، امسوا يتزوجون من بنات الامراء المسلمين، فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة امير اشبيلية ، وعقد مثل هذا الزواج كثير » (2).

وكذلك يقول يوسف اشباخ(3) عن هذه الحادثة : « ومع انه لا صحة لما يروي من ان ملك قشتالة تزوج في هذه المناسبة ابنة المعتمد توثيقا للتحالف فانه من المرجح ان الفونس استطاع على اثر هذه المحالفة او في محالفة ثانية ، سنة 1091 م » ان يضمها الى زوجه كحظية وهو تشبيه بالتقاليد الاسلامية كان ذائعا بين امراء اسبانيا النصرانية بالرغم مما كانت تثيره الكنيسة ضده من شديد الاحتجاج».

1) كوندي ج 2 ص 190 - 192 . يوسف اشباخ ج 1 ص 59 - 60 .
2) غابر الاندلس وحاضرها ص 39 - 40 .
3) ج 1 ص 60 - 61 .

اما زواج الاذفونش بابنة المعتمد فقد كفانا يوسف اشباخ نفسه مؤونة الرد عليه اذ قال . « ومع انه لا صحة لما يروى من ان ملك قشتالة تزوج في هذه المناسبة بسيدة ابنة المعتمد . . . الخ» (1).

اما اخذ الاذفونش لابنة المعتمد كحظية فان هذا العمل لا يعقل ان يقدم على مثله المعتمد ولا غيره من المسلمين لقوله تعالى: « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » . فاذا كان الاسلام يحرم زواج المسلمة من الكافر فاولى به ان يقف موقفا اشد من التحريم - ان صح هذا التعبير - اذا كانت ستكون له خليلة وحظية ، وقد يصح ان يأخذ الاذفونش له حظايا من المسلمات عن طريق الفتح والغلبة ، ولكن الموقف هنا ليس موقف حرب او قتال ، انما هو لا يتعدى عقد معاهدة صداقة بين ملكين كل منهما له مركزه الذي ترنو اليه اسماع قومه وما كان للمعتمد ان يجازف ويخاطر بالاقدام على الموافقة ، ونحن نعرف ما كان عليه المسلمون من التشدد في تلك العصور ، ولا سيما في مسألة كهذه تعد وصمة في جبين ملك من ملوك الاسلام.

سبق لنا ان المعتمد كان قد عقد تلك المعاهدة المشئومة بينه وبين الاذفونش لعله يظفر بالاستيلاء على امارتي بني زيرى وبني الافطس وعلى الرغم من ان المعتمد لم يستطع نزع غرناطه من بني زيرى الا انه استطاع ان ينتزع منهم «جيان» «وابذه»(2) و «بياسه»(3) و«مرتوس» اما بنوا الافطس فقد اكتفى المعتمد منهم بان وجه اليهم حملة لتحول

---

1) شرحه .

2) ابذه مدينة بالاندلس بينها وبين بياسته سبعة اميال، وهي على مقربة من النهر الكبير. راجع الادريسي ص 203 . الروض المعطار ص 11 .

3) بياسة مدينة بالاندلس بينها وبين جيان عشرون ميلا، وهي على كدية تطل على النهر الكبير وكانت تشتهر بزراعة الزعفران. راجع الادريسي ص 203. الروض المعطار ص 57.

دون معاونتهم للقادر بن ذي النون الذي كانت مملكته مهددة من الاذفونش(1) .

وعلى عاتق المعتمد تقع مسئولية كل الحوادث التي تتابعت فيما بعد ذلك، ان الاذفونش استغل التحالف الذي عقده مع المعتمد لمصلحته فقط فبينما كان المعتمد يرهق قواته ليحصل على امارتي غرناطة وبطليوس كان الاذفونش يعد العدة ليغير غارة شعواء على جميع الامارات الاسلامية وفعلا اعلن الحرب سنة 471 هـ ، (1079 م)، على القادر بن ذي النون وعاث في بلاده فسادا .

ولقد ساعدت الظروف الاذفونش في تنفيذ خططه . فان القادر ابن ذي النون كان منحل الاخلاق يعيش عيشة البذخ والترف كما انه كان العوبة في يد الخصيان من رجال بلاطه (2) وقد عجلت الحوادث بانهيار طليطلة ، وكان من اهمها ان بعض رجال القادر بن ذي النون زينوا له قتل وزيره ابن بكر بن الحديدي فانصاع لارائهم واستدعى وزيره الى قصره وهناك لقي حتفه . وعلم الدهماء بالخبر فهجموا على دار الوزير وسلبوها مما كانت تحتوي عليه من نفائس، غير ان الدهماء لم يقف عملهم عند ذلك الحد بل امتدت ثورتهم الى قصر الملك وفعلو به مثل ما فعلوا ببيت وزيره القتيل وفر الملك هو وحرمه جريا على الاقدام وبقيت طليطلة في فوضى شاملة حتى جاء اليها المتوكل ابن الافطس امير بطليوس سنة 472 هـ (3) .

اما القادر بن ذي النون فانه التجأ الى الاذفونش ليعاونه في رد ملكه مقابل مبلغ من المال تعهد القادر بدفعه عندما يدخل عاصمة ملكه،

---

1) كوندى ج 2 ص 195. يوسف اشباخ ج 1 ص 62.

2) ملوك الطوائف ص 266.

3) الذخيرة قسم 4 ج 1 ص 118 - 125.

وكان الاذفونش من ناحية اخرى قد تلقى دعوة من زعماء الثورة بطليطلة يستدعونه لحماية مدينتهم (1) .

وفي يوم عيد الاضحى سنة 484 ه (1082 م) جاء الاذفونش معالقادر ابن ذي النون وشدد الحصار على طليطلة حتى سلمت، وكان الاتفاق قد تم بين القادر والاذفونش على ان يعاون الاخير الاول فياسترجاع ملكه ثم يرجع الى حال سبيله، غير ان الاذفونش لم يكد يدخلطليطلة حتى عرج على قصر من قصور بني ذي النون يسمى « المنية المصورة » وكان من ازهى قصور بني ذي النون، وحط رحاله بها (2) .

ولما لم يكن في مقدرة ابن ذي النون ان يطرد الاذفونش من طليطله فانه كتب الى المتوكل بن الافطس امير بطليوس يلتمس منه المعونة الصادقة فبعث اليه المتوكل بن الافطس والى «ماردة (3) » غير ان هذه المعونة لم تخفف الضغط عن طليطلة التي اصيبت بضنك شديد: قلة الغذاء في الداخل وكثرة العدو المحاصر لها من الخارج (4) .

ولما ضاق اهل طليطلة بحصار الاذفونش ذرعا خرجوا اليه علهم يستطيعون - عن طريق المفاوضة - ان يجدوا حلا لموقفهم، ويصف لنا ابن بسام مقابلة الاذفونش لوفد طيطلة وغيره من وفود ممالك الاندلس، وما لقوا منه من عنت وارهاق فيقول : « وقد ضاق المجال وتلمظت الآجال واقبلت الحتوف تختال فقام الحجاب دونه وقالوا . هو نائم فكيف توقظونه ؟ فعدلوا الى مضرب ششنند سر العنيد وشيطانه المريد، وهامانه الذي اوقد له على الطين، وعلمالدفع بالشك في صدر اليقين، احداعلاج

---

1) ملوك الطوائف ص 266 - 267 .

2) الذخيرة قسم 4 ج 1 ص 127 وما بعدها.

3) مارده مدينة بالاندلس بينها وبين بطليوس عشرون ميلا. راجع الادريسي ص 181 - 182 . الروض المعطار ص 175 .

4) كوندي ج 2 ص 196 - 197 .

ابن عباد كان من رجل متوقد جمرة الذكاء، بعيد المذهب بين الجرأة والنكراء، سفر بين المعتضد والطاغية فرذلند فعقد وحل ونهض بما حمل من ذلك واستقل، ثم خاف المعتضد على نفسه فنزع بـه عرق اللـوم الى المقر المذموم، واستقرت قدمه بجليقية فاضطلع بالدروب والثغور وغلب على سائر السياسة والتدبير وصار بعد قصارى ملوك الطـوائف بالجزيرة نظرة من اهتباله وأذى خطرة من باله، فادخل على الاذفونش يومئذ منهم جماعة فوجـدوه يمسح الكرى من عينية، ثائـر الـرأس خبيث النفس وجعلوا ينظرون اليه يضفث ثغامة رأسه، فما نسوا ذفر اطماره. ثم اقبل عليهم بوجه كريه ولحظ لا يشكون ان الشرفيه، وقال لهم الى متى تتخادعون، وبأي شيء؟ قالوا بنا بقيه، ولنا في فـلان وفلان امنيـة وسموا له بعض ملوك الطوائف فصفق بيديه وتهافت حتى فحص برجليه ثم قال اين رسل ابن‌عباد؟ فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعة وينبسون بالسنة‌السمع والطاعة، فقال‌لهم:مذكم‌تحومون علي؟وترومون‌الوصول‌الي؟ ومتى عهدكم بفلان، واين ما جئتم به لا كنتم ولاكان «فجاءوا بجملة ميرة، واحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة ثم ما زاد على ان ركـل ذلك برجليه وامر بانتهابه كله، ولم يبق ملك من ملوك الطوائـف الا حضر يومئذ رسله، وكانت حال من كان قبله وجعل اعلاجه يدفعـون في ظهورهم واهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم، فخـرج مشيختها من عنده وقد سقط في ايديهم، دخلوا بينه وبين البلـد لثلاثة ايام من ذلك المشهد ودخل طليطلة على حكمه واثبت فـي عرصتهـا قدم ظلمه (1)».

ولما ذهب كل امل في المقاومة ورآى عامـة الناس انهـم يموتـون جوعا تقدموا الى ابن ذي النون ونصحوا له بان يتفاوض مـع الاذفونش

1) راجع الذخيرة قسم 4 ج 1 ص 127 - 130 .

في امر السلام، اما ذووا البيوتات من مسلمي طليطلة فقد قرروا الدفاع عن وطنهم الى الرمق الاخير، ولكن الشعب لم يكد يعلم بهذا القرار حتى صمم على الاستسلام.

وسقطت طليطلة بعد ان تعهد الاذفونش بحماية السكان في انفسهم واموالهم، وان يكون للمسلمين حرية البقاء او الهجرة الى اي جهة من جهات الاندلس وان يبقى المسجد الجامع مفتوحا للمسلمين يؤدون فيه طقوسهم الدينية، وان يدفعوا الجزية المفروضة عليهم مقدما، وان لا يتدخل في شرائعهم وقضائهم، وان يتعهد للقادر ابن ذي النون بان يكون ملكا على بلنسية.

وطبقا لهذه الاتفاقية دخل الاذفونش المليطلة في السابع والعشرين من محرم سنة 478 هـ (1085م) بعد ان رتعت في ظل الاسلام ثلاثمائة واثنين وسبعين عاما (1) .

كان سقوط طليطلة ضربة قاضية لجميع ملوك الطوائف الذين استيقظوا من نومهم العميق - بعد فوات الوقت - وبدأوا يفكرون في المصير الذي يرتقبهم ان هم ظلوا على تفرقهم. واخذ شعراء الاندلس ينذرونهم بيوم الرحيل النهائي ان هم ظلوا على سياستهم القديمة فنرى احد شعرائهم - ابو محمد عبد الرحمن بن فرج بن عزون المعروف بابن العسال - يثير اهل الاندلس بابياته المشهورة:

حقوا رواحلكم يا أهل اندلس	فما المقام بها الا من الغلط
السلك يشر من أطرافه وارى	سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جوار الشرك لم يأمن عواقبه	كيف الحياة مع الحيات في سفط

كان الاذفونش بفضل المعاهدة التي سعى في عقدها ابن عمار قد

---

1) الذخيرة قسم 4 ص 127 - 132 . اعلام الاعلام ج 3 ص 209 - 210 . نفح الطيب ج 2 ص 522 . كوندي ج 2 ص 196 - 198 . يوسف اشباخ ج 1 ص 61 - 64.

بدأ يتوسع في جميع ممالك الاندلس، واستولى على مدن «مجـريط (1)» و «ماردة ووادى الحجارة (2)» واحتل جميع سهول تاجة، وهنا صمم المعتمد على ان يقف امام اطباع الاذفونش فكتب اليه يطلب منه ان يوقف هجومه على بقية انحاء طليطة ويكتفي بتلك المدينة، فان هو لم يفعل فسيعد ذلك منه خرقا للمعاهدة المعقودة بينهما، فاجاب الاذفونش بانه يملك طليطلة بالاشتراك مع صديقه الامير يحيى المقتدر صاحب بلنسية، وانه - اي الاذفونش - لا يزال مخلصا لتعهداته ومستعدا لتنفيذ شروط التحالف، ولكي يبرهن على اخلاصه ارسل الى المعتمد خمسمائة فارس مدججين بالسلاح ليستعين بهم على فتح غرناطة، وجاءت فرسان قشتالة الى اشبيلية بدون دعوة من المعتمد وبقيت بها ثلاثة ايام ثم رحلت الى شذونه، ولما كان المعتمد قد اصبح يرتاب في حركات المسيحيين فأنه فاجأ حليفه السابق الاذفونش بعقد معاهدة مع امير غرناطة لكي تعود قوات المسيحيين الي بلادها(3).

ازاء هذه الحالة ادرك الاذفونش ان لا امل له في توسيع نفوذه على حساب المعتمد فتطلع بنظره الى العالم المسيحى يلتمس فيه حلفا يغذي مطامعه فاتجه نحو سانشو الاول ملك نبرة «نافار» واتفقا على القضاء على الدويلات الاسلامية بالاندلس وفعلا خرجت جيوشهم بعضها الى «قورية(4)» وانتزعوها من بني الافطس، وبعضها الى اشبيلية فاحرقوا بسائطها ودمروا

---

1) مجريط مدينة بالاندلس وهي قلعة ومدينة بالقرب من طليطلة. راجع الروض المعطار ص 179.

2) وادى الحجارة مدينة بالاندلس تعرف بمدينة الفرج بينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا. راجع الادريس ص 188. الروض المعطار ص 193.

3) يوسف اشباخ ج 1 ص 73.

4) قورية مدينة بالاندلس قريبة من مارده وبينها وبين قنطرة السيف مرحلتان: الادريس ص 183. الروض المعطار ص 164.

قراها، وصارت قوة اخرى الى شذونه وتوغلت حتى وصلت الى الجزيرة الخضراء بينما كانت قوات اخرى تهدد سرقسطة حتى اصبحت هذه المدينة على وشك ان يصيبها ما اصاب طليطلة، ولما اصبحت جميع الامارات الاسلامية مهددة من قبل المسيحيين فان امراء الاندلس بدأوا يفكرون في الاستنجاد بزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين.

لا يسعنا ان ننتهي من الحديث عن علاقة المعتمد بالمسيحيين وما جرته من ويلات على الاسلام دون ان نتعرض باسهاب لموقف امراء الاندلس وقوادها من الوزير ابن عمار ذلك الذي كان واسطة العقد بين المعتمد وملوك المسيحيين فقد اصبح امراء الاندلس وقوادها ينظرون بعين الحقد الى ابن عمار، ذلك الرجل الذي سعى في عقد تلك المعاهدة المشؤومة بين المعتمد وبين الاذفونش.

ولم يكن ابن عمار محبوبا من رجال بلاط المعتمد بل كان له اعداء خطرون اشهرهم ابو الوليد بن زيدون ورغم ان ابن عمار استطاع بمساعدة رئيس الحرس الملكي ابن مرتين ان يبعد ابن زيدون من بلاط المعتمد فان ولده ابا بكر بن زيدون الذي خلف اباه في بلاط المعتمد قد بدأ يدبر المؤامرات للقضاء على خصم ابيه (1) وكذلك اتهمه الرشيد بن المعتمد بأنه جعل كل الحصون والقلاع التي على الحدود تحت امرته يستعين بها قواد من اقاربه اويبيعها ويستثمر امواله في مآربه الخاصة(2).

وكأن القضاء كان يسرع بابن عمار الى نهايته الاخيرة فانه لما استولى على مرسية وقبض على واليها ابي عبد الرحمن بن طاهر، جعل ابو بكر بن عبد العزيز - والي بلنسية - يكاتب المعتمد ويتشفع في اطلاق سراح ابن طاهر من اسره فتقبل المعتمد شفاعته واصدر اوامره الى ابن عمار

---

1) دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 186 - 187 ، 241 - 242.

2) كوندى ج 2 ص 198 - 199.

ليطلق سراح اسيره غير ان ابن عمار تلكأ في امر سيده وقد كان من قبل حاول ان يستميل ابن طاهر اليه وهو في اسره فارسل اليه خلعة جميلة ليلبسها وكان ابن طاهر - كما سبق لنا - بارع النكتة فقال للرسول: «قل له لا اختار من خلعه اعزه الله الا فروة طويلة وغفارة صقلية» وكان ابن طاهر يشير في نكتته هذه الى ابن عمار حين قصده ومدحه باحدى قصائده يستجديه فيها، فعرف ابن عمار ما يرمي اليه ابن طاهر فقال للجالسين حوله. «نعم «اناء» قصد بزتي يوم قصدته وهيأتي حين انشدته» (1) واضمرها ابن عمار في نفسه، واعاد ابو بكر بن عبد العزيز الكرة فكاتب المعتمد ورجاه ان يجعل باطلاق صديقه فأمر المعتمد ابن عمار بان يطلق سراح ابن طاهر في الحين، ولم يكن لابن عمار في هذه المرة ان يعصي امر سيده ففك سراح ابن طاهر.

وكان من الطبيعي ان تتوتر العلاقات بين ابي بكر بن عبد العزيز وبين ابن عمار، فصار ابن عبد العزيز يتصيد الفرصة للايقاع به حتى وجدها عند ما اوحى الى ابن عمار شيطانه بابيات شعرية هجا بها اعتماد الرميكية زوجة المعتمد وام اولاده يقول فيها:

الا حي بالغرب حيا حلالا	اناخوا جمالا وحازوا جمالا
وعرج بيومين ام القرى	ونم فعسى ان تراها خيالا
تخيرتها من بنات الهجان	رميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير الذراع	لئيم النجارين عما وخالا
قصار القدود ولكنهم	اقاموا عليها قرونا طوالا
اتذكر ايامنا بالصبا	وانت اذا لحت كنت الهلالا
اعانق منك القضيب الرطيب	وارشف من فيك ماء زلالا
واقنع منك بدون الحرام	فتقسم جهدك ان لا حلالا

1) الذخيرة قسم 3 ص 8.

وكم ليلة بتها شاكياً / شفيناك داءً واعطيت مالا
ساهتك عرضك شيئا فشيئا / واهتك سترك حالا فحالا
فيا عمر الخيل يا زيدها / منعت القرى وابحت العيالا
اراك تواري بحب النساء / وقدما عهدتك تهوى الرجالا (1)

ولم يطلع على هذه القصيدة الا نفر من خلان ابن عمار الاوفياء وقد كان قد اندس بينهم يهودي جاء ليتجسس على ابن عمار من قبل ابي بكر بن عبد العزيز، ولم تكن الشكوك تحوم حوله فحمل اليهودي الرسالة الى سيده وهذا طيرها في الحال الى المعتمد فاثارته وملاته حنقا وغيظا على ابن عمار (2).

وليس بصحيح ما يزعمه بعض المؤرخين(3) ان «من جملة ذنوبه عند المعتمد بن عباد ما بلغه عنه من هجائه وهجاء ابيه المعتضد في بيتين كانا من اكبر اسباب قتله» وهما:

مما يقبح عندي ذكر اندلس / سماع معتضد بها ومعتمد
اسماء مملكة في غير مرضعها / كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

فهذان البيتان ليسا لابن عمار كما انهما ليسا لابن شرف القيرواني، (4) بل هما لابن رشيق القيرواني صاحب العمدة قالهما لما طلب منه ابن شرف ان يجوزا معا الى الاندلس (5).

لما اجتمعت هذه الاسباب كلها عند المعتمد ارسل من يلقي

---

1) راجع القصيدة في الخريدة ج 11 ص 165 . ابن خلكان ج 2 ص 7 . نفح الطيب ج 2 ص 451 . ويذهب ابن بسام «الذخيرة قسم 2 ص 255 ان هذه الابيات ليست لابن عمار».
2) ملوك الطوائف ص 225 - 256.
3) الخريدة ج 11 ص 165. وفيات الاعيان ج 2 ص 7 .
4) مقدمة ابن خلدون ص 191.
5) الذخيرة قسم 4 ج 1 ص 134. المراكشي ص 47 .

القبض على ابن عمار. غير أنه كان في هذا الوقت قد خلع عنه طاعة بني عباد واصبح الحاكم المستقل لمرسية، الا ان سوء حظه لم يمتعه بهذا الحكم فقد انتزعها منه قائد كان اكثر منه طموحا هو عبد الرحمن بن رشيق الذي كان مع ابن عمار على رأس الجيش المحاصر لمرسية قبل فتحها فلما فتحت المدينة دخلها معه، وكان ابن عمار غادر مرسية لقضاء بعض حاجاته وترك بها ابن رشيق، فاغتنم الرجل هذه الفرصة واستبد بالمدينة فلما رجع ابن عمار الى مرسية وجد ابواب المدينة مغلقة في وجهه فلم يدر ماذا يصنع (1).

ولعل ابن عمار - بعد ما رآه من ضياع مرسية منه - اراد ان يصلح موقفه مع المعتمد فارسل اليه قصيدة يقرله فيها بجرمه الذي اقترفه ويرجو منه صفحه وعفوه جاء فيها:

أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب ... فقد صرت من امري على مركب صعب
واصبحت لا ادري أفي البعد راحتي ... فاجعله حظي ام الحظ في القرب
اذا انقدت في امري مشيت مع الهوى ... وان اتعقبه نكصت على عقبي
على انني ادرى بانك مؤثر ... على كل حال ما يزحزح من كربي
اهابك للحق الذي لك في دمي ... وارجوك للحب الذي لك في قلبي
ايظلم في وجهي لذا قمر الدجى ... وتنبو بكفي صفحة الصارم العضب
حنانيك فيمن انت شاهد نصحه ... وليس له غير انتصاحك من حسب
وما جئت شيئا فيه بغي لطالب ... يضاف به رأيي الى العجز والعجب
سوى انني اسلمتني لملمة ... فللت بها حدي وكسرت من غربي
وما اغرب الايام فيما قضت به ... تريني بعدي عنك آنس من قربي
اما انه لولا عوارفك التي ... جرت جريان الماء في الغصن الرطب

---

1) الذخيرة قسم ص 3 . 8 قلائد العقيان ص 83 - 90. ص اعلام الاعلام ج 3 ص 186. ابن الاثير ج 9 ص 121 .

لما سمت نفسي ما اسوم من الاذى ولاقلت ان الذنب فيما جرى ذنبي
ساستمنح الرحمن لديك ضراعة واسال سقيا من تجاوزك العذب
فان نفحتني من سمائك حرجف ساهتف يا برد النسيم على قلبي

كان المعتمد كثيرا ما تؤثر فيه مثل هذه الا النسيم على فعفى عن وزيره وكتب اليه بأبيات يقول فيها:

لدي لك العتبى تزاح من العتب وسعيك عندي لا يضاف الى ذنب
واعزز علينا ان تصيبك وحشة وأنسك ما تدريه فيك من الحب
فدع عنك سوء الظن بي وتعده الى غيره فهو الممكن في القلب
قريضك قد ابدى توحش جانب فراجعت تأنيسا وعلمك بي حسبي
كلفته ابغي به لك سلوة وكيف يعاني الشعر مشترك اللب (1)

ويظهر ان ابن عمار لم يطمئن الى وعود المعتمد فلذلك نراه يؤثر ان يعود الى حياته الاولى، حياة التجوال بين امارات الاندلس ، ومن المفارقات الغربية ان ابن عمار بعد ما طرد من مرسية ساقته المقادير الى بلنسية عند ابي بكر بن عبد العزيز، وكان بها يومئذ ابو عبد الرحمن ابن طاهر ، فجمعهما المجلس وكان ابن عمار اخفش العينين فقال له ابن طاهر . « كذا يا ابا العيناء لا انت ولا انا ، اشارة منه الى طرد ابن عمار من مرسية كما طرد هو ابن طاهر منها (2) .

ووقف المطاف بابن عمار عند صديقه الاذفونش فاستقبله بكل ترحاب لانه رأى فيه آلة صالحة يوجهها كيف شاء ولا سيما انه كان يفكر وقتئذ في عدة مشروعات كان يأمل ان يسهل عليه ابن عمار انجازها ، ولكن ابن رشيق الثائر بمرسيه وغيره من القواد استطاعوا بدسهم عند الاذفونش ان يفسدوا العلاقة بين الصديقين ويجعلون

---

1) راجع الذخيرة قسم 2 ص 225 وما بعدها. قلائد العقيان ص 90 - 91
2) الذخيرة قسم 3 ص 8.

الاذفونش يشيح بوجهه عن ابن عمار حتى ان الاذفونش ذات يوم صارح ابن عمار بقوله : «أنت يا ابن عمار تذكرني بلص سرق ثمرات غيره بخيانته وجعلها فى حوزته ليأتى غيره ويسرقها منه»(1).

تيقن ابن عمار ان نجمه قد افل عند الاذفونش وفكر في ان يجد له مأوى عند امير آخر فلم يجد أمامه الا المؤتمن بن هود ملك سرقسطة الذي قابله بحفاوة بالغة ولم يكد يستقر عند المؤتمن حتى اخذ يغريه بالاستيلاء على حصن «شقورة» وبعد ان استعان به المؤتمن في الاستيلاء على بعض الحصون المجاورة بعثه على رأس كتيبه من الجند ليستولي على حصن شقورة .

ولم تكن عين المعتمد ابن عباد لتنام عن حركات ابن عمار وكان كل ما يخشاه المعتمد ان يعمد ابن عمار ويكشف لاعدائه عن الخطط كان يدبرها ضد الامارات الاسلامية ، لذلك اوصى المعتمد ابنه الراضي بان يتتبع حركات ابن عمار وينصب له شركا، فاتصل الراضي بابن بكر بن عبد العزيز امير بلنسيه وعد وابن عمار الالد واتفقا معا على تنفيذ خطة القبض على ابن عمار .

وبينما كان ابن عمار فى طريقه الى حصن شقورة كانت جواسيس ابي بكر بن عبد العزيز ترمقه وتقتفي اثره . وقبل ان يصل الى شقورة اتصل ابو بكر بن عبد العزيز ببني سهل ـ اصحاب هذا الحصن ـ ووضع معهم خطه لاسر ابن عمار واخذه حيا ، ولما كان بنو سهل يحملون في قلوبهم المقت والبغضاء لابن عمار فقد اتفقوا مع ابن عبد العزيز على ما اشار به عليهم ، وبذلك اصبح هلاك ابن عمار محققا .

وفي الوقت الذي حط فيه ابن عمار رحله بسفح الحصن وصل اليه رسول ابن مبارك صاحب الحصن يبلغه انه قد تنازل له عن الحصن وعرض

---

1) كوندي ج 2 98 ـ 99. ملوك الطوائف ص 258 .

عليه ان يدخل الحصن برجاله، وكانت الخطة ان يحال بين ابن عمار وجنده فكان عند كل مدخل من مداخل الحصن تحجز شرذمة من جنده حتى بقي بمفرده، وعند ذلك احاطت به جماعة من الرجال فاوثقته والقت به في سجن شقورة (1).

ولعل ابن عمار اراد ان يتخلص من سجنه بطريقة ظنها تنقذه فعرض على ابن مبارك ان يبيعه في المزاد العلني حتى يبذل من يرغب فيه من ملوك الاندلس اغلى الاثمان، وقد كان ما طلبه ابن عمار فعرض في المزاد العلني وتسابقت الملوك في شرائه، ولما اخبر المعتمد باسر ابن عمار ارسل ابنه الراضي لياخذه مقابل مبلغ من المال، وفي ذلك يقول ابن عمار:

اضبحت في السوق ينادى على رأسي بانواع من المال
والله لا جار على نقده من ضمني بالثمن الغالي

ولما كان المعتمد اكثر الملوك مغالاة في دفع الثمن فقد وقف البيع عليه وأخذ الراضي ابن عمار مصفدا في الاغلال حاسر الرأس على بغل بين عدلي تبن. وكان ابن عمار وهو في طريقه تصب عليه اللعنات من جميع الطبقات. و عندما قرب من قرطبة نادى منادي المعتمد في الناس ان هبوا لاستقبال الرجل الذي طالما استقبل بدق الطبول ونشر البنود. ودخل ابن عمار على تلك الطريقة المزرية الى قرطبة، فلما لقيه المعتمد اخذ يعدد عليه اياديه ونعمه وابن عمار ساكت لا ينبس بكلمة حتى فرغ المعتمد من كلامه، وعند ذلك اجابه ابن عمار بقوله: « ما انكر شيئا مما ذكر مولانا ابقاه الله، ولو انكرته لشهدت علي به الجمادات فضلا عمن ينطق، ولكني عثرت فأقل، وزللت فاصفح، فقال المعتمد. « هيهات انها عثرة لا تقال » . ثم امر به فالقي في السجن

---

1) الذخيرة قسم 2 ص 255 وما بعدها. قلائد العقيان ص 83 - 90 - 92. المعجب ص 75 - 80. اعلام الاعلام ج 3 ص 186 - 187.

حيث بات فيه ليلته تلكوفي الصباح اركب به النهر الكبير الى اشبيلية فاستقبل بها نفس الاستقبال الذي لقيه بقرطبة ، ثم ذهبوا به الى سجن في غرفة على باب قصر المعتمد وهو القصر المعروف بالمبارك . ويقال ان المعتمد زيادة في الاحتياط اغلق السجن بنفسه على ابن عمار واخذ المفاتيح معه (1) .

ويجمل بنا ان نلمح الى قصة طريفة كانت قد حدثت بين ابن اعمار والمعتمد بشلب ، عند ما كان ابن عمار يملك على المعتمد جميع حواسه فذات ليلة استدعاه المعتمد « الى مجالس انسه على ما كانت العادة جارية به ، الا انه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبر له على المعتاد فلما جاء وقت النوم اقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي على وساد واحد ، فكان ذلك ، قال ابن عمار : فهتف بي هاتف في النوم يقول : لا تغتر ايها المسكين انه سيقتلك ولو بعد حين . قال : فانتبهت من نومي فزعا وتعوذت ثم عدت فهتف بي الهاتف على حالته الاولى ، فانتبهت ثم عدت ، فسمعته ثالثة فانتبهت متجردت من اثوابي والتفت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد ازمعت على اني اذا اصبحت خرجت مستخفيا حتى آتي البحر فاركبه واقصد بلاد العدوة فاكون في بعض جبال البربر حتى اموت ، فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني ، فامر في طلبى فطلبت له في نواحي القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكا على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذي وقع علي وذلك انه اتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف بازاء الحصير الذي كنت فيه فكانت مني حركة فاحس بي وقال . ما هذا يتحرك في هذا الحصير ثم امر به فنفض فخرجت عريانا ليس علي الا السراويل فلما رآني فاضت عيناه دموعا وقال . يا ابا بكر ، ما الذي حملك على هذا

---

1) المعجب ص 75 ـ 80 .

فلم ار بدا من ان صدقته فقصصت عليه قصتي من اولها الى آخرها . فضحك وقال: اضغاث احلام، هذه آثار الخمار، ثم قال لي: وكيف اقتلك أرأيت احدا يقتل نفسه؟وهل انت عندي الا كنفسي؟!. «فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الامر فنسيه »(1).

مرت على هذه الحادثه ايام ، واليوم جاء الوقت الذي سيحقق فيه حلم ابن عمار ، ولقد قضى ايامه في السجن وهو يتوسل الى المعتمد في العفو عنه ولما طال سجنه دعا بدواة وقرطاس وكتب الى المعتمد قصيدة يستعطفه فيها تعد من روائع الشعر العربي في الاندلس يقول فيها :

سجاياك ان عافيت اندى واسمح ... وعذرك ان عاقبت اجلى واوضح

وان كان بين الخطتين مزية ... فانت الى الادنى من الله اجنح

حنانيك في اخذى برأيك لا تطع ... عداتي وان اثنو علي وافصحوا

وما ذا عسى الاعداء ان يتزيدوا ... سوى ان ذنبي واضح فتصحح

نعم لي ذنب غير ان لحلمه ... صفات يزل الذنب عنها فيفسح

وان رجائى ان عندك غير ما ... يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد اسلفت ودا وخدمة ... يكران في ليل الخطايا فيصبح؟

وهبني وقد اعقبت اعمال مفسد ... اما تفسد الاعمال ثمت تصلح؟

اقلني بما بيني وبينك من رضا ... له نحو روح الله باب مفتح

وعف على اثار جرم جنيته ... بهبة رحمى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأي الوشاه وقولهم ... فكل اناء بالذي فيه يرشح

سيأتيك في امري حديث وقد اتى ... بزور بني عبد العزيز موشح

وما ذاك الا ما علمت فأنني ... اذا تبت لا انفك آسو وأجرح

تخيلتهم لا در لله درهم ... اشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا

1) المعجب ص 72 - 73.

وقالوا سيجزيه فلان بفعله — فقلت : وقد يعفو فلان ويصفح
الا ان بطشا للمؤيد يتقى — ولكن حلما للمؤيد ارجح
وبين ضلوعي من هواه تميمة — ستنفع لو ان الحمام مجلسح
سلام عليه كيف دار به الهوى — الي فيدنو أو علي فينزح
ويهنيه ان مت السلو فأنني — اموت وإي شوق اليه مبرح (1)

ويذهب الفتح ابن خاقان (2) الى ان المعتمد لما فرغ من قراءة القصيدة قام الى موضع ثقافه ومرجع اختطافه وبيده طبرزين كان الاذفونش قد اهداه الى ابن عمار فأهداه هو الى المعتمد، فلما سمع فتح الباب وعلم انه في جملة من جاء اليه قبل الارض بين يديه فما سمع رأسه الا وقد درعه انتكاسا وسقاه الحمام كاسا بضربة نظمت رأسه في الطبرزين نظم العقد وفصحت من فؤاده عرى ذلك الحقد ثم امر به فكفن في تلك الدماء ودفن في بقية ذلك الذماء ».

ولكن المراكشي (3) يذكر لنا رواية اخرى عليها مسحة من الصحة يذكر فيها « انه - اي ابن عمار - لما طال سجنه كتب اليه - اي الى المعتمد - بالقصيدة التي تقدم انشادها فادركت المعتمد بعض الرقة فوجه اليه ليلا وهو في بعض مجالس انسه فأتي به يرسف في قيوده فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر ، غير انه اخذ في البكاء وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الالفاظ كل ما يقدر انه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد ، فتم له بعض ما اراد من ذلك ، وعطفت المعتمد عليه سابقته وقديم حرمته ، فقال له قولا بضمن العفو عنه ، تعربضا لا تصريحا وامر

---

1) قلائد العقيان ص 98. المعجب ص 78.
2) قلائد العقيان ص 98 ـ 99.
3) المعجب ص 79 ـ 80.

برده الى محبسه، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد الى ابنه الراضي بالله فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار إحن قديمة، فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم ما ارى ابن عمار الا يستخلص ، فقالوا له . ومن اين علم مولانا ذلك ؟ فقال . هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه ان مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص،فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره، فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن عمار اقبح نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فارسل الى ابن عمار وقال له : هل اخبرت احدا بما كان بيني وبينك البارحة؟. فانكر ابن عمار كل الانكار فقال المعتمد للرسول قل له: الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت في احداهما القصيدة فما فعلت بالاخرى؟ فادعى انه بيض فيها القصيدة فقال المعتمد : هلما المسودة ، فلم يجد جوابا ،فخرج المعتمد حانقا وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار، فلما رآه علم انه قاتله، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذي في يده يضربه به حتى برد ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك . ويقال ان الرميكيه لما رأت ابن عمار مقتولا والطبرزين في رأسه قالت: «قد بقي ابن عمار هد هدا »(1).

وهكذا هوى نجم الشاعر الافاق الذي لم يبق في هذه الدنيا على صديق ولا حميم ، ولعل المعتمد ندم على قتل وزيره واسف على تسرعه في قتله ، ولكن قد سبق السيف العذل (2).

---

1) نفح الطهب ج 2 ص 451.

2) نفح الطيب ج 2 ص 451.

بين المعتمد والمرابطين

نشأة المرابطين وتدرجهم في الحكم ـ ظهور يوسف بن تاشفين ـ المعتمد يفكر في استدعاء المرابطين للاندلس ـ ملوك الاندلس يعقدون مؤتمرا يقررون فيه استدعاء المرابطين ـ يوسف بن تاشفين يشترط ان يساعده الاندلسيون على فتح سبتة ـ تبادل الرسائل بين المعتمد والاذفونش ـ المعتمد يقتل رئيس وفد الاذفونش ـ الاذفونش ينتقم ـ المعتمد يستحث ابن تاشفين على العبور ـ ابن تاشفين يشترط احتلال الجزيرة الخضراء ـ المعتمد يجيبه الى ما طلب ويزوره بافريقية ـ نزول ابن تاشفين بالجزيرة الخضراء وسيره الى اشبيلية ـ ابن تاشفين يكاتب الاذفونش ـ ملوك المسيحيين يتعاهدون على حرب المسلمين ـ موقعة الزلاقة ـ ابن تاشفين يكتب الى ابنه بافريقية بانباء الفتح ـ المعتمد يكتب الى ابنه الرشيد باشبيلية ـ استقبال المعتمد باشبيلية بعد الموقعة ـ ابن تاشفين يعود الى افريقية ـ

المعتمد يحاول التوسع فى بلاد المسيحيين ولكنه ينهزم امام السيد ـ الاذفونش يستعيد سيرته فى غزو المسلمين ـ المعتمد يعبر الى افريقية ويقابل ابن تاشفين ـ ابن تاشفين يعبر الى الاندلس مرة ثانية ـ قوات المرابطين والاندلسيين تحاصر حصن لبيط ولكنها تعجز عن فتحه ـ النزاع فى صفوف المسلمين ـ ابن تاشفين يعود الى افريقية ـ ابن تاشفين يعود الى الاندلس ليقضي على ملوك الطوائف ـ استيلاء المرابطين على غرناطة ـ المرابطون يديلون دولة بني عباد .

كانت قبيلة صنهاجة اعظم قبائل البربر بالمغرب الاقصى ومنها تفرعت عدة قبائل بربرية اشهرها قبيلة اللمتونيين نسبة الى جدهم «لمت» كما يقول ابن الخطيب (1) لا الى ثوبهم البسيط «اللمت» كما يزعم يوسف اشباخ (2) .

وكان هؤلاء البربر يقطنون الصحراء الكبرى ما بين بلاد المغرب والسودان، ولم يكن لهم مسكن معلوم يأوون اليه، بل كانوا يعيشون اهل بادية متنقلين بابلهم من مكان الى آخر سعيا وراء الكلاء والمرعى، كما كانوا في شظف من العيش يقتاتون من البان ابلهم ولحومها «قلما يأكلون خبزا الا ان يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق» (3) .

---

1) الحلل الموشية ص 6 . وقد رجحنا رأيه على رأي يوسف اشباخ لانه اندلسي موثوق به في شئون بلاد المغرب .

2) ج 1 ص 67 ولم يذكر لنا من اين اتى بذلك .

3) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ص 164 . الانيس المطرب ص 76.

وكانوا على جهل تام بالدين الاسلامي ، اذ كانوا علـى ديـن المجوسية واتخذ اللمتونيون اللثام شعارا لهم سواء في ذلك الرجال والنساء ولذلك فهم يعرفون ايضا بالملثمين (1) .

وكان أول ظهور اللمتونيين على مسرح السياسـة حينمـا ذهب يحيى ابن ابراهيم الجدالي الى الشرق لقضاء فريضة الحج ، وبينما هو راجع الى بلاده مـر في طريقه على مدينة القيراوان فالتقى بهابالفقيه ابن عماران الفاسي المالكي وحضر عليه بعض مجالسه العلميـة فكان لها اثر في نفسه، وطلب من الفقيه ان يبعث معه بعض تلامذته ليعلموا قومه تعاليم الدين الحنيف ومبادئه فارشده ابو عمران الى تلميذه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي وكان هذا الفقيه مشهورا بالتقوى والورع ولم يكد ينزل ببلاد لمتونه حتى تجرد لتعليم اللمتونيين القرآن ومبادئ الدين الحنيف ، ولعل القوم وجدوا في هذه التعاليـم شدة في أول الامـر لذلك ثاروا على عبد الله بن ياسين وعولوا على طرده من بلادهم(2) .

وكان يحيى بن ابراهيم الجدالي هو وحده الذي تمسك بعبد الله ابن ياسين وعرض عليه ان يخرج معه الى بعض الجزر القريبة منه فخرجا اليها ومعهما سبعة من اهل جداله ، وهناك بنى عبد الله لاصحابه «رابطة» يتعبدون فيها وبقوا على تلك الحال حتى شاع خبرهم في قبيلـة لمتونـة فاسرع اليهم كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من الايمان ، ولم تمر عليهم الا مدة يسيرة حتى بلغ عددهم نحو الف رجل سماهم عبد الله ابن ياسين «المرابطين» وهوالاسم الذي اصبح علما على هذه الدولة الفتية(3).

1) ابن خلدون ج 6 ص 181. الحلل الموشية ص 8. وفيات الاعيان ج 2 ص372. ابن الاثير ج 9 ص 260. ابو الفداء ج 2 ص 174 - 175.

2) المعرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 165 - 166. الانيس المطـرب ص 78 - 79. المؤنس ص 101 - 102. الاستقصا ج 1 ص 100.

3) الانيس المطرب ص 179 . المؤنس ص 102 . الاستصقا ج 1 ص 100.

وفي هذا الوقت كان «وجاج بن زلو» احدكبار لمتونه قد استطاع أن يقنع قومه باستدعاء عبد الله بن ياسين من مهجره وقـال لهم: «ان من خالف امر عبد الله فقد فارق الجماعة وان دمه هدر» واخـذ ينصحهم الى ان وافقوا وبعثوا في طلبه، ولما كان عبد الله بن ياسين قد اصبـح يأنس من نفسه القوه بما تجمع له من انصار فقد رجع الى قبيلة لمتونـة على رأس جماعة المرابطين ونكل باولئك الذين ثاروا عليه من قبل(1).

وكانت الخطوة الثانية ان نظم عبد الله بن ياسين جماعة المرابطين فنصب عليهم ابا زكرياء يحيى بن عمر قائدا ثم غزا بهم القبائل المجاورة سنة 434 هـ، وبينما يحيى بن عمر يقود احد المعارك اذ سقط قتيلا فاختار عبد الله بن ياسين بدلا له من السلطه اخاه ابا بكر بن عمر ليحل محله في قيادة الجيش، ولم يلبث ايضا ان قتل عبد الله بن ياسين عندما كان يغزو بلاد تامسنا سنة 451 هـ (2).

ولما توفي عبد الله بن ياسين استقل بالحكم ابو بكر بن عمر فسار على سنة سلفه عبد الله بن ياسين في غزو قبائل البربر فخـرج بنفسه الى الصحراء للغزو واستخلف على المغرب يوسف بن تاشفين وكـان هذا القائد طماحا الى العلاء، فمنذ ان تركه ابو بكر بن عمر نائبا عنه وهو لا يألو جهدا في تقوية مركزه في البلاد ليصبح حاكما مستقلا، وكان مما عمله في هذ الصدد ان اشترى بعض العبيد مـن السودان فاجتمع له منهم نحو الفين، ثم بعث الى الاندلس فشترى منها جملة من العلوج واتخذ من هؤلاء جميعا حرسه الخاص، ولما كان في حاجة شديدة

---

1) المعرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 166. الانيس المطرب ص 79.
2) المعرب ص 168 . الانيس المطرب ص 80 ابن خلدون ج 6 ص 381 - 382 . الحلل الموشية ص 9 - 10 . المؤنس ص 103 - 104. الاستقصا ج 1 ص 98-106.

الى المال فأنه فرض على اليهود جزية ثقيلة اجتمعت له منها اموال كثيرة استعان بها في تشييد ملكه (1) .

وحينما رجع ابو بكر بن عمر من غزواته خرج يوسف بن تاشفين لاستقباله في جيش عظيم لم يكن لابي بكر عهد به وكان يوسف بن تاشفين قد عزم على ان يستقل بالحكم فلما سأله ابو بكر بن عمر عن السبب الذي جعله يتخذ هذا الجيش العتيد اجابه يوسف ، «اني استعين به على من خالفني» ثم قال له : « اني قد جئت اليك بكل من معي من مال وثياب وشيء من الطعام والادم لتستعين به على الصحراء » . وهنا ادرك ابو بكر بن عمر ان يوسف ابن تاشفين قد خالف عليه، فلم يجد بدا من ان يترك له الحكم بعد ان اوصاه خيرا برعيته (2) .

وكان ابو بكر بن عمر قد بدأ في تشييد مدينة لتكون عاصمة لدولة المرابطين تلك هي مدينة « مراكش(3) » غير انه لم يشرف على بنائها اذ استدعي الى الصحراء لكي يحول دون النزاع الذي اشتداواره بين قبيلتي جدالة ولمتونة واضطر ان يخوض الحرب ضد قبيلة جدالة الحرب التي قتل فيها ، وبذلك فأن يوسف ابن تاشفين يعتبر بحق المؤسس لهذه المدينة التي اشرف على تشييدها سنة 454 هـ (4) .

ثم عمد يوسف بن تاشفين الى تنظيم جيشه الذي كان قد بلغ اربعين الف ، فاختار اربعة من قواد البربر هم «سير بن ابي بكر اللمتوني» و«محمد بن تميم الجدالى» و «عمر بن سليمان المسوفي» و «مدرك

1) الحلل الموشية ص 13.

2) الانيس المطرب ص 86 - 87. ابن خلدون ج 6 ص 185. الحلل الموشية ص 14 - 15. المؤنس ص 103. الاستقصاء - 1 ص 102 - 106.

3) مراكش بضم الميم وفتح الراء مشددة بعدها الف وبعد الألف كاف مكسور ثم شين معجمة . الادريسي ص 67 - 68. الاستقصا ج 1 ص 107.

4) الحلل الموشيه ص 5 . الانيس المطرب ص 89.

التلكاني» وعقد لكل واحد منهم على خمسة آلاف ووجههم الى فتح ما بقي من بلاد المغرب، كما خرج هو على رأس جيش من اشراف المرابطين وقصد به الى مدينة فاس (1) حيث استولى عليها سنة 455هـ.
وهكذا لم تلبث مملكة المرابطين ان اتسعت حدودها حتى صارت تحد من الغرب بالمحيط الاطلسي ومن الشرق بولاية تونس(2).
وبينما كان يوسف بن تاشفين ينتقل من نصر الى نصر كان ملوك الاندلس ينحدرون بسرعة الى الهاوية ولم يعد الاذفونش يرضى بقبول الجزية منهم ويأبى الا ان يأخذ ممالكهم فشن عليهم غارة شعواء اخترق فيها الاندلس من الشمال الى الجنوب (3).

في هذه الاثناء بدأ المعتمد يفكر في الاستنجاد بالمرابطين فاستطلع رأي خواصه فنصحوا له بعدم الالتجاء اليهم، ولعل المعتمد لم يطمئن الى رأيهم هذا فأستشار ابنه وولي عهده الرشيد وقال له: « انا في هذه الاندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولي ولا ناصر الا الله تعالى، وان اخواننا وجيراننا ملوك الاندلس ليس فيهم نفع ولا يرجى منهم نصرة، ولا حيلة ان نزل بنا مصاب او نالنا عدو ثقيل، وهذا اللعين الاذفونش قد اخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع سنين وعادت دار كفر، وها هو قد رفع رأسه الينا وان نزل علينا بطليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ اشبيلية، ونرى من الرأي ان نبعث الى هذه الصحراء

---

1) فاس من اهم مدن المغرب الاقصى وهي مدينتان كبيرتان يفصل بينهما نهر يسمى بنهر فاس وتسمى المدينة الاولى بعدوة الاندلس والثانية بعدوة القرويين. وتطرد فيهما جداول ماء لا تحصى تخترق كلتا المدينتين. راجع المعرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب 115. الادريسي ص 75. الإستبصار في عجائب الامصار ص 68.
2) الانيس المطرب ص 89 - 90. ابن خلدون ج 6 ص 185. المؤنس ص 104. ابن الأثير ج 9 ص 59-260. الاستقصا ج 1 ص 108 - 110.
3) راجع ص 141 - 142 من هذه الرسالة

وملك العدوة نستدعيه للجوار لندفع عنا هذا الكلب اللعين اذ لا قدرة لنا على ذلك بانفسنا فقد تلف لجاؤلنا وتدبرت بل تبردت اجنادنا وابغضتنا العامة والخاصة » (1) .

وكان الرشيد بن المعتمد كأبناء قومه الاندلسين يمقت البربر ويبغضهم ، وكأن هاتفا كان يهتف به ان هؤلاء البربر الذين سيعبون لنجدة قومه سيحملون معهم المعاول لتحطيم عرش بني عباد ، لذلك نراه يقول لابيه : «يابت اتدخل علينا في اندلسنا من يسلبنا ويبدد شملنا فقال له المعتمد : اي بني والله لا يسمع عني ابدا اني اعددت الاندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثل ما قامت على غيري فرعي الجمال والله عندي خير من رعي الخنازير ، فقال له يا ابت افعل ما امرك الله فقال ان الله لم يلهمني اهذا الا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة المسلمن (2) .

تطايرت الانباء الى جميع انحاء الاندلس بما عزم عليه المعتمد ففرح عامة الناس بما سمعوا وأملو خيرا فى عبور المرابطين، اما ملوك الاندلس فقد استقبلوا هذه الانباء بفزع شديد، فقد كانوا يخشون على عروشهم من تحطيمها على ايدي المرابطين ولم يكادوا يتحققون من الخبر حتى اخذوا يكاتبون المعتمد يحذرونه من شر المرابطين بل ان بعض ملوك الاندلس سافر الى المعتمد وكلمه مشافهة وحذره مغبة ما سيقدم عليه وقال له: « الملك عقيم والسيفان لايجتمعان في غمد واحد» فاجابهم المعتمد بكلمته المشهورة «رعي الجمال خير من رعي الخنازير» ثم قال: لهم « اني من امري على حالة يقين وحالة شك ولا بد لي من احدهما اما حالة الشك فاني ان استندت الى ابن تاشفين فاني ارضي الله وان استندت الى الاذفونش اسخطت الله» .

1) الحلل الموشيه ص 27 - 28.

2) الحلل الموشيه ص 28

ورأى المعتمد ان يشرك معه في تنفيذ فكرته، المتوكل بن الافطس ملك بطليوس وعبد الله ابن حبوس ملك غرناطة فبعث اليهما ورجاهما ان يبعث قاضييهما الى اشبيلية، فاوفد ابن الافطس قاضي حضرتة ابا اسحق بن مقنا كما بعث عبد الله بن بادس قاضي حضرته ابا جعفر ثم انضم اليهما قاضي قرطبة ابو بكر عبد الله بن ادهم (1).

وفي اشبيلية عقد هؤلاء القضاة مؤتمرا خطيرا لبحث الموقف الدقيق الذي اصبحت فيه البلاد، وقد ضموا اليهم بعض القواد العسكريين واكبر الظن انهم ضموهم اليهم لاستشارتهم في الموقف من الناحية العسكرية بينما يقضي القضاة في الموقف من الناحية الدينية والسياسية

وعلى كل حال فقد اتفق رأي الجميع على استدعاء المرابطين الى الاندلس ولم يعارض هذ الرأي غير عبد الله بن سقوت والي مالقة من قبل ملك غرناطة فانه كان يعتبر المرابطين اشد خطرا على اهل الاندلس من المسيحيين وقال للمؤتمرين اننا لو اتفقت كلمتنا ووحدنا جهودنا لامكننا ان نتغلب على الكفار من غير ان نلجأ الى المرابطين الذي سيكون هلاكنا على ايديهم ولم يعد احد من المؤتمرين كلام هذا القائد وزنا بل ان جميعهم اتهموه بانه على اتفاق مع الاذفونش وانه لذلك يثبط عزائمهم وهكذا اجتمعت كلمتهم على مكاتبة يوسف بن تاشفين وعهدوا الى المتوكل بن الافطس ان يكتب رسالة باسم جميع امراء الاندلس ووقع هذه الرسالة المعتمد بن عباد والمتوكل ابن الافطس وعبد الله حبوس وغيرهم من الملوك الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر ملكا(2).

وابحر وفد مؤلف من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة ومعهم الوزير

1) الروض المعطار ص 85 ـ 86 . وقد نقل عنه المقري في نفح الطيب ج 2 ص 526. وكذلك الناصري في الاستقصا ج 1 ص 113.

2) الحلل الموشية ص 20. كوندي ج 2 ص 203 - 204. يوسف اشباخ ج 1 ص 74 - 75.

ابو بكر بن زيدون وزير المعتمد وكان على هذا الوفد أن يبلغ رسالة الملوك الى يوسف بن تاشفين كما كان عليه ان يعمل كل ما يستطيع - عن طريق الموعظة الحسنة - ليستجلب عطف يوسف على قضية الاندلس وقد عهد المعتمد الى وزيره ابي بكر ابن زيدون ان ينوب عنه في نقد المعاهدات مع يوسف ابن تاشفين اذا لزم الامر لذلك (1)

استقبل الوفد يوسف بن تاشفين بمدينة فاس سنة 474 ه، وقوبل منه بترحاب بالغ ودارت بين الفرقين مفاوضات حول القضية التي جاء الوفد من اجلها، ورغما عن ان يوسف بن تاشفين قد اظهر عطفا كبيراً على قضية الاندلس الا انه لم يكن في مقدرته ان يقدم لهم مساعدة جدية، وقد اعتذر يوسف للوفد عن عدم مساعدتهم الا اذا سقطت في يده مدينة « سبتة » التي كان بها الحاجب سقوت البرغواطي معتصما هو وقومه من اولياء الدولة الحمودية (2)

ولعل يوسف بن تاشفين اراد ان يساوم اهل الاندلس ليقدموا له المعونة اولا لفتح مدينة سبتة - وهي مفتاح الطريق الى الاندلس ليستطيع العبور اليهم.

ولما كان أهل الاندلس في ضيق من طغيان المسيحيين عليهم فان المعتمد جهز اسطولا وبعثه لحصار مدينة سبتة في الوقت الذي كان يوسف بن تاشفين قد بعث ابنه المعز لحصارها برا ولم تلبث مقاومة عبد الله بن سقوت حاكم سبتة ان ضعفت وسلمت المدينة للفاتحين وقبض في التو والحين على ضياء الدولة بن الحاجب سقوت بعد ان

---

1) الروض المعطار ص 86. وقد نقل عن المقرى في نفح الطيب ج 2 ص 256 والاستقصا ج 1 ص 113 - 114.

2) الروض المعطار ص 86 - 87. ابن خلدون ج 6 ص 185.

سقط ابوه في المعركه وبذلك سقطت هذه المدينة سنة 486 هـ، ولم يبق ليوسف بن تاشفين ما يعتذر به لاهل الاندلس (1).

وبينما كان يوسف بن تاشفين متردداً في العبور الى الاندلس وردت على المعتمد رسالة من الاذفونش يرعد فيها ويبرق، جاء فيها: «من الاينبطور ذي الملتين المفضل بن سانجة الى المعتمد على الله سدد الله رأيه وبصره مقاصد الرشاد. سلام عليك من مشيد شرفته العنا وثبت في المنى فاهتز اهتزاز الرمح لعامله و لسيف يساعد حامله وقد ابصرتم ما نزل بطليطلة واقصارها وما صار باهلها حين حاصرها بما صار في هذه السنين فاسامتم اخوانكم وعطلتم بالرعاية زمانكم والحذر من ايقظ بالله قبل الوقوع في الحبالة ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ونسعى بنور الوفاء امامه لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ووصل رسول العدو ووارده لكن الانذار يقطع الاعذار ولا يعجل الامر خوف الفوت فيما يرومه او خشى الغلبة على من يسومه وقد حملنا على الرسالة اليك القرمط البرهانس وعنده من التمريد «كذا» الذي يلقى به امثالك والعقل الذي تدبر به بلادك ورجالك فيما وجب استنابته فيما يدق ويجل وفيما يعلم لا فيما يحل وانت عند ما تأتي به من ورائك والنظر بعد هذا من ورائك والسلام عليك يسعى بينك وبين يديك(2) ».

كانت هذه الرسالة تهجمية .ن الاذفونس لذلك لم يكن للمعتمد بد من ان يكيل الصاع بصاعين وان يرد على هذا التهجم البغيض بتهجم آخر ابغض منه فكتب اليه بخطه «وبعد من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله ابي عمر عباد الى الطاغية الباغية اذفونش بن شانجه الذي لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذي

1) ابن خلدون ج 6 ص 185 - 282.

2) الحلل الموشية ص 22.

الملتين، قطع الله دعواه ، سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فانه اول من نبدأ به من دعواه انه ذو الملتين، والمسلمون احق بهذا الاسم لان الذي يملك من امصار البلاد وعظيم الاستعداد ومحي المملكة ، لا تبلغه قدرتكم ولا تعرفه ملتكم، وانما كانت سنة سعد ايقظ منها مناديكم واغفل عن النظر السديد فركبنا مركبا عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوسا قلت في اثنائها ليس مناديكم تعلم «كذا» اما في العدد والعديد والنظر الشديد ، فلدينا من كمات الفرسان وحيل الانسان وحماة الشجعان يوم يلتقي الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر وكرهوا الفقر، تسيل نفو..هم على حد الشفار، وتنعاهم الهمام في القفار ، يديرون رحى المنون بحركة العزائم، ويشفون من خطب الجنون بخواتم العزائم، وماتستحي ان تأمر باسلام البلاد الى رجاله؟ وانا لنعجب برأي لم تحكم انجازه ولا حسن انتخابه ، واعجابك بصنع وافقتك فيه الاقدار واغتررت بنفسك اسوأ اغترار، وقد اعدوا لك ولقومك جلادا ازلية الاتقان وشفارا حدادا شحذتها الاصفاق ، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشهوة نبهت من غفلة طال زمانها، وايقظت من نومة عاد ايمانها، ومتى كانت لاسلافك الاقدمين مع اسلافنا (1) الاكرمين يد صاعدة او رفقة مساعدة، الاذل تعلم مقداره وتحقق تاره، والذي جرك على طلب ما لا تدركه، قوم كالحمر لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة او من وراء جدر . ظن العاقل تعقل، والدول لا تنقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما اوجب القعود على نصرتهم وتدبير امورهم، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما اتيناه في انفسنا وفيهم من ترك الحزم واسلامهم لاعاديهم ، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك وبالله نستعين عليك ولانستبطئ

1) وردت هذه العبارة في النص كما يأتي «ومتى كان لاسلافك الاقدمين مع اسلافك الاكرمين يد صاعدة . . الخ وهو كلام لا يستقيم مع بقية النص ولذلك رأينا اصلاحه بما اثبتناه في نص الرسالة وبذلك استقامت المعنى .

مسيرتنا اليك ، والله ينصر دينه الكريم ولو كره الكافرون، والسلام على من علم الحق فأتبعه واجتنب الباطل وخدعه » (1) .

ويحكى ان الاذفونش في هذا الوقت بعث رسله الى ملك اشبيلية ومعهم وزيره وصاحب خزينته ابن شالب اليهودي ، وكانت مهمة هذا الوفد هي الحصول من المعتمد على الجزية التي كانت مقررة عليه ، وكان المعتمد قد تأخر في دفعها لحرب قامت بينه وبين المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، ولم يدخل ابن شالب اليهودي الى اشبيلية، وانما ضربت له الخيام هو واصحابه خارجها، وهناك بعث اليه المعتمد كمية المال المقررة بواسطة صاحب بيت المال ابن بكر بن زيدون ، غير ان اليهودي لم يرض بالذهب الذى عرض عليه وظنه مزورا وقد كان المعتمد كثيرا ما يلجأ الى تزوير العملة ويقدمها لخصومة كعملة سائرة في مملكته وقدابى اليهودي ان يتسلمها الا اذ عرضها على النار او على حجر المحك ليختبر صنفها ، وقد انقضى كثير من الوقت في المناقشات والاخذ والرد في امر الذهب وهل هو خالص او مشكوك فيه ، واخيرا اقترح اليهودى ان يستبدل بهذه الكمية من الذهب السفن التي كانت لابن عباد في الساحل ، ويقال ان اليهودي قد اغضب المعتمد بقحته ورعونته حتى ان المعتمد التفت ـ الى محبرة كانت بين يده وضرب بها راس اليهودي فانزل دماغه في حلقه وامر به فصلب منكوسا في قرطبة » . وكذلك اصدر اوامره الى جنده بأن يقتلوا جميع النصارى الذين جاءوا في صحبة اليهودي وهكذا لم يبق من هذا الوفد الذي كان يبلغ اعضائه خمسمائة فارس الا ثلاثة فقط رجعوا الى سيدهم ليبلغوه ما حل باخوانهم (2) .

---

1) الحلل الموشية ص 23- 25.

2) الروض المعطار ص 84 وقد نقل عنه المقرى في نفح الطيب ج 2 ص 525 والناصري فى الاستقصا ج 1 ص 113. راجع ايضا ابن خلدون ج 4 ص158 الحلل الموشية ص 25. اعلام الاعلام ج 3 ص 180. ابن الاثير ج 10 ص 57.

ولم يكد الخبر يبلغ الاذفونش حتى اقسم بـآلهته لينتقمن مـن المعتمد شر انتقام، وقد بر الاذفونش بوعد، فجرد لقتال المعتمد جيشين جعل على احدهما بعض قواده وامره بأن يتجه نحو اشبيلية على طريق باجة ولبلة فخرب ودمر كـل مـا لقيه في طريقه من بلاد ابن عبـاد.

وصار الاذفونش نفسه على جيش آخر وتقدم به نحو اشبيلية ايضـا فى طريق غير تلك التي سلكها قائده وقد خرب ودمركل ما لقيه فى طريقه من بلاد ابن عباد، والتقى الجيشان في طريانة - على ضفة الوادي الكبير وقباله قصر المعتمد - بعد ان انزلا باراضي ابن عبادمن التدمير والتخريب ما لايستطيع احد وصفه، ومن هذا المكان بعث الاذفونش الى المعتمد رسالة كلها ازدرا' وتهكم يقول فيها. «كثر بطول مقامي فى مجلسي الذباب واشتد علي الحر فالقني من قصرك بمروحة اروح بها على نفسي واطرد بها الذباب عني».

فكتب له المعتمد على ظهر الرسالة بخطه. «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسانظر لك فى مرواح من الجلـود اللمطية فـي ايـدي الجيوش المرابطيه تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله»(1)

وبادر المعتمد فارسل الى يوسف بن تاشفين رسالة بخطه يستحثه فيها على العبور لنجدته جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، الى حضرة الامام امير المؤمنين ابي يعقوب يـوسف بن تاشفين، القائم بعظيم اكبارها، الشاكر لاجلالهـا، المعظـم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرمها المنقطع الى سمو مجدهـا، المستجيـر بالله وبطولها، محمد بن عباد. سلام كريم يخص الحضرة المعظمـة

---

1) الروض المعطار ص 85 وقد نقل عنه المقري في نفح الطيـب ج 2 ص 525 والناصري فى الاستقصـا ج 1 ص 132.

السامية ، ورحمة الله تعالى وبركاته . كتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية في غرة جمادى الاولى سنة تسع وسبعين واربعمائة وانه ايد الله امير المؤمنين ونصر به الدين ، فانا نحن العرب في هذا الاندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت انسابنا بقطع المادة عنا من صنيعتنا فصرنا فيها شعوبا لا قبائل، واشتاتا لا قرابة ولا عشائر، فقل نصرنا وكثر شامتنا وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين اذفنش، واناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه ، واسر المسلمين واخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن اهل هذه الاندلس ليس لاحد منا طاقة على نصرة جاره ولا اخيه ولو شاؤوا لفعلوا الا ان الهواء والماء منعهم على ذلك ، وقد ساءت الاحوال وانقطعت الآمال وانت ايدك الله سيد حمير ومليكها الاكبر واميرها وزعيمها ، نزعت بهمتي اليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز لجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الاسلام، وتدينون على دين محمد عليه الصلاة والسلام ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم والاجر العظيم والسلام . الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله تعالى وبركاته ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم » (1).

وقد اردف المعتمد هذه الرسالة برسالة اخرى من انشاء كاتبه ابي بكر بن الجد جاء فيها:

« الى الملك المؤيد بفضل الله امير المسلمين وناصر الدين وزعيم المرابطين ابي يعقوب يوسف بن تاشفين ، نور الله به الآفاق وجمل ببهائه الجيوش والرفاق ، من الملك المفضل بنعمة الله، المستجير برحمة الله المعتمد على الله ، محمد بن عباد سلام على حضرة تجدد ايمانها واشتهر امانها . وبعد : فأن الله سبحانه ايد دينه بالاتفاق والائتلاف وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف، وامن على عباده بأمن جديد، وقوم اولى بأس

1) الحلل الموشية ص 28.

شديد، وتطول علينا بمعلوم جدك، وقد جعلك رحمة تحيي عينها ربوع الشريعة ، وخلفك سلما الى الخير وذريعة، وقد طرأ على الاسلام حادث انسى كل هم ، وعمت النكبات بوقوعه، وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين واختلاف سببه(1) وقد جاءنا لنسلم له المنابر والصوامع والمحارب والجوامع ليقيم بها الصلبان ويستنيب بها الرهبان، ومما اطمعه استمالته ايانا بالدعوة واملاؤها في الرحب والسعة، الله استجير لما ابطنه واعجاما علينا وطنه ، وقد وطن الله لك ملكا شكره الله على جهدك وقيامك بحقه واجتهادك ، ولديك وليت الخير باعث يبعثك الى نصر مناره ، واقتباس انواره، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته، ويحضر الحرب بآلاته فأن شئت الدنيا فقطوف دانية وجنة عالية وعيون آنية ، وان اردت الاخرى بجهاد لا يفتر وجلاد يحين الغلاصم ويستر، هذه الجنة ذخر هده الحياة ذخرها الله لظلال سيوفكم واجمال معروفكم ، نستعين بالله وملائكته وبكم على الكافرين. كما قال سبحانه وهو اكرم القائلين «قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» . والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ، ونعمة الاسلام نشكرها ورحمة الله نتحدث بها وننشرها والسلام الموصل الجزيل على امير المسلمين وناصر الدين ورحمة الله» (2) .

وقد حمل اشراف اشبيلية هذه الرسالة الى يوسف بن تاشفين واخبروه بالحالة السيئة التي اصبحت فيها الاندلس ، ووصفوا له تكبر الاذفونش وكبرياءه ، وحينما علم يوسف بن تاشفين بما في الرسالة وعرف حالة الاندلس من الرسل، جمع رؤساء قومه وابلغهم ما جاء به الرسل

---

1) يوجد في الاصل (واختلاف سببه من لم تطروا له في الدعوات غير تقوى وتضعف وتتقى وتختلف ولتاخ مطمئنين من آفات الزمان وتتناسخ الامان وقد جاءنا اقرقه واوعاه ووعده وايعاده لنسلم له.. الخ) وهو كلام محرف كل التحريف عجزنا عن تقويمه ولذلك حذفناه.

2) الحلل الموشية 29 - 30.

واستشارهم فيما يجب عمله ، ولما كان هؤلاء لم يشاهدوا نصرانيا قط في حياتهم ولا اشتبكوا مع اجنبي في حرب، اشرأبت نفوسهم الى خوض غمار الحرب مع مسيحي اسبانيا وقالوا ليوسف بن تاشفين: « ايد الله امير المسلمين اما ما ذكرتم من استغاثة هذا الرجل بكم، فواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله اغاثة اخيه المسلم واحرى ان يكون جارنا وبيننا وبينه ساقية ماء، فلا ينبغي ان نتركه طعمة للعدو وهذا مماترونه، والامر لله ولامير المسلمين» .

ويقول ابن الخطيب (1) ان يوسف بن تاشفين - بعد هذا الحديث الذي دار بينه وبين عشيرته خلا بكاتبه عبد الرحمن بن اسبط الاندلسى يستطلع رايه في هذا الموضوع، فقال له ابن اسبط : « ان الامر لله تعالى ولكم، فقال له يوسف : ومع هذا فقل ما عندك ، فقال له: واجب على كل مسلم اغاثة اخيه المسلم والانتصار له ، غير ان لي كلاما انهيه اليكم ، فقال له: قل ما عندك يا عبد الرحمن ، فقال له: ايد الله الامير ، تعمرون الثمن وسبعة اثمان يعمرها لنصارى وهي ضيقة عرجة سجن لمن دخلها ، لا يخرج منها الا تحت حكم صاحبها، وان انت جزت اليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء ، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصله، (وتبقى اذا قضى الله الغرض من العدو وأمسك بها والحال كما ترونه) «كذا» والنظر اليكم فاكتبوا اليه فانه لا يمكنكم الجواز الا ان يعطيك الجزيرة الخضراء فتجعل فيها اثقالك واجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت فقال له صدقت ياعبد الرحمن ، لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب له بذلك فكتب له ما نصه:

---

1) الحلل الموشية 31 - 32.

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من امير المؤمنين وناصر الدين معين دعوة امير المومنين ابي الامير الاكرم بنصرة الله تعالى المعتمد على الله ابي القاسم محمد بن عباد ادام الله كرامته بتقواه ووفقه لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فانه وصلني خطابكم الكريم، فوقفنا على ما يتضمنه من استدعائنا لنصرتك، وماذكرته من كربتك وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك، وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى وانه لا يمكننا الجواز الا ان تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا، لكي يكون جوازنا اليك على ايدينا متى شئنا، فان رأيت ذلك فاشهد على نفسك وابعث لنا بعقودها ونحن في أثر خطابك ان شاء الله(1) .

وعندما رجع رسل ملك اشبيلية الى الاندلس واخبروا ملكهم بالنتائج قلق مستشارو الملك لهذا الطلب وقال الامير عبيد الله الرشيد بن المعتمد: يا أبت الا تنظر الى ما طلب؟! فقال له: يا ابني قليل في نصرة المسلمين ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء وطلب منهم ان يكتبوا عقدا يضمن الجزيرة الخضراء ملكا خالصا ليوسف بن تاشفين وكذلك بعث المعتمد الى ابنه يزيد الراضي والى الجزيرة يأمره بتسلمها الى المرابطين.

ولكي يظهر المعتمد شخصيته ـ دون بقية ملوك لاندلس ـ الى يوسف بن تاشفين فانه عبر الى بلاد العدوة واجتمع مع يوسف بمكان يسمى «بليطة» (2) قريبا من مدينة طنجة حيث قابله يوسف بترحاب واكرام

---

1) الحلل الموشيه 31 - 34.

2) هذه روايه ابن ابي زرع في الانيس المطرب ص 93 وقد نقلها عنه الناصري في الاستقصا ج 1 ص 111. ويذهب ابن خلدون ج 6 ص 176 الى ان المعتمد اجتمع بيوسف في مدينة فاس . ونحن لا نرى هذا الرأي اذ لا يعقل ان يترك المعتمد بلاده في احرج الاوقات ويخترق المغرب من شماله الى جنوبه ليجتمع بيوسف بن تاشفين.

واستطاع المعتمد في هذه الرحلة ان يقص على يوسف ما يلاقيه المسلمون بالاندلس من الويلات على ايدي اعدائهم في الدين فقال له يوسف: ارجع الى بلادك وسألحق بك عن قريب .

ولا يبعد ان يكون المعتمد قد اسرع الى افريقية حتى يكون اول ملوك الاندلس الذين يقابلون ابن تاشفين حتى تكون لديه اكبر الحظوة ولا يبعد كذلك ان يكون المعتمد قد فاتح ابن تاشفين في ان يكون نائبا له عن جميع الاندلس بعد فتحها، وتعليقا على ذلك يقول يوسف اشباخ (1) : ان المعتمد «عاد الى اشبيلية مستاءً لخيبة المسعى الذي قصد وهو ان يحمل يوسف على ان يختاره نائبا من قبله لاسبانيا المسلحة».

وفي شهر ربيع الاول من سنة 479 ﻫ (اغسطس سنة 1806م) بدأت جيوش المرابطين تعبر المضيق الى الاندلس فعبرت الابل اولا، وكان منظرها رهيبا في اعين الاندلسيين اذ لم يكن لهم عهد بالابل من قبل فارتفع رغاؤها الى عنان السماء وصارت خيل الاندلس تجمح من منظرها ورغائها (2) .

وتوالى عبور الجيش تباعا الى الجزيرة وكان آخر من عبر من فرق جيش المرابطين يوسف بن تاشفين في فرقة عظيمة من قواد المرابطين واشرافهم، ويقال: ان يوسف لم يكد يستقل الشراع حتى اخذ يتوسل الى الله بهذا الدعاء « اللهم ان كنت تعلم فى جوازي هذا خيرا وصلاحا للمسلمين فسهل علي عبور هذا البحر وان كان غير ذلك فصعبه علي حتى لا اجوزه» (3).

ووجد يوسف في انتظاره على شاطئ الجزيرة الخضراء حشدا

---

1) ج 1 ص 80.

2) نفح الطيب ج 2 ص 527. وفيات الاعيان ج 2 ص 366.

3) الانيس المطرب ص 93. الاستقصا ج 1 ص 111.

كبيرا من العلماء والامراء والقواد والاشراف وعلى راسهم ابو خالد يزيد الراضي بن المعتمد حاكم الجزيرة فاستقبلوا يوسف استقبالا حماسيا وقد قضى يوسف في الجزيرة الخضراء ثمانية ايام قام خلالها بتحصينها وشحنها بالاطعمة ونظم فيها كتيبة من الفرسان الاقوياء ليحفظوا خط الرجعة اذا وقع ما لاتحمد عقباه، وبعد ذلك تحرك يوسف نحو اشبيلية حيث وجد المعتمد بن عباد في استقباله(1) ومعه اشراف المدينة وقوادها وفقهاؤها ويقال ان المعتمدعندما هلت طلعةيوسف وترجل عن جواده وهم بتقبيل يد يوسف بن تاشفين الذي اسرع بمعانقته ، وكان المعتمد قد استعد بتهيئ المؤن المطلوبة للمرابطين الذين جاؤوا لمساعدته ، ولم ينس المعتمد في هذه المناسبة ان يقدم ليوسف وكبار قواده من الهدايا الفاخرة والتحف النادرة ما لم يظنه يوسف عند المعتمد .

وفي الايام التي قضاها يوسف باشبيلية بعث الى ملوك الاندلس يطلب منهم ان يجتمعوا بمحلته، فلبى طلبه عبد الله بن بلقين ملك غرناطة، واخوه تميم صاحب مالقة، اما المعتصم بن صمادح صاحب المرية فقد اعتذر عن عدم الحضور بان بلاده مهددة من العدو الذي كان يحاصر حصن «لبيط» من اعمال لورقة (2) .

وبعد ثمانية ايام قضاها يوسف في ترتيب جنده باشبيلية تحرك قاصدا نحو طرطوشة ـ وكانت في هذا الوقت محاصرة من ابن رذمير احد قواد الاذفونش ـوكان المتوكل بن الافطس قدبعث اخاه المستنصر

---

1) هذه هي رواية الحلل الموشية ص 34. والروض المعطار ص 37. وقد نقل عنه المقري في نفح الطيب ج 2 - ص 527 وابن الاثير ج 10 ص 62 والاستقصا ج 1 ص 114 - 115. ويرى ابن ابي زرع ص 93 وابن خلدون ج 6 ص 186 والمراكشي ص 81. ان المعتمد استقبل يوسف في الجزيرة الخضراء.

2) الحلل الموشية ص 34.

ليهيء للجيوش ما تحتاجه من المؤن . والذخيرة على طول الطريق الذي ستمر به، وقد تحرك جيش المسلمين في ثلاث وحدات: الوحدة الاولى من فرسان المرابطين، والوحدة الثانية من اهل الاندلس وكانت تضم المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، ثم ملك غرناطة عبد الله بن بلقين وابن مسلمة مالك سرقسطة، ويحيى بن ذي النون ملك بلنسية، وملك الغرب عمر بن الافطس، وسار من بعد هؤلاء يوسف بن تاشفين على رأس الوحدة الثالثة وكانت تضم اشراف المرابطين وذوي النفوذ فيهم، وقد قرر يوسف بن تاشفين ان تكون جميع جيوش الاندلس تحت قيادة المعتمد بن عباد، بينما تكون جيوش المرابطين تحت قيادة مستقلة، وكانت خطة السير التي رسمها يوسف تقضي بانه كلما رحل ابن عباد من موضع نزله ابن تاشفين وهكذا.

وكان يوسف بن تاشفين قد قرر ان يمر في طريقه على حصن لبيط وهو الحصن الذي كانت تحاصره قوة من جيش المسيحيين غير انهم لما بلغهم مجيء المرابطين نزحوا عنه وانضموا الى الجيش الرئيسي الذي كان يجمعه الاذفونش لملاقاة جيوش المسلمين، وعلى ذلك فقد غير يوسف خطته وعرج على مرسية ليصلح بين المعتمد وبين عبد الرحمن بن رشيق الذي كان قد انتزع مرسية من ابن عمار، واستطاع يوسف ان يصلح بين الفريقين على ان يتنازل ابن رشيق عن مرسية للمعتمد في مقابل مبلغ من المال يدفعه المعتمد لابن رشيق ويوليه على احد المقاطعات التابعة لاشبيلية (1). ثم عرج يوسف على حصن لورقة حيث اجريت فيه عملية العرض للجيش الاسلامي، فأعجب يوسف بن تاشفين بكثرة عدد جيشه وحسن نظامه، وبعد ان انتهت عملية العرض استأنف الجيش سيره الى ان نزل بمدينة طرطوشة، ولعل

---

1) المعجب ص 82 .

القوة التي كانت تحاصر هذه المدينة قد رحلت عنها عند ما سمعت بقدوم المرابطين لفك حصارها.

ومن طرطوشة بعث يوسف بن تاشفين الى الاذفونش بكتاب يدعوه فيه الى الاسلام او الجزية او الحرب، وقد جاء في هذا الكتاب: « وقد بلغنا يا اذفونش انك دعوت الى الاجتماع بك، وتمنيت ان تكون لك فلك تعبر البحر عليها الينا، فقد اجزناه اليك، وجمع الله في هذه الفرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة ادعائك، وما دعاء الكافرين الا في ضلال» (1). ولم يكد اذفونش يطلع على رسالة ابن تاشفين حتى بلغ به الغضب مبلغه، وامر احد ادباء الاندلس ان يجيب يوسف على هذه الرسالة ويغلظ له فيها القول ويصف ما عنده من العدد والعدة ولكن يوسف بن تاشفين لم يعبأ بما تحتوي عليه ، وامر ابا بكر بن القصيرة فكتب كتابا بليغا، الا ان يوسف لما قرأه وجده مطولا فأخذ كتاب الاذفونش وكتب على ظهره: «الذي سيكون ستراه» (2).

بدأ الاذفونش يستعد للمعركة الفاصلة بينه وبين المسلمين فتحالف مع شانشو راميريز (ابن رذمير) ملك ارجون وصاحب بنبلونة، والكونت برنجار ريموند فاتحدت قوتهما مع قوة الاذفونش الذي كان قد جمع جيشا رهيبا من جليقية وليون وبشكونس واشتريش وقشتالة كما جلب جيوشا اخرى من جنوبي فرنسا، جاءت تسعى وراء السلب والنهب (3). وهكذا اجتمع للاذفونش جيش جرار بلغ تعداده في رواية

---

1) الانيس المطرب ص 94 . الحلل الموشية ص 35. وفيات الاعيان ج 2 ص367. الروض المعطار ص 90. نفح الطيب ج 2 ص 527. الاستقصا ج 1 ص 114.

2) ابن الاثير ج 10 ص 62.

3) يوشف اشباخ ج 1 ص 84.

المعتدلين من مؤرخي الاسلام اربعين الفا او خمسين الفا (1). وقد ارتفع به المبالغون الى ارقام خيالية، اذ بينما يقدره بعضهم بثمانين الفا، منهم اربعون الفا لابسوا الدروع الحديدية، ويقدره البعض الآخر بثمانين الف فارس ومائتي الف رجل (2). وعلى كل حال فان جيش المسيحيين كان يربو بكثير على جيش المسلمين الذي يقدره بعضهم بثمانية واربعين الفا. نصفهم من الاندلسيين ونصف آخر من المرابطين(3). بل ان هناك رواية اخرى تقول ان المسلمين كانوا عشرين الفا فقط(4).

اجتمعت هذه الجيوش كلها في سهل الزلاقة على بعد ثلاثة اميال من بطليوس، وكان نهر بطليوس يفصل بين المعسكرين، كما كان جيش الاندلسيين بقيادة المعتمد على ربوة وراء الوادي امام النصارى ليكون خط دفاع اول (5). وكان بعض الذين يشكون في نوايا المعتمد قد قالوا ليوسف بن تاشفين: «ان ابن عباد ربما لم ينصح، ولا يبذل نفسه دونك» فأرسل اليه امير المسلمين يأمره ان يكون في المقدمة ففعل ذلك وسار » (6) وكانت جموع المسيحيين تلقي الرعب والفزع في قلوب اعدائهم المسلمين، ولكن ذلك لم يفقد المسلمين ثقتهم في النصر، وطفق الفريقان يستعدان للموقعة الفاصلة، فقام الاساقفة والرهبان ونشروا اناجيلهم وخرجوا يتبايعون على الموت» وكذلك قام يوسف والمعتمد في جيش المسلمين ينظمان صفوفه، كما قام الفقهاء والعباد

---

1) الرواية الاولى عن المقري في نفح الطيب ج 2 ص 528. والرواية الثانية عن ابن الاثير ج 10 ص 63.

2) الانيس المطرب ص 90- 97.

3) الحلل الموشية ص 38.

4) المعجب ص 86.

5) الانيس المطرب ص 94.

6) ابن الاثير ج 10 ص 63.

يعظون الناس ويحضونهم على الصبر ويحذرونهم الفرار» (1).

وقد جرت عدة مراسلات بين ابن تاشقين والاذفونش لتحديد يوم اللقاء، واخيرا رأى الاذفونش - حسب خطة ذميمة - ان يأخذ المسلمين على غرة، فكتب الى يوسف يقول: «الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزرائنا وكتابنا واكثر خدم العسكر منهم فلا غنى لنا عنهم والاحد لنا، فاذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف» (2).

ولما كان المعتمد قد سبر غور الاذفونس من قبل وعرف حيله فانه انذر يوسف بان يكون على اهبة للقتال في اي وقت والا ينخدع بعهود الاذفونش، واستعد المعتمد من ناحيته فبث عيونه ليراقبوا حركة العدو، وركب هو فرسه وظل طول الليل يجوس خلال معسكر المسلمين.

وعند طلوع فجر 12 رجب من سنة 479 هـ (23 اكتوبر سنة 1086 م)، وبينما كان المعتمد في آخر ركعة من صلاة الصبح ارتدت اليه طلائعه مسرعة تنبئه ان جيش العدو قد تحرك وانه يقترب من معسكر المسلمين، فبادر المعتمد وارسل الى يوسف يطلب منه النجدة قبل ان تسحقه قوات الاعداء. ويقول دوزي (3) ان يوسف «كان قد

---

1) الروض المعطار ص 60. نفح الطيب ج 2 ص 529 الاستقصا ج 1 ص 115 المعجب ص 83.

2) تضاربت اقوال المؤرخين فى تحديد يوم الزلاقة فابن خلدون ج 6 ص 186. يرى انها كانت سنة 481 هـ . بينما يرى المراكشي ص 72 انها كانت في 13 رمضان سنة 480 هـ. ويقول ابن خلكان ج 2 ص 84 4انها كانت يوم الجمعة 15 رجب سنة 479 هـ . اما ابن الاثير فيقول انها كانت في اوائل رمضان من سنة 479 هـ . غير ان ابن ابي زرع ص 96 وابن الخطيب فى الحلل الموشية ص 40 - 41 وابن عبد المنعم الحميري فى الروض المعطار ص 83 كلهم اتفقوا على انها كانت في 12 رجب سنة 479 هـ . وهو التاريخ الذي تحدده الروايات الافرنجية للموقعة ، وسياق القصه يدل على ان الموقعة حدثت يوم الجمعة وهو يوم راحة للمسلمين . وقد رجعنا الى تقويم ادوارد ماهار فاتضح ان يوم 12 رجب سنة 479 هـ . كان يوم جمعة فعلا ،

3) ملوك الطوائف ص 302 .

وضع خطة لا يستطيع التحول عنها، فلم يبادر الى تلبية طلبه وكان قليل الاهتمام بما يصيب الاندلسيين، وقد صاح لهذه المناسبة قائلا: وما ذا يهمني اذا كان نصيب هؤلاء جميعا الهلاك؟ انهم جميعا اعداء»،

هذا ما يقوله دوزي ولكن الرواية الموثوق بها تذهب الى ان يوسف ابن تاشفين انجد المعتمد في الحال وارسل اليه مددا من المرابطين بقيادة داود بن عائشة (1)،

ومن حسن حظ المعتمد انه كان قد اعد اهبته للقتال فكان على رأس كتيبة في قلب المقدمة، وكان المتوكل بن الافطس في الميمنة، واهل الشرق في الميسرة، وبقية اهل الاندلس في الساقة، اما جيش المرابطين الذي كان متربصا على ربوة وراء الوادي مختفيا عن انظار المسيحيين،فقد ارسل بعضه مددا للمعتمد والبعض الآخر بقي مع يوسف بن تاشفين ينتظر الوقت المناسب للهجوم (2)

اما الاذفونش فقد قسم جيشه الى قسمين : قسم عليه الكونت جارسيا والكونت ردريك ، والقسم الثاني احتفظ بقيادته لنفسه (3) .

وهجم القسم الاول من جيش المسيحيين على الجيش الاندلسي فاستحر القتال بين الفريقين واستبسل الاندلسيون في الدفاع رغما عن الخسارة التي اصيبوا بها في الارواح، وابلى المعتمد في هذه الموقعة بلاء حسنا، حيث اصيب بعدة «جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغيه وجرحت يمنى يديه وطعن في احد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة افراس كلما هلك واحد قدم له الآخر» . ووصل الضغط على الجيش الاندلسي لدرجة ان عمد بعضهم

---

1) الانيس المطرب ص 94 - 95 . الروض المعطار ص 91 - 92 .

2) الانيس المطرب ص 95 . الحلل الموشية ص 41 .

3) الانيس المطرب ص 95 وهو يسمى القائدين اللذين اسندا اليهما الاذفونش القيادة بالبرهانس وابن رذمير . راجع ايضا يوسف اشباخ ج 1 ص 87 .

الى الفرار، وكان من بين الفارين عبيد الله الرشيد بن المعتمد (1) .

وفي اثناء هذه المحنه التي كان يجتازها المعتمد تذكر ابنه زيد الدولة المعلى ابا هاشم وكانه قد تركه مريضا بأشبيلية ففاضت شجية المعتمد لذكراه وقال :

ابا هاشم هشمتني الشفار ولله صبري لذاك الاوار
ذكرت شخصيك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

وصمد المعتمد لمقاومة العدو حتى جاء لنجدته داود بن عائشة على رأس قوة من المرابطين ، واستطاع هذا الجيش بفضل رماة السهام الذين كان يعتمد عليهم ان يرد المهاجمين الى خط دفاعهم الثاني ، وبعدقتال عنيف من الطرفين افترق الجيشان وذهب كل الى محلته ليعيد تنظيم جيشه (2) .

وفي هذه الاثناء عهد الاذفونش بقيادة جناحي جيشه الى شانشو راميريزوالكونت برينجار ريموند، وتولىهو بنفسه قيادة القلب، ثمزحف مرة اخرى على جيش المسلمين ، واقترن هذا الهجوم بصياح الرجال وقرع الطبول، ونزل هذا الجيش الرهيب على معسكر المسلمين نزول الصاعقة ، وسرعان ما شعر الجيش الاندلسي والمرابطي بثقل الوطأه عليهم على السواء . فلجأت اغلبية الجيش الى الفرار وتقهقرت الى بطليوس، ولم يبق في الميدان الا فرسان اشبيلية مع قائدهم ابن عباد (3) .

ووصلت الاخبار الى يوسف بن تاشفين بالهزيمة الساحقة التي لحقت المعتمد وداود بن عائشة، وكان يوسف معسكرا وراء ربوة عالية تحجبه عن اعين المسلمين، فارسل في الحال لنجدة المعتمد وابن

1) الروض المعطار ص 91 - 92 وقد نقل عنه المقري في نفح الطيب 2 ص 529 راجع ايضا الانيس المطرب ص 95 والحلل الموشية ص 41 .
2) كوندي ج 2 ص 272.
3) الانيس المطرب ص 95. كوندي ج 2 ص 272 - 273. يوسف اشباخ ج 2 ص87.

عـائشه، سير ابن ابي بكر في قبائل البربر من زناتة والمصامدة وغماره وغيرهم، وبقي هو على رأس حرسه المكون من قبائل لمتونة لينفذ الخطة البارعة التي رسمها لنفسه .

وقد تعجب الاذفونش حين رأى الجيش الاسلامي يقاتـل متقهقـرا رغمـا عن الامدادات التي عزز بها ، وبينما هو يطارد اعدائه اذ به يسمع دق الطبول مختلطا بصياح الرجال ينبعث من مؤخرة معسكره، فالتفت ليرى جلية الامر فاذا بيوسف بن تاشفين قد احتوى على معسكره وفتك بمعظم حراسه واضرم النار في خيامه، ولم يكد الجيش القشتالي يعلـم بالكارثة التي نزلت بـه حتـى ترك القتـال وانقلب الى معسكره لينقذ ما يمكن انقاذه فتلاحم الجيش بفظاعة لم تعرف من قبل، وصار يوسف يطوف بين جيوش المسلمين على فرس انثى يحضهم علي القتال ويقول ما معناه:) « يامعشر المسلمين اصبروا لجهاد اعداء الله الكافريـن ومـن رزق منكم الشهادة فله الجنة ومـن سلم فقد فاز بالصبر العظيم والغنيمة وكان المعتمد ومن معه من المرابطين ما يزالون يقاتلون قتال المستميتين وليس لهم علم بما وقع في معسكر العدو فلمـا رأوا الجيش القشتالـي يولي الادبار منهزما ظنوا انهم هم الذين اوقعوا بـه تلك الهزيمـة فاخذ المعتمد يخطب جيشه على تتبع الفارين ويقول : «شدوا على اعداء الله» . وفي الوقت نفسه رجعت فلول جيش الاندلسيين المنهزمة لتخوض المعركة من جديد ، واستمر القتال بين الفريقين وقاتل المسلمون بحمـاس فائـق حتى ان يوسف بن تاشفين قتلت تحته ثلاثة افراس (1) . ودام القتال عدة ساعات واخيرا بدات كفة المسلمين في الرجحان، واصيب الاذفونش بطعنة في فخذه مـن بعض العبيد، في الوقت الذي كانت فيه اغلبيـة

---

1) من عجيب المصادفات ان المؤرخين يقررون ان يوسف قد قتـل تحته في هذه الموقعة ثلاثة افراس. وقد قرروا مثل ذلك في الحديث عن المعتمد في نفس الموقعة،

جيشه قد سحقت في المعركة وعند ذلك لم يجد الاذفونش وجيشه بدا من الفرار فتعقبتهم جيوش المسلمين تحصدهم حصاد الهشيم، واستطاع الاذفونش ان يلجأ الى ربوة قريبة تحصن بها. وهكذا نجا الاذفونش مثخنا بجراحه في نحو خمسمائة فارس مات منهم نحو اربعمائة متاثرين بجراحهم، ويقال ان الاذفونش دخل الي طليطلة بعد هذه المعركة في مائة فارس وهم البقية الباقية من جيشه الرهيب (1).

بذلك انتهت هذه الموقعة التي تعتبر من المواقع الحاسمة في تاريخ الاسلام، فيها اعيدت للاسلام هيبته وكرامته في الاندلس وبها قدرت لحضارة الاسلام فى هذه الديار ان تزدهر مرة اخرى بعد ان كانت قد اوشكت على الغروب بفتوحات الاذفونش وآبائه من قبل.

وكان يوم النصر العظيم هو يوم الاحد 14 رجب سنة 479 هـ، (24 اكتوبر سنة 1086م). وتعرف هذه الموقعة عند المسلمين بالزلاقة نسبة الى المكان الذي وقعت فيه، اما المسيحيون فانهم يسمونها باسمين مختلفين. فالموقعة التي خاضها جيش الاندلسيين وابن عائشة ضد المسيحيين يسمونها «رودا» اما الموقعة التي اشترك فيها الجيش الاندلسي والمرابطي على السواء وانتهت بهزيمة الاذفونش الساحقة فانهم يسمونها « ساكر الياس» (2).

ويعلق يوسف اشباخ (3) على هذه الموقعة بقوله: «ويبدو من الايجاز الذي يلتزمه الرواة النصارى ازاء هذا النصر العظيم للاسلام على

---

1 » الروض المعطار ص 92 - 93. وقد نقل عنه المقري في نفح الطيب ج 2 ص 530 - 531. والاستقصاء ج 1 ص 117. راجع ايضا الانيس المطرب ص 95 - 96. الحلل الموشية ص 42 - 43. رقم الحلل ص 18 - 19. المعجب ص 84. ابن الاثير ج 10 ص 63.

2) يوسف اشباخ ج 1 ص 90.

3) يوسف اشباخ ج 1 ص 90.

النصرانية في شبه الجزيرةمرة اخرى كيف يتناول المنهزمون سير هزائمهم في عضاضة واحجام، وهذا الايجاز والغموض اللذان احاطا برواية النصرانية هو السبب في كونها قد جعلت من الموقعة الواحدة موقعتين مختلفتين تبعا للزمان والمكان».

اما المؤرخون المسلمون فقد شادوا بذكر هذه الموقعة واطنبوا وبالغوا في أمرها ما شاء لهم الاطناب والمبالغة حتى ان بعضهم يقول ان عدد من قتل من النصارى بلغ ثلاثمائة الف فارس (1) وبلغ من كثرة القتلى ان عمد المسلمون الى جمع رؤوسهم فتجمع لهم منها اكوام كالجبال فكانوا يؤذنون عليها الى ان جيفت فاحرقوها (2).

وكذلك يذكر لنا ابن ابي زرع (3) «ان امير المسلمين يوسف امر بقطع رؤوس القتلى من الروم فقطعت وجمعت بين يديه كامثال الجبال وبعث منها الى اشبيلية عشرة آلاف راس والى قرطبة كذلك، والى بلنسية مثلها والى سرقسطة ومرسية مثلها، وبعث الى بلاد العدوة اربعين الف رأس فقسمت على مدن العدوة ليراها الناس فيشكرون الله على ما منحهم من النصر والخير العظيم».

اما عدد القتلى من المسلمين فلابد ان يكون كثيرا رغما عن ان مؤرخي الاسلام يقللون من قيمته حتى ان احدا منهم لم يتحدث لنا عن عدد القتلى من المسلمين ما عدا ابن ابي زرع (4) الذي يذكر لنا ان عدد من استشهد من المسلمين يبلغ نحو الثلاثة آلاف رجل.

وبعد الموقعة كتب يوسف بن تاشفين الى ابنه تميم المعز

1) الانيس المطرب ص 96.
2) ابن الاثير ج 10 ص 93
3) الانيس المطرب ص 96.
4) الانيس المطرب ص 96.

ببلاد العدوة يخبره بما احرزه المسلمون من نصر مبين، وجاء في هذا الكتاب: «اما بعد حمد الله المتكفل بنصر دينه الذي ارتضاه والصلاة على سيدنا محمد افضل رسله واكرم خلقه واسراه، فان العدو الطاغية لعنه الله لما قربنا من حماه وتوافقنا باذائه، بلغنا الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين الخامس عشر لرجب، وقال الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير والاحد عيدنا فافترقنا على ذلك واضمر اللعين خلاف ما شرطناه، وعلمنا انهم اهل خداع ونقض عهود، فاخذنا اهبتنا الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا الينا احوالهم، فاتتنا الانباء في سحر يوم الجمعة الثاني عشر من رجب المذكور ان العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى انه قد اغتنم فرصة في ذلك الحين، فنبذت اليه ابطال المسلمين وفرسان المجاهدين فتفشته قبل ان يتفشاها، وتعدته قبل ان يتعداها وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الاسد على فريسته وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة في سائر المشهدة المنشرة، ونظروا الى جيوش لمتونة نحو الفنس، فلما ابصر النصارى رايتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا الى مراكبنا المنتظمة المظفرة واغشتهم بروق الصفاح، واظلتهم سحائب الرماح، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم الفنش وحملوا على المسلمين حملة منكرة، فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة، وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبتهم السيوف والرماح، بالطعن والضرب وطاحت بالمهج، واقبل سيل الدماء في هرج، ونزل من سماء الله على اوليائه النصر العزيز والفرج، وولى الفنش في خمسمائة فارس ومائتي الف رجل، قادهم الله الى المصارع والحتف العاجل، وتخلص لعنه الله الى جبل هنالك، ونظروا

النهب والنيران فى محلته من كل جانب ، وهو من اعلى الجبل ينظرها شزرا، ويحيد عنها صبرا ولا يستطيع عنها دفعا ولا لها نصرا، فاخذيدعوا بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وامير المسلمين بحمد الله قد ثبت فى وسط مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنشرة، منصور الجهاد، مرفوع العماد، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السوأل والمراد، فقد سرح الغارات فى محلاتهم تهدم بناءها وتصطلم ذخائرها واسبابها وتريه رأي العين دمارها ونهبها، والفنش ينظر اليها نظرة المغشي عليه ويعض غيظا واسفا على انامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الاندلس المنهزمين نحو بطليوس والغار، فتراجعوا حذرامن العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد ابو القاسم المعتمد بن عباد، فأتى الى امير المسلمين وهو مهيض الجناح، مريض عنة وجراح، فهناه بالفتح الجليل والصنع الجميل، وتسلل الفنس تحت الظلام فارا لا يهدأ ولا ينام، ومات من الخمس مائة فارس الذين كانوا معه بالطريق اربعمائة فلم يدخل طليطلة الا في مائة فارس، والحمد لله على ذلك كثيرا وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسمية يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة 479 ه موافق لشهر اكتوبر العجمي» (1).

ولم تكد تقرأ هذه الرسالة فى مساجد المملكة حتى عم الفرح البلاد كلها واقيمت صلاة الشكر في جميع انحاء البلاد شكرا لله على هذا كما وزعت الصدقات على المساكين واعتقت الرقاب .

اما في الاندلس فان المعتمد بمجرد فراغه من المعركة تناول قرطاسا صغيرا وكتب الى ابنه الرشيد باشبيلية يخبره بالفتح وقد جاء في هذا الكتاب «كتابي هذا من المحلة يوم الجمعة الموفق عشرين من

1) الانيس المطرب ص 96 97.

رجب، وقد اعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين واذاق المشركين العذاب الاليم، والخطب الجسيم، فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه الهزيمة العظيمة والمسرة الكبيرة: هزيمة الفونش اصلاه الله نكال الجحيم، ولا اعدمه الوبال العظيم بعد اتيان النهب على محلاته، واستئصال القتل في جميع ابطاله واجناده، وحماته وقواده حتى اتخذ المسلمين من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها فلله الحمد على جميل صنعه ولم يصبني بحمد الله تعالى الاجراحات يسيرة ألمت، لكنها قرحت بعد ذلك، وغنمت وظفرت» (1).

وحملت هذه البشرى حمامة كان قد جلبها المعتمد لهذا الغرض فوصلت الرسالة من يومها، وقرئت البشرى على الناس في المساجد، فعم الفرح البلاد واقيمت صلوات الشكر لله، وابتهج الاشبيليون بان اضاؤا مدينتهم الجميلة بالانوار جريا على عادتهم في هذه الاحوال.

ثم بعد ذلك كتب المعتمد كتابا مفصلا الى اشبيلية من انشاء ابن عبد البر جاء فيه: «لما كان يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسعة وسبعين واربعمائة سن الله امرا يسر اسبابه، وفتح لنا الى الفرج والفتوح بابه، وعطف علينا القبائل للثواب الغافر للذنب واتقينا مع الطاغية الباغية الذي اجاب الموت داعيه، واخزى التوفيق مساعيه، بعد غدر ابداه وجرى فيه مداه، وكان تواعدنا معه لنلتقي في سواه، فاتى وانقض يجر ذيل فخاره، والغيب يشهد عليه بما اراده، والقدر يعلمنا

---

1) هده الرسالة اوردها صاحب الروض المعطار ص 94 ونقلها عنه المقري في نفح الطيب ج 2 ص 531.وقد اورد ابن الخطيب في الحلل الموشية ص 44 رسالة مقتبضة بعثها المعتمد الى ابنه جاء فيها: «اعلم انه التقت جموع المسلمين بالطاغية اذفونش اللعين، ففتح الله للمسلمين، وهزم على ايديهم المشركين، والحمد لله رب العالمين أعلم بذلك من قبلك من اخواننا المسلمين والسلام». ولا يستبعد في نظرنا ان يكون المعتمد قد ارسل رسالتين .

انه طعمة من نواه فاستشعرنا انه ابتدأ بالغدر الذي يرديه، وتعجل سلوك طريق لا تهديه، وتحققنا انها مقدمة فتح سبقت، ونواميس سعد عبقت والنصر لا تخفى دلائله، واليمن لا تستره غلائله، ففرح اخواننا المسلمين بالاتصاف وتصافحوا بالاعتراف، والانصاف، وجرت البسائط ذيول الشرورد، وشكت الشفار فعل المقيل، ولما احلولك ليل الحرب وأغطش وغار ماء تبليجها فأغطش، طلع فجر السعادة فأنجج، واذا من كتب السلامة اصبح الصبح، وعن قريب طلعت شمسها تشرق، وتهلك الكافرين وتحرق، ليس دونها حجاب يستر شعاعها ويحجب لماعها ولما تسامت الرؤوس واحدق الرئيس المرؤوس، ظللنا نترك العمائم وكأنها من اعجب الاحلام نائم، ولما صمد المؤذنون اكواما متنها ابد الابد من هاماتهم وحصدتها بواتر قضتها بلا ماتهم، اعلنوا بكلمة الاخلاص فوق آذان وعت ما كنت عنه صمت او دمعت، ازلت القدم على ماكانت به همت، وقرت العين وانشرحت الصدور واشرقت الارض كلها بهذا النور، وهذا وفقكم الله فتح الفتوح اذار بين يدي نجواه بنصر يعجز فيه الحصر، وقد كان اول اللقاء جولة على المسلمين تفضل الله فيها بالشهادة لمن اهتم بأمانيها، ثم انزل سكينته فخطبت نصال المسلمين رقاب الكافرين واذكتها ابكارا صداقها حجال المغافر، وحجبتها ستور الطوارق عن عيون المواتر، ولا مهر الا ما نووه من كرم نفوس جرت متطوعة، ومشت الى الخيرات مستمعة، فنفلهم انفالهم، ووعدهم النصر فأوفى لهم، فتلقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر كما تلقينا وقولو الحمد لله رب العالمين على نعم اصبحنا فيها وامسينا، والله يوصلها بالتأييد، ويشفعها بالتوفيق والتسديد والسلام» (1)

وقد استقبل المعتمد في اشبيلية استقبال الفاتحين ووفد على قصره

---

1) الحلل الموشية ص 45.

المهنئون وتسابق الشعراء في القاء القصائد المناسبة امامه، ويذكر لناعبد الجليل بن وهبون احد شعراء المعتمد اذا يقول: «حضرت ذلك اليوم واعددت قصيدة انشده اياها ، فقرأ القارئ: «الا تنصروه فقد نصره الله فقلت ، بعداً لي ولشعري! والله ما ابقت لي هذه الآية معنى احضره اليه واقوم به » (1).

لو ان المسلمين عرفوا كيف يستفيدون من هذا النصر وتابعوا سيرهم - كما فعل موسى وطارق من قبل مع لذريق - لما وقفت فتوحاتهم الا عند جبال البرانس ولكن حدث غير ذلك ، اذ بينما كان المسلمون مشتغلون بتوزيع الاسلاب والغنائم التي لا تحصى، من سيوف مطعمة بالفضة ورماح غالية الثمن ، واحزمة نادرة وثياب فاخرة، جاءت الانباء الى يوسف بن تاشفين تنعي اليه ابنه ابا بكر سير الذى تركه خليفة له على مراكش، فأثرت هذه الانباء عليه وتركت في نفسيته حزنا عميقا مما جعله يقرر العودة في الحال الى بلاد العدوة .

ولقد حاول الجيش الذي تركه يوسف بقيادة سير بن ابي بكر ان يكسب نصرا جديدا فتقدم - بمعاونة المتوكل بن الافطس - الى حدود قشتالة وتوغل في بلاد البرتغال الحالية مما يلي نهر «تاجة» وأثخن في تلك الانحاء تخريبا وتدميرا (2) .

اما المعتمد بن عباد فقد حاول ان يكسب نصرا جديدا ولذلك تقدم على رأس جيشه واغار على ولاية طليطلة على حصون «اقليش» (3).

---

1) الروض المعطار ص 94.

2) نفح ج 2 ص 532. وفيات الاعيان ج 2 ص 369. كوندي ج 2 ص 285. يوسف اشباخ ج 1 ص 93.

3) اقليش مدينة بالاندلس كانت قاعدة لكورة شنتبرية وبينها وبين وبدة ثمانية اميال. راجع الادريسي ص 195. الروض المعطار ص 28 ،

و «قونقة» (1) و«وبذة» (2) وغيرهما، وكانت هذه الحصون قد استولى عليها الاذفونش بسبب ميثاق الصداقة الذي كان بينه وبين المعتمد وتابع المعتمد سيره المظفر الى مرسية حيث كانت جموع المسيحيين تحت قيادة السيد الكمبطور (الكمبيادور) (3) تغير على المدن الاسلامية في تلك النواحي حتى انها اضطرت المعتصم بن صمادح الا يقدم المعونة للمرابطين في موقعة الزلاقة حيث احتفظ بقواته ليدفع بها شر المسيحيين عن نواحي مرسية (4).

وقد اغتر المعتمد بالنصر الاخير الذي اكتسبه بفضل المرابطين في موقعة الزلاقة، فاشتبك مع السيد الكمبطور في موقعة خاسرة هزم فيها ولم ينقذه الا صديقه ابو بكر بن لبون صاحب لورقة الذي فتح له ابواب مدينته حيث استطاع ان يفر منها الى قرطبة (5)

وكان الاذفونش في هذه الاثناء قد جمع جيشا جرارا انضم اليه الفرنسيون والرمانيون الذين دفعت بهم روح الفروسية - التي كانت سائدة في عهد الحروب الصليبية - الى الاشتراك في طرد المسلمين من الاندلس، ويقال ان الاذفونش بعد سنة من وقعة الزلاقة استطاع ان يعيد سيرته الاولى ضد المسلمين فكانت جيوشه تخرج من حصن لبيط فتنقض على المدن الاسلامية المجاورة فتنزل بها الرعب والفزع، ففي سنة 480هـ.

---

1) قونقة مدينة بالاندلس بالقرب من وبذة. راجع الادريسي ص 195.

2) مدينة وحصن بالاندلس على واد بقرب اقليش وبينها وبين قونقة ثلاثة مراحل. راجع الادريسي ص 195. الروض المعطار ص 194.

3) الكمبيادور عند الاسبانيين هو الرجل الشجاع، والسيد الكمبيادور هذا فارس اسباني ذائع الصيت واسمه الحقيقي هو: دياذدي بفار وشخصيته اقرب الى ان تكون خرافية، بل ان بعض العلماء كالاب اليسوعي ماسديو ينكر وجودها اصلا. راجع تراث الاسلام ج 1 ص 75 - 76.

4) راجع ص 171 من هذه الرسالة.

5) كوندي ج 2 ص 285 -286.

(1087 م) اغار الاذفونس على المدن الاسلامية ووصل في غارته هذه الى قرب اشبيلية، وساعده على ذلك ان خصومه المسلمين لم يعززوا قوتهم بعد الخسارة التي لحقت بهم في الزلاقة، كما ان صفوفهم كانت تسود فيها روح البغضاء والتفرقة، واصبح المعتمد يرى انه لم يستفد من وقعة الزلاقة شيئا يعوض خسارته من الرجال فيها، بل انه رأى ان الامارات التي اخضعها هو واسلافه من قبل بحد السيف اصبحت اليوم تنعم باستقلالها، وكان المعتمد يأمل ان يستفيد من المرابطين في تقوية نفوذه وارجاع اماراته لذلك عبر لبلاد العدوة - مرة ثانية - لمقابلة يوسف ابن تاشفين ليبسط له وجهة نظره في الموقف الذي اصبح فيه .

تقابل الملكان في بلاد العدوة بالمعمورة(1) على مصب نهر سبو وهناك اشتكى المعتمد ليوسف ما يلاقيه المسلمون من جراء هجمات العدو عليهم، وذكر له ان قواد المرابطين لديهم من الشجاعة اكثر مما لديهم من الحنكة والتجربة، واخيرا رجاه ان يعهد اليه بقيادة جيش المرابطين ، ولم ينس المعتمد في هذه الرحلة ان يذكر ليوسف النزاع المحتدم الذي كان يمزق صفوف المسلمين، وعلى ذلك فقد التمس منه ان يعبر مرة اخرى الى الاندلس ليعيد الى المسلمين هيبتهم ومكانتهم (2).

وفي ربيع الاول سنة 481 ه (يونيو سنة 1088 م) عبر يوسف للمرة الثانية الى الجزيرة فقابله بها المعتمد وقدم له من الهدايا الف بعير محملة بثمين الاشياء وغاليها ، ولم يكد يوسف ينزل الى ارض الاندلس حتى بعث الى امرائها يطلب منهم مقابلته في منطقة مرسية عند حصن لبيط، فسارع الى لقائه هناك كل من المعتمد وعبد الله بن بلقين امير غرناطة واخيه تميم والي مالقة، والمعتصم ابن صمادح امير المريه، وكان

---

1) يقول الناصري في الاستقصا ج 1 ص 119: ان المعمورة اليوم هي التي تسمى بالمهدية قرب مدينة سلا.

2) الانيس المطرب ص 98 . وقد نقل عنه الناصري في الاستقصا ج 1 ص 119.

المعتصم يلبس جبة سوداء شعار المرابطين بينما كانت جيوشه تلبس البياض فكان المعتمد يمازحه ويقول له: انت كالغراب بين طيور الحمام، وقد وصل في نفس الوقت الى مكان اللقاء ابن رشيق صاحب مرسية وحكام لورقة وباجة وجيان وشقورة، كما جاء من مرسية النجارون والبناءون والحدادون واصحاب المهن الاخرى (1).

اجتمعت هذه القوات المكونة من المرابطين والاندلسيين امام حصن لبيط الذي كان يدافع عنه اثنى عشر الفا من المشاة (2)، ولحصانة هذا المعقل لم تستطع ادوات الحصار التي استخدمها المسلمون لتنال منه شيئا، ولما طال الحصار وخشي المسلمون ان يعمد الاذفونش الى جلب الامدادات لطردهم قرروا ان يفكوا الحصار عن الحصن وينتقلوا الى حدود بلاد النصارى ليقوموا بمناوشات هنالك.

وفي المؤتمر الذي عقد لبحث المسألة شب نزاع خطير في صفوف المسلمين كان من اثره ان انفصمت البقية الباقية من عراهم، ذلك ان الامراء الذين كانت مدنهم قريبة من منطقة مرسية ومعرضة لهجمات النصارى من حصن لبيط رأوا في رفع الحصار عن هذا الحصن تغريرا بهم، وكان على رأس هؤلاء عبد الرحمن بن رشيق حاكم مرسية الذي كان يرى ان لا يرفع الحصار عن الحصن الا اذا اصبح المسلمون سادة له

---

1) هذه رواية ابن الخطيب في الحلل الموشية ص 48 - 49. وقد نقلها عنه كوندي ج 2 ص 292. ويوسف اشباخ ج 1 ص 95. ويذهب ابن ابي زرع ص 99. وابن خلدون ج 6 ص 183. والناصري في الاستقصا ج 1 ص 119. الى ان ملوك الاندلس امتنعوا عن مقابلة يوسف في هذه المرة ولم يقابله منهم غير المعتمد وابن رشيق ولا شك ان هؤلاء قد خلطوا بين جواز يوسف الثاني وبين جوازه الثالث الذي ستتحدث عنه.

2) هذه رواية كوندي ج 2 ص 293. ويوسف اشباخ ج 1 ص 95. وورد في الانيس المطرب ص 99. ان عدد المدافعين عن هذا الحصن بلغ اثنى عشر الفا مقاتل دون العيون والذرية.

وكان يعضده في رأيه المعتصم بن صمادح صاحب المرية ومحمد بن لبون حاكم لورقة وبعض القواد وكان المعتمد بن عباد يرى انهم اذا رفعوا الحصار عن الحصن فان المسيحيين سيغترون بذلك ويخرجون من معقلهم لاقتفاء اثرهم وبذلك يمكن منازلتهم في العراء ويسهل القضاء عليهم ولم يكن يناصر المعتمد في رأيه الا عبد الرحمن بن بكر حاكم جيان.

ولما كان هناك خلاف شديد بين المعتمد وعبد الرحمن بن رشيق من يوم ان استبد هذا الاخير بمرسية وانتزعها من ابن عمار، فانه قد استحال التوفيق بين الفريقين، وتفاقم النزاع عند ما اتهم المعتمد ابن رشيق بانه يمالئ الاذفونش ويشاركه في حرب المسلمين، فثارت ثائرة ابن رشيق لهذا الاتهام الذي عده مهينا لكرامته، فاستل سيفه وهجم به على المعتمد يريد قتله، وهنا رأى يوسف بن تاشفين ان الطريق التي التجأ اليها ابن رشيق ستشعل نار الثورة في معسكر المسلمين وان المسيحيين سيغتنمون هذه الرفصة فيعصفون بخصومهم، لذلك اصدر اوامره الى قائده سير بن ابي بكر بان يلقي القبض على ابن رشيق ويسلمه الى المعتمد ليلقي به في السجن (1).

لم يكد جيش مرسية يعلم بما وقع لسيده حتى ثار واسرع الى هدم خيامه وجمع مئونته، وهكذا اختلط حابل المسلمين بنابلهم واسرع جيش مرسية الى الحدود حيث وقف بالمرصاد لجيش ابن عباد والمرابطين فاخذ يقطع عنهم الامدادات مما جعل الجيش الاسلامي يشعر بالحاجة الى الغذاء، ثم ان بعض الامراء الآخرين الذين كانوا يناصرون ابن رشيق، لم يستريحوا الى تصرف المعتمد الطائش الذي كان سببا

---

1) الانيس المطرب ص 99. الحلل الموشية ص 50. ابن خلدون ج 6 ص 187. الاستقصا ج 1 ص 119. كوندي ج 2 ص 292 - 295. يوسف اشباخ ج 1 ص 95.

فيما حل بابن رشيق فغادروا المعسكر الى اوطانهم، كما تقهقر يوسف بجيشه الى لورقة ثم الى المرية ومنها عبر الى بلاد العدوة.

ولما رحل المسلمون عن حصن لبيط اقبل الاذفونش على الحصن واصدر اوامره بتجريده مما فيه من عدد وعدة، وتحطيم اسواره حتى لا يعود المسلمون الي حصار المسيحيين به، اذ كان يعلم انه لا يملك الاحتفاظ بهذا الحصن الا اذاكانت به حامية كبيرة ولما نفذت الاوامر التي اصدرها الاذفونش غادر الحصن الى طليطلة ولم يكد يغادر الاذفونش الحصن حتى تقدم المعتمد واستولى عليه سنة 483 هـ، 1090م (1).

توالت الرسائل على يوسف بن تاشفين من قائده سير ابي بكر تنبئه بأن ملوك الاندلس ينظرون الى المرابطين بعين الريبة وانهم يرونهم اشد خطرا عليهم من المسيحيين وانهم بدأوا فعلا يكونون حلفا مع المسيحيين ضد المرابطين وان عبد الله بن بلقين ملك غرناطة حصن بلاده منهم بل انه بعث الى الاذفونش مبلغا من المال وعقد معه معاهدة ضد المرابطين.

ووردت عليه رسائل كذلك من جمهرة علماء الاندلس والمغرب يرجون منه التدخل في رفع ما حاق باهل الاندلس من كثرة المكوس والظلمات، ولم تكن شكوى العلماء من سوء معاملة الملوك اهم حديثة عهد بابن تاشفين فانه لما كان بالاندلس تقدم اليه العلماء بنفس هذه الشكوى وقد رفع شكايتهم الى ملوكهم ليعملوا على تخفيف ما حل برعيتهم واظهر ملوك الطوائف في اول الامر العطف على مطالب رعاياهم فازالوا اسباب شكاويهم وتذمرهم ولكنهم نظرا لما كانت تستلزمه حياة البذخ والترف التي كانوا يعيشون عليها ونظرا لكثرة تبذيرهم في المنح

---

1) الانيس المطرب ص 99. الاستقصا ص 119. كوندي ج 2 ص 292 - 295. يوسف اشباخ ج 1 ص 95 - 96.

والعطايا التي كانت تمنح للشعراء والمغنين والأخدان فانه لم يكد يوسف يرجع الى بلاده حتي رجع ملوك الاندلس الى سياستهم الاولى من ارهاق الرعايا بكثرة المكوس والامعان في العسف والظلم فلما طفح الكيل اخذ فقهاء الاندلس يستغيثون بيوسف ويرفعون اليه العرائض يطلبون منه ان يخلع ملوكهم ويضع حدا لتهورهم، وكذلك جاء الى يوسف فتوى في هذا المعنى من الامام الغزالي وابي بكر الطرطوشي. (1)

بعد هذا كله لم يبق ليوسف عذر في عدم تلبية النداءات المتكررة التي كانت ترد اليه من الاندلس فاذا اضفنا الى ذلك ان يوسف كان قد بلغه - منذ كان بالاندلس اول مرة - ان ملوكها يدبرون مكيدة الايقاع به (2) وأغلب الظن انه اضمرها وقتئذ لانه لم يكن يملك ان يعاقبهم على ما يضمرون فلما تحقق من ذلك خلال رحلته الثانية للاندلس اصبح الآن في حل من دمائهم اذا هم لم يخضعوا لاوامره، يضاف الى ذلك ان يوسف قد اعجب بجمال الاندلس وخيراتها حتى انه ذات مرة قال لبعض اصحابه: «كنت اظن اني قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها؟» (3)

وينبغي ان لا ندهش من اطماع يوسف هذه فان حب الامتلاك والاستيلاء طبعي في الانسان، فاذا نظرنا الى العصر الذي نحن فيه وهو العصر الذي يسمونه عصر النور والمدنية نجد ان القوي ما يزال يخضع الضعيف متلمسا لذلك او هي الاسباب فاذا جاز هذا في عصرنا فكيف لا يجوز في العصور التي كانت تسمى بالعصور الوسطى؟! وكيف لا يجوز وحالة الاندلس على ما كانت عليه من فوضى واضطراب؟.

---

1) ابن خلدون ج 2 ص 187. نفح الطيب ج 2 ص 535.
2) المؤنس ص 105.
3) المعجب ص 87.

لهذا كله نرى يوسف بن تاشفين يعبر للاندلس للمرة الثالثة سنة 483هـ، ويتقدم الى طليطلة فيعيث في انحائها فسادا ثم يرجع الى غرناطة مصمما على ان ينتزعها من بني زيري لان يوسف كان يوشك ان ينفجر غيظا من تصرف ملكها الذي تحالف مع الادفونش وامده بالمال.

وقد تضاربت اقوال المؤرخين في كيفية استيلاء المرابطين على غرناطة ففريق يذكر ان يوسف حاصرها حصارا دام شهرين حتى اضطر عبد الله ابن بلقين ان يفتح له ابواب المدينة على ان يؤمنه على نفسه وفريق آخر يذكر ان يوسف جاء الى غرناطة وقد اخفى ما يريده منها فخرج عبد الله بن بلقين وقابله بترحاب كبير ثم رجع عبد الله الى داخل المدينة ليخرج الى يوسف ما يخب من الهدايا وفي هذا الوقت اصدر يوسف اوامره الى قواده بالزحف على المدينة والاستيلاء عليها فسارعت جيوش المرابطين الى تنفيذ هذه الاوامر فهجموا على المدينة وقبضوا في الحين على عبد الله بن بلقين واستولوا على قصره ونهبوا كل ما وصلت اليه ايديهم، ومن جملة ما وجدوه «سبحة فيها اربعمائة جوهرة قومت كل جوهرة بمائة دينار ومن الجواهر ما له قيمة جليلة(1).

وقد رأى يوسف ـ وهو ينزع ملوك الاندلس عن عروشهم ـ ان يلجأ الى وسائل الدعاية، لعله يستطيع الوصول الى غرضه دون اراقة الدماء، فمن ذلك انه اذاع بانحاء الاندلس ـ بعد سقوط غرناطة ـ تطمينا لباقي الامراء ان عبد الله نزل عن المدينة مختارا وعوض عنها باملاك واسعة في افريقية (2).

وقد بلغ التخاذل بملوك الاندلس ان تميم بن بلقين والي مالقة

---

1) راجع سقوط غرناطة، الانيس المطرب ص 99 - 100. ونفح الطيب ج 2 ص 533. ابن الاثير ج 10 ص 63. الحلل الموشية ص 50 - 51. وفيات الاعيان ج 1 ص 31.

2) يوسف اشباخ ج 1 ص 98.

وهو اخو عبد الله صاحب غرناطة السابق- لم يكد يسمع باستيلاء يوسف على غرناطة ونزعها من اخيه حتى اسرع الى يوسف ليقدم له التهاني على هذا النصر المبين، غير ان يوسف لم يكن بالرجل الذي تستخفه هذه المظاهر فبادر والقى القبض على تميم وضمه الى اخيه عبد الله وبعد شهرين من سقوط غرناطة ارسلهما يوسف مع حريمهما الى مراكش واجرى عليهما نفقته الى ان توفيا بها .

اما المعتمد ابن عباد فانه تلقى خبر سقوط غرناطة بفزع شديد وسافر في الحال هو والمتوكل بن الافطس ليهنئا يوسف ويستوضحاه جلية الامر، ويظهر ان المعتمد حاول في هذه الرحلة ان يساوم يوسف على ان يترك له غرناطة ليضمها الى املاكه، ولكن يوسف استقبل المعتمد بفتور عرف منه المعتمد ان ساعته قد دنت وقال لرفيقه المتوكل ابن الافطس «والله لابد له ان يسقينا من الكأس التي سقى بها عبد الله بن بلقين » (1) .

ويذكر لنا ابو بكر عيسى بن اللبانه فيقول : « كنت يوما عند الرشيد ابن المعتمد في مجلس انسه سنة ثلاث وثمانين واربعمائة فجرى ذكر غرناطة وملك امير المسلمين لها ، فلما ذكرناها تفجع وتلهف واسترجع وذكر قصرها فدعونا لقصره بالدوام ولملكه بتراخي الايام فأمر عند ذلك ابو بكر الاشبيلي بالغناء فغنى :

يادارمية بالعلياء فالسند ... اقوت وطال عليها سالف الامد

فاستحالت مسرته وتهجمت اسرته ثم امر بالغناء من ستارته فغنى:

ان شئت ان لاترى صبر المصطبر ... فانظر الى اي حال اصبح الطلل

فتأكد تطيره واشتد اربداد وجهه وتغيره وامر مغنية اخرى بالغناء فغنت :

---

1) الحلل الموشية ص 51 - 52.

يالهف نفسي على مـال افرقـه … على المقلين من اهل المرؤات
ان اعتذاري الى من جاءُ يسألني … ماليس عندي من احدى المصيبات

قال ابن اللبانة فتلافيت الحالة بأن قمت فقلت :

محـل مكـرمة لا هـد مـبناه … وشمـل مـأثـرة لا شتت الله
البيت كالبيت لكن زاد ذا شرفا … ان الرشيد مع المعتمد ركنـاه
ثاو على انجـم الجـوزاءُ مقعـده … وراحل في سبيل السعد مسراه
حتم على الملك ان يقوى وقد وصلت … بالشرق والغرب يمناه ويسراه
بأس توقـد فأحمـرت لواحظـه … ونائـل شب فاخضرت عذراه

فلعمري قد بسطت من نفسه واعدت عليه بعض أنسه، على اني وقعت فيما وقع فيه الكل بقولي البيت كالبيت وأمر اثر ذلك بالغناء فغنى:

ولما قضينا من منى كل حاجة … ولم يبـق الا ان تزم الركائب

فأيقنا «ان هذا التطير يعقبه التغيير»(1) فلم تمر على هذه الحادثة الا ايام قلائل حتى ثل يوسف عرش بني عباد وشردهم(2):

---

1) نفح الطيب ج 2 ص 392. ابن الاثير ج 10 ص 76 - 77.

2) ما اشبه هذه القصة بما يذكره ابو جعفر الطبري (ج 10 ص 194 - 195.) بما جرى للامين بن هارون الرشيد في اخريات حياته اذ يقول: «ذكر عن محمد ابن راشد ان ابراهيم بن المهدي اخبره انه كان نازلا مع محمد الامين المخلوع في مدينة المنصورة في قصره بباب الذهب لما حصره طاهر، قال: فخرج ذات ليلة من القصر يريد ان يتفرج من الضيق الذي هو فيه فصار الى قصر القرار في قرن الصراه اسفل من قصر الخلد في جوف الليل، ثم ارسل الي فسرت اليه فقال: يا ابراهيم اما ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماءُ وضوئه في الماءُ؟ ونحن حينئذ في شاطيءُ دجلة، فهل لك في الشرب؟ فقلت شأنك جعلني الله فداك. فدعى برطل نبيد فشربه، ثم امر فسيقت مثله. قال: فابتدأت اغنيه من غير ان يسألني لعلمي بسوءُ خلقه، فغنيت ما كنت اعلم انه يحبه، فقال لي ما تقول فيمن يضرب عليك؟ فقلت: ما احوجني الى ذلك، فدعى بجارية متقدمة عنده يقال لها ضعف، فتطيرت من اسمها ونحن فى تلل الحال التي عليها، فلما صارت بين يديه قال تغني، فغنت بشعر النابغة الجعدي. =

وكان يوسف ابن تاشفين قد استهواه جمال اشبيلية ، وهي من اجمل المدن واحسنها نظراء وامعن يوسف النظر فيها وفي محلها وهي على نهر عظيم متبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة اليه ، وفي غربيها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخا يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون، وهذا هو المسمى بشرف اشبيلية وتمتار بلاد المغرب كلها بهذه الاصناف منه ، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وابيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء وفيها انواع مايحتاج

= كليب لعمرى كان اكثر ناصرا   وايسر ذنبا منك ضرج بالدم

قال: فاشتد ما غنت به عليه وتطاير منه وقال لها غني غير هذا، فغنت:

ابكي فراقهم عيني وارقها   ان التفرق للاحباب بكاء

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم   حتى تفانوا وريب الدهر عداء

فقال لها: - لعنك الله اما تعرفين من الغناء شيئا غير هذا؟ قالت يا سيدي ما تغنيت الا بما ظننت انك تحبه وما اردت ما تكرهه، وما هو الا شيء جاءني. ثم اخذت في غناء آخر. -

اما ورب السكون والحرك   ان المنايا كثيرة الشرك

ما اختلف الليل والنهار ولا   دارت نجوم السماء في الفلك

الا لنقل النعيم من ملك   عان بحب الدنيا الى ملك

وملك ذي العرش دائم ابدا   ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها قومي غضب الله عليك!! قال: فقامت وكان له قدح بلور حسن الصنعة وكان محمد يسميه زب رباح، وكان موضوعا بين يديه فقامت الجارية منصرفة فتعثرت بالقدح فكسرته، قال ابراهيم والعجب انا لم نجلس مع هذه الجارية قط الا رأينا ما نكره في مجلسنا ذلك، فقال لي ويحك يا ابراهيم ما ترى ما جاءت به هذه الجارية ثم ما كان من امر القدح والله ما اظن امري الا وقد قرب ! ؟ فقلت يطيل الله عمرك ويعز ملكك ويديم لك ويكبت عدوك. فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتا من دجلة: قضي الامر الذي فيه تستفتيان، فقال يا ابراهيم ما سمعت ما سمعت؟ قلت. لا والله ما سمعت شيئا وقد كنت سمعت. قال: تسمع حسا ؟ قال: فدنوت من الشط فلم ار شيئا ثم عاودنا الحديث فعاد الصوت. قضي الامر الذي فيه تستفتيان، فوثب من مجلسه ذلك مغتما ثم ركب فرجع الى موضعه بالمدينة فماكان بعد هذا الا ليلة او ليلتان حتى حدث ما حدث من قتله».

اليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك ....
وكان مع ابن تاشفين اصحاب له ينبهونه إلى حسن تلك الحال وتأملها وما هي عليه من النعمة والاتراف ويغرونه باتخاذ مثلها ويقولون له: ان فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد واصحابه.
وكان بن تاشفين عاقلا مقتصدا فى اموره غير متطاول ولا مبذر، غير سالك نهج الترف والتأنق في اللذة والنعيم، اذ ذهب صدر عمره في بلاده بالصحراء في شظف العيش فانكر على من اغراه بذلك الاسراف وقال له: الذي يلوح لي من امر هذا الرجل انه مضيع لما في يده من الملك، لأن هذه الاموال الكثيرة التي تصرف فى هذه الاحوال لابد ان يكون لها ارباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل ابدا، فأخذه بالظلم واخراجه فى هذه النزهات من افحش الاستهتار، ومن كانت همته فى هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الاجوفين متى تستنجد في ضبط بلاده وحفظها وصون رعيته والتوفير لمصالحها ؟!.. ثم ان يوسف بن تاشفين سأل عن احوال المعتمد في لذاته هل تختلف فتنقص عما عليه في بعض الاوقات فقيل له بل كل زمانه على هذا، فقال افكل اصحابه وانصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظا من ذلك ؟ فقالوا: لا. قال فكيف ترون رضاهم عنه؟ فقالوا لا رضا لهم عنه، فاطرق وسكت»(1)
ومن هذا الحديث الذي دار بين ابن تاشفين وبين بعض اصدقائه نجد ان ابن تاشفين كان يرى ان دولة بني عباد قد اشرفت على الزوال، واذن فلم لا يكون زوالها على يده ؟! وهو وان اظهر عدم الاكتراث للفكرة التي اشار بها احد محدثيه الذي كان يغريه بالاستيلاء على اشبيلية وغيرها من بلاد الاندلس الا اننا نجده مرة اخرى يتحدث بصراحة الى بعض اصدقائه ويكشف لهم رغبته في امتلاك بلاد الاندلس كلها

1) نفح الطيب ج 2 ص 534 وفيات الاعيان ج 2 ص 368 .

وقال لثقاته : « كنت اظن انني قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها ؟» (1) ويقال ان اصدقاء يوسف اشاروا عليه ان يبعث الى المعتمد يطلب منه قبول بعض المجاهدين ليرابطوا في بعض الحصون بقصد الجهاد في سبيل الله، وكان الغرض من ذلك ان يكون انصار يوسف منبثين في الاندلس يقومون بنشر دعوة المرابطين وينتظرون وقت هجوم الجيش المرابطي ليقوموا بدورهم بثورة جامحة ، وقد نجح ابن تاشفين الى حد كبير في تنفيذ خطته هذه بمساعدة المتوكل بن الافطس الذي استطاع ان يؤثر في المعتمد الى ان اقتنع بالفكرة وارسل يوسف جماعة من المرابطين - برياسة احد اقربائه يسمى بلقين - الى المعتمد حيث انزلهم في بعض حصونه، وبقيت هذه الجماعة تقوم بمهمتها تحت ستار الرباط الى ان ثاروا عند ما هاجم المرابطون مملكة بني عباد (2). وينبغي ان لا ننسى الادوار الخطيرة التي كان يقوم بها خصوم المعتمد في توسيع الهوة بينه وبين ابن تاشفين ، وكان من اشد خصوم المعتمد كيداً له عند يوسف المعتصم بن صمادح فقد كان كثيرا ما يتربص بالمعتمد الدوائر للايقاع به، وكان النزاع في بعض الاحيان يشتد بينهما فيتبادلان رسائل شديدة اللهجة وفي بعض الاحيان كانا يحتكمان الى السيف فيجردان الحملات الحربية على بعضهما ، وكان المعتصم بن صمادح قد كسب مكانة ممتازة عند يوسف بن تاشفين فكان يستغل مركزه ويدس للمعتمد عند يوسف ، ومما كان يلقيه في روع يوسف « ويقرره عنده : عجب المعتمد بنفسه وفرط كبره وانه لا يرى احدا كفوءا له » . ومرة ابلغه ان المعتمد يقول : طالت اقامة هذا الرجل (يعني يوسف) لو

1) المعجب 86 - 87 .
2) المعجب 87.

عوجت له اصبعي ما اقام بها ليلة واحدة هو ولا اصحابه وكأنك تخاف عائلته ، واي شيء هذا المسكين واصحابه وانما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش وغلاء من السعر جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا فأذا اشبعوا اخرجناهم عنها الى بلادهم الى امثال هذا القول » (1) . ولم تكن دسائس المعتصم لتخفى على المعتمد فنراه مرة ينذر المعتصم ويتوعده بقوله :

يامن تعرض لي يريد مساءتي	لا تعرض فقد نصحت لمندم
من غره مني شمائل سهلة	فالسم تحت لبان مس الارقم (2)

تجمعت كل هذه العوامل وجعلت يوسف بن تاشفين يتخذ خطة حاسمة نحو ملك اشبيلية فأعد خطة يكون فيها القضاء عليه قضاء تاما، ذلك انه فضل ان يعبر بنفسه الى الساحل الافريقي تاركا قواده وجيوشه في بلاد الاندلس حتى يشرف بنفسه على تموينهم من بر العدوة.

عادر يوسف الاندلس وهو يضمر شرا بأمرائها واصدر اوامره الى قائده سير بن ابي بكر يغزو امارة اشبيلية لأنها اقوى الامارات، ولأن سقوطها سيعجل بسقوط بقية الامارات الاخرى، وهكذا تحركت عدة جيوش للمرابطين لتعصف بدولة بني عباد ، فتحرك الجيش الرئيسي تحت رئاسة ابن عم يوسف سير بن ابي بكر الى اشبيلية لحصار المعتمد بها ، وتحرك جيش آخر بقيادة ابي عبد الله بن الحاج الى قرطبة وكان بها ولد المعتمد ابو ناصر الفتح الملقب بالمأمون بينما تحركت كتيبة اخرى تحت رياسة بطي بن اسماعيل الى جيان وكان بها عبد الله ابن بكر من قبل المعتمد، وقد عهد الى بطي ان ينضم الى الجيش المحاصر لقرطبة عندما تسقط في يده جيان. وتحرك جرور الحبشي على

---

1) المعجب ص 85-86 .

2) قلائد العقيان ص 14

جيش آخر الى رندة وبها ولد آخر للمعتمدوهوابو خالد يزيد الراضي(1).
وقد شددت هذه الجيوش الحصار علـى المدن التي كانت تحاصرها
واستولى بطي بن اسماعيل على مدينة جيان ثم انضم الى الجيش الذي
كان يحاصر قرطبة بقيادة ابي عبد الله بن الحاج، وشددا عليها الحصار،
ولما ضاق بالمأمون الحصار نقل ذخائره وامواله الى حصن المدور وحصنه
بالرجال، وبقي بقرطبة يقاوم المحاصرين الى ان تغلبـوا عليه بمداخلة
اهلها فتساقوا اسوار المدينة وفر حماة قرطبة عندما سمعوا ضجيج الثوار
ينادون بشعار المرابطين، وتقدم الغزاة الى قصر الامـارة فخـرج اليهم
المأمون وقاومهم مقاومة ابلى فيها بلاءً حسنا، ولم يزل يقاوم حتى خرج
عليه كمين من الرجال المدججين بالسلاح فانقضوا عليه وفصلـوا رأسه
عن جسمه ثم رفعوه على سن رمح وطافوا به ضواحـي قرطبة لارهـاب
اهلها، وكان ذلك في صفر من سنة 484 هـ(2).

وتوالت فتوحات المرابطين واخذت المدن تسقط في ايديهم المدينة
تلو الاخرى فسقطت «بياسة» و «ابذة» و «حصن البلاط» و «المادوت»
و «الصخيرة» وهكذا لم تمر مدة بسيطة على ابتداء الغزو المرابطي حتى
لم يبق مـن مملكة بني عباد ما عدا «رندة» و «مارثلة» و «قرمونية»
و «اشبيلية».

وفي هذا الوقت بعث المعتمد الـى خصمه القديم الاذفـونش يطلب
عونه ونجدته، ويقول يوسف اشباخ (3) «ومن المحتمل ان يكون الفونسو
- توثيقا للروابط المشتركة - قد تزوج عنئذ سيدة ابنة المعتمد وهي التي

---

1) الحلل الموشية ص 52.
2) الانيس المطرب ص 100. الاستقصا ج 1 ص 120. قلائد العقيان ص 20.
المعجب ص 87 - 88.
3) ج 1 ص 100.

تسمت بعد تنصرها باسم «ماريا» او كما يقول البعض باسم اليزابيت،او اتخذها حظية في بلاطه الخ » وهي قصة عالجناها فيهذه الرسالة وخرجنا منها بأنها قصة لا اصل لها (1) . وعلى كل حال فقد تناسى الاذفونش خصومته مع المعتمد وارسل اليه مددا بقياده الكونت جومز . (2) بلغ عدده اربعين الف رجل وعشرين الف فارس، ولم تكد تصل الاخبار لسير بن ابي بكر بوصول المدد حتى ارسل عشرة آلاف فارس بقيادة ابراهيم بن اسحق اللمتوني لملاقاة جيش المسيحيين، وبالقرب من قرطبة عند الحصن المدور التقى الفريقان ووقفت بينهما معركة حامية الوطيس كانت الهزيمة فيها على المسيحيين (3) .

ثم توجه سير بن ابي بكر الى «قرمونية» فشدد عليها الحصار حتى سقطت في ربيع الاول سنة 484 هـ . وعاد الى اشبيلية ليفرغ منها، وكان الناس باشبيلية يأملون التخلص من حكم بني عباد بأي ثمن، فيقص علينا ابو بكر بن اللبانة ـ شاعر المعتمد ـ ان «الناس قد ملوا الدولة العبادية وسئموها على ما جرت به العادة من حب الجديد لا سيما وقد ظهر من ابن عباد من التهتك في الشرب ما لا يخفى فتمنى اكثر الناس الراحة من دولتهم » (4) . ويقول ابن اللبانة (5) ايضا متحدثاً عن المعتمد في الوقت الذي كانت فيه جيوش المرابطين تجد في حصار اشبيلية كان « المعتمد مع ذلك منغمسا في لذاته وقد القى الامور في ايدي ابنه الرشيد فلم يشعر ابن عباد والا والعسكر معه في البلد الخ ».

---

1) راجع ص 135 - 136 من هذه الرسالة.

2) يوسف اشباخ ج 1 ص 100 - 101. ويسميه ابن ابي زرع في الانيس المطرب ص 100. وكذلك الناصري في الاستقصا ج 1 ص 125 «القرمس» .

3) الانيس المطرب ص 100. وقد نقل عنه الناصري في الاستقصا ج 1 ص 120.

4) نفح الطيب ج 2 ص 470 - 471.

5) في المرجع السابق.

وقد اقتحم الغزاة اشبيلية فى منتصف رجب سنة 484 هـ ، من باب الفرج بمعاونة الثوار في الداخل، ومن الغريب ان المعتمد كان يعلم برجال المؤامرة ومع ذلك فلم يحرك ساكنا للضرب على ايديهم ، ويقال ان المعتمد صحا من نومه على اصوات الثوار فركب فرسه واستلسيفه وهو يرتدي ثوبا واحدا وهو ثوب النوم فالتقى بالغزاة عند باب الفرج فى جماعة قليلة من المخلصين له ، وقد اظهر المعتمد في هذا اليوم من الشجاعة والنجدة ما يعجز القلم عن وصفه، وتصدى للمهاجمين فما كادوا يرونه يفلق هامة احد الطبالين حتى ولوا هاربين ونزل المتسلقون الاسوار عنها ولاذوا بالفرار، وقد نجا المعتمد من رمح احدالرماةباعجوبة، وهكذا رد المعتمد الغزاة على اعقابهم وامر ان يحكم سد الابواب وان يعاد بناءما تهدم منها (1) .

ظن اهل اشبيلية ان المرابطين قد جلوا عن المدينة نهائيا ولكنهم كانوا قد صمموا على احتلال هذه المدينة فاعادوا الكرة عليها فى العشي فجاءت قوتان من المرابطين لمهاجمتها ، واحدة من ناحية البر تحت قيادة حيدر بن واسنو، والاخرى من ناحية وادي اشبيلية بقيادة ابي حمامة مولى بني سقوت، وقد انضم اليهما سير بن ابي بكر ، وبذلك تحرجت الاحوال فى اشبيلية واصبح سقوطها امر مفروغا منه بين آونة واخرى، وقد اصبح اهل اشبيلية في حالة يرثى لها من الخوف والفزع، فكنت ترى الناس «وقد استولى عليهم الفزع وخامرهم الجزع يقطعون سبلها سياحة ويخوضون نهرها سباحة ويترامون من شرفات الاسوار ويتولجون مجاري الاقدار حرصا على الحياة وحذرا من حضورالوفاة(2).

وفي يوم الاحد لاحدى وعشرين ليلة خلت من رجب دخل

1) قلائد العقيان ص 21. المعجب ص 88.

2) الذخيرة قسم 2 ص 32. المعجب ص 89. وفيات الاعيان ج 2 ص 31.

المرابطون اشبيلية من ناحية نهرها، وكان المعتمد قد اطمأن الى التحصينات التي امر ان تقام بالمدينة وعاد الى قصره لينعم بلذاته بين جواريه فلم يشعر الا والبلد قد امتلا عليه، ويصف لنا ابن اللبانه في كتابه الذي الفه بمناسبة سقوط دولة بني عباد وسماه « السلوك في وعظ الملوك» مناظر من سقوط دولة بني عباد فيقول: « الى ان كان يوم الاحد الحادي والعشرين من رجب فعظم الخطب في الامر الواقع واتسع الخرق فيه على الراقع ودخل البلد من جهة واديه واصيب حاضره بعادية باديه بعد ان ظهر من دفاع المعتمد وبأسه وترامیه على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ولا انتهى خلق اليه فشنت الغارة في البلد ولم يبق فيه على سبد ولا لبد وخرج الناس عن منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم وكشف وجوه المخدرات العذارى ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى » (1).

ويذكر الفتح بن خاقان (2): ان المعتمد كان غارقا في لهوه ومجونه ولم يشعر الا والبلد قد امتلا عليه فخرج اليهم والتقى بهم في ساحة القصر وكان المعتمد كالاسد الهصور يترامى بنفسه على الموت وما زال يوالي الكرة تلو الكرة الى ان فرق جمعهم وألجأهم الى النهر الكبير ثم رجع الى القصر وقد ايقن بذهاب ملكه ومر في طريقه على سوق الصباغين فوجد ابنه مالكا مطروحا على الارض وقد ضرج بدمائه فكان لذلك المنظر اثر في نفسه، وذهب الى القصر حيث بقي فيه يومين وليلة، وقد عزم على ان يتخلص من نفسه ويقول: بيدي لا بيد عمرو، ولكنه رجع الى رشده وفوض امره الى بارئه وكان المرابطون قد احتلوا كل جوانب اشبيلية وامعنوا فيها سفكا وتخريبا وانتهبوا قصور المعتمد وخربوها.

---

1) نفح الطيب ج 2 ص 453. نقلا عن كتاب السلوك في وعظ الملوك.
2) قلائد العقيان ص 21.

وقد انزل المعتمد من قصره بعد ان ‹‹طلب الامان له ولمن معه››ثم اجبر على ان يكاتب ابنيه يزيد الراضي والمعتمد وكانا لا يزالان معتصمين لم يسلما بعد، اولهما كان معتصما برندة وثانيهما كان بمارتله، فكتب المعتمد اليهما وكتبت معه امهما السيدة الكبرى يرجوان منهما ان ينزلا من معتصمهما رفقا باسرتهما لما عسا ان تلقاه من تنكيل اذاهما اصرا على المقاومة، فنزلا عن معقليهما بعد ان اعطيت لهما العهود والمواثيق ولم يبر المرابطون بعهودهم ومواثقهم، بل انهم جريا على سياستهم التي رسموها لانفسهم وهي: البطش بملوك الاندلس وامرائها، فانهم عمدوا الى يزيد الراضي عند ما خرج اليهم ومالوا به الى ناحية من الحصن وجرعوه الردى، اما المعتمد فكان حظه احسن من حظ اخيه حيث ان القائد الذي كلف به اكتفى بان استولى على كل ما كان يملك والقى القبض عليه وبعث بهالى اشبيلية ليلقي المصيرالذي ستلقاهاسرته(1). ولما سقطت جميع المعاقل والحصون قبض على المعتمد وابنائه وبناته، وكانوا يبلغون مائة، وقيدوا بالحديد واعدت لهم المراكب لتنتقلهمالى منفاهم باغمات (2) وكان منظرا مؤثرا عند ما بدأت السفن سيرهاحاملة اسرة بني عباد وقد خرج جميع اهل اشبيلية واصطفوا بضفتي النهر يضجون بالبكاء والنحيب في مناظر مؤلمة وكان شاعربني عباد المعروف بابن اللبانة قد خرج لتوديع الاسرة التي طالما تغنى بمجدها وكرمها وهو اليوم يشهد مصرعها فلم يتمالك ان فاضت شجيته بقصيدة رائعةندب فيها حظ بني عباد العاثر فقال :

---

1) قلائد العقيان ص 20. المعجب 87 - 88.

2) اغمات. مدينتان في جنوب مراكش احداهما تسمى اغمات ايلان والاخرى اغمات وريكة. ولم يعد لهاتين المدينتين اليوم ذكر. راجع المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص153. الادريسي ص65 - 69. دائرة المعارف الاسلامية ج 2 ص 329.

تبكي السماءُ بحزن رائح غادٍ ... على البهاليل من ابناءُ عباد

على الجبال التي هدت قواعدها ... وكانت الارض منهم ذات اوتاد

عرينة دخلتها النائبات على ... اساود لهمو فيها وآساد

وكعبة كانت الآمال تخدمها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

يا ضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

ويا مؤمل واديهم ليسكنه ... خف القطين وجف الزرع بالوادي

وانت يا فارس الخيل التي جعلت ... تختال في عدد منهم واعداد

الق السلاح وخل المشرفي فقد ... اصبحت في لهوات الضيغم العادي

لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ... وكل شيءٍ لميقات وميعاد

ان يخلعوا فبنوا العباس قد خلعوا ... وقد خلت قبل حمص ارض بغداد

حموا حريمهم حتى اذا غلبوا ... سيقوا على نسق في حبل مقتادي

وانزلوا في متون الشهب واحتملوا ... فويق دهم لتلك الخيل انداد

وعيث في كل طوق من دروعهم ... فصيغ منهن اغلال لاجياد

نسيت الاغدات النهر كونهم ... في المنشآت كأموات بألحاد

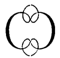
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق ازباد

حط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت اوجه تمزيق ابراد

حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فاد

سارت سفائنهم والنوح يصحبها ... كأنها ابل يحدو بها الحادي

كم سال في الماءُ من دمع وكم حملـــت تلك القطائع من قطعات اكبادي(1)



1) قلائد العقيان ص 23. المعجب ص 92. نفح الطيب ج 2 ص 452.

خاتمة المعتمد وبني عباد

نقل المعتمد واسرته الى طنجة ثم الى اغمات ـ ابن تاشفين يضيق على المعتمد انتقاما لثورة ابنه عبد الجبار بالاندلس ـ وفاة المعتمد ـ تشرد بني عباد ـ المعتمد يرثي نفسه ـ ابن اللبانة يرثي المعتمد ـ زيارة ابن الخطيب والمقري لقبر المعتمد ـ ابن الاثير ومأساة المعتمد ـ رأينا في تصرف يوسف بن تاشفين مع المعتمد.

وابحر المعتمد واسرته الى طنجة حيث بقي بها مدة من الزمان اسيرا وهناك لقيه الشاعر الحصري الضرير واستجداه بقطعة من الشعر كان قد مدحه بها واضاف اليها قطعة اخرى جديدة، فلم يكن عند المعتمد اكثر من ستة وثلاثين مثقالا دفعت به اريحيته الى ان يدفعها الى الحصري مزودة بقطعة شعر يعتذر له فيها عن ضآلة ما وجد عنده من مال.
وبعد ان قضى المعتمد واسرته مدة في طنجة صدرت الاوامر

بنقله الى منفاه الاخير بأغمات، وهناك زج بـه في قلعتها مصفـدا فـي الاغـلال ولقـي الـكثير من الذل والهوان هو وا-رته، ووصلت بهم المسغبة لدرجة ان بنات المعتمد «كن يغزلن للناس بالاجرة في اغمات حتى ان احداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كـان في خدمـة ابيها وهو في سلطانه» (1).

ولعل ابن تاشفين قد خفف ضغطه عن المعتمد عند ما اطمأن اليه ولم يعد يخشى شره ففك قيوده، ولكن حـدث ان رجلا يسمـى ابن خلف كان قد سجنه المرابطون بمالقة هو واصحابه فنقبوا السجن وفروا منه الى حصن «منت ميور» وطردوا قائده وهنالك التقـوا بعبـد الجبار بن المعتمد فبايعوه وولوه على انفسهم، وقوي مركز عبد الجبـار عند ما اتخذ له الطبول والبنود وكان قد استولـى عليهـا مـن احـد المراكـب التـي انكسرت بمرسى الشجرة قرب حصن «منـت ميـور» فاستولى على ما فيه من طعام وعدة، وظن اهل الجزيرة الخضراء ان القائم هو يزيد الراضي الـذي قتله المرابطون من قبل فاسرعوا الـى مبايعته وكذلك فعل اهل «اركش» وفي سنة 488 هـ، اتخذ عبد الجبار حصن اركش معقلا له ليضيق الخناق على اشبيلية التي كانـت قريبـة منه، ولم يكد يوسف بن تاشفين يعلم بثورة عبد الجبار حتى امر بوثاق المعتمد وتقييده بالحديد وفي ذلك يقول :

قيدي امـا تعلمنـي مسلمـا ... ابيت ان تشفق او ترحما

دمي شراب لك واللحم قـد ... اكلته لا تهشـم الا عظـمـا

يبصرنـي فـيـك ابـو هاشـم ... فينثنـي والقلـب قد هشمـا

ارحـم طفـيـلا طائشا لبـه ... لم يخش ان ياتيك مسترحما

وارحـم اخيات لـه مثله ... جرعتهن الـسـم والعلقما

---

1) قلائد العقيان ص 25. وفيات الاعيان ج 2 ص 33.

منهن من يفهم شيئا فقد خفنا عليه المبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئا فما يفتح الا لرضاع فما

وكان المعتمد يامل ان يرجع الى عرشه لما رآه من عطف ابن تاشفين عليه اخيرا غير ان آماله قد تبخرت بثورة ابنه، فجزع جزعا شديدا وثارت ثائرته على ابنه «وجعل يتشكي من فعله ويتظلم، ويتوجع منه ويتألم، ويقول: عرض بي للمحن، ورضي لي ان امتحن، ووالله ما ابكي الا انكشاف ما اتخلفه بعدي ويتحيفه بعدي» (1). ومن سوء حظ عبد الجبار ان ثورته اخمدت بسرعة فقد خرج اليه سير بن ابي بكر بجيوش جرارة فضيق عليه الحصار عدة شهور ثم رماه احد الرماة بسهم فسقط صريعا وبقي انصاره معتصمين الى ان ساءت حالهم من الجوع فاخذوا يسلمون الطائفة تلو الطائفة واعملت فيهم السيوف وبذلك انتهت ثورة عبد الجبار الفاشلة (2).

واشتدت المحنة بالمعتمد واسرته في الاسر ولم تستطع زوجته اعتماد الرميكية تحمل مشقة الحياة في منفاها، ورأى المعتمد في حزن عميق شريكة حياته تتخطفها يد المنون ودفنت على مقربة من سجنه، وهكذا بقي المعتمد يغالب الحياة الى ان توفي سنة 488 هـ، ودفن باغمات بعد ان حكم ثلاثة وعشرين عاما، وكان عمره عند وفاته سبعا وخمسين سنة وبضعة اشهر، ولقد شرد ابناؤه بعد وفاته في بلاد المغرب ولم ينقل لنا التاريخ عنهم شيئا، ويذكر لنا ابن اللبانة انه رأى «حفيد المعتمد وهو غلام وسيم وقد اتخذ الصياغة صناعة وكان يلقب في ايام دولتهم بعز الدولة وهو من الالقاب السلطانية عندهم

---

1) راجع قلائد العقيان ص 25، 27. نفح الطيب ج 2 ص 454 - 455. وفيات الاعيان ج 2 ص 33.

2) قلائد العقيان ص 25. وقد نقل عنه المقري في نفح الطيب ج 2 ص 454

فنظر اليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ وقد جلس في السوق وهو يتعلم الصياغة » (1).

ويقال ان المعتمد عند ما حضرته الوفاة رثى نفسه بقصيدة وامر ان تكتب على قبره. فقال :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقا ظفرت باشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت ... بالخصب ان اجدبوا بالري للصاد
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا ... بالموت احمر بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم بالبحر في نعم ... بالبدر في ظلم بالصدر في النادي
نعم هو الحق جاباني به قدر ... من السماء فوافاني لميعاد
ولم اكن قبل ذلك النعش اعلمه ... ان الجبال تهادى فوق اعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكي اخاه الذي غيبت وابله ... تحت الصفيح بدمع رائح غاد
حتى يجودك دمع الطل منهمراً ... من اعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولا تزل صلوات الله دائمة ... على دفينك لا تحصى بتعداد (2)

وزار قبره ابو بكر بن اللبانة ورثاه بقصيدة مؤثرة ابكت السامعين، فيقول الصيرفي (3) «ولما انفصل الناس من مصلى العيد الذي توفى المعتمد في شهره حف بقبره ملا من الناس يتوجعون له ويترحمون عليه واقبل شاعره ابن عبد الصمد (وهو ابو بكر بن اللبانة) في جملتهم، وقد اتفق حضوره يومئذ لبعض شأنه فوقف على قبره وانشد:

ملك الملوك اسامع فانادي ... ام قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت في الاعياد

1) وفيات الاعيان ج 2 ص 34. نفح الطيب ج 2 ص 393 .
2) الذخيرة قسم 2 ص 133. المعجب ص 101.
3) راجع الذخيرة قسم 2 ص 33. قلائد العقيان ص 30 - 31 . نفح الطيب ج 2 ص 458 . وفيات الاعيان ج 2 ص 34.

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا ... واتخذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت أحسب ان تبدد ادمعي ... نيران حزن اضرمت بفؤادي
فاذا بدمعي كلما اجريته ... زادت على حرارة الاكباد
فالعين في التسكاب والتهتان والـ ... أحشاء في الاحراق والايقاد
يا أيها القمر المنير أهكذا ... يمحى ضياء النير الوقاد؟!
افقدت عيني مذ فقد اناره ... لحجابها في ظلمة وسواد
ما كان ظني قبل موتك ان ازر ... قبرا يضم شوامخ الاطواد
الهضبة الشماء تحت ضريحه ... والبحر ذو التيار والازباد
عهدي بملكك وهو طلق ضاحك ... متهلل الصفحات للقصاد
والمال ذو شمل بداد والندى ... يهمي وشمل الملك غير بداد
أيام تخفق حولك الرايات فـ ... ـوق كتائب الرؤساء والاجناد
والامر أمرك والزمان مبشر ... بممالك قد أذعنت وبلاد
والخيل تمرح والفوارس تنحني ... بين الصوارم والقنا المياد

وكذلك زار قبر المعتمد لسان الدين بن الخطيب سنة 771 هـ،
فوجد قبره ، نشر من الارض وقد حفت به سدره والى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاه رميك وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول فانشد عند رؤيته:

قد زرت قبرك عن طوع باغمات ... رايت ذلك من اولى المهمات
لم لا ازورك يا اندى الملوك يدا ... ويا سراج الليالي المدلهمات
وانت من لو تخطى الدهر مصرعه ... الى حياتي لجادت فيه ابياتي
انا بقبرك في هضب يميزه ... فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا ... فانت سلطان احياء واموات
ماريء مثلك في ماض ومعتقدى ... ان لا يرى الدهر في حال وفى آت(1)

وقد زار هذا القبر ايضا احمد المقري سنة 1010 هـ، ويقول ان

---

1) اعلام الاعلام ج 3 ص 191 - 192. نفح الطيب ج 2 ص 458.

ابن الخطيب» (1).

☆ ☆ ☆

كانت خاتمة المعتمد - كما رأينا - ماساة عنيفة لو وجد كاتبا روائيا لاخرج لنا منها قصة حزينة تهز المشاعر وتثير الشجون. وكان ما لقيه المعتمد في منفاه باغمات مدعاة لادباء الاندلس ومؤرخيهم ومن ورائهم اخوانهم في الشرق لان يصموا يوسف بن تاشفين باقذع الوصمات ومن اشهر هؤلاء واولئك المؤرخ ابن الاثير الذي يقول تعليقا على هذه الحوادث: «وفعل امير المسلمين بهم افعالا لم يسلكها احد ممن قبله ولا يفعلها احد من ياتي بعد الا من رضي لنفسه الرذيلة.... فابان امير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدرة» (2).

ونحن وان كنا نتالم كثيرا لماساة المعتمد، كملك تربى بين اعطاف السؤدد والنعيم، الا اننا مع ذلك ينبغي ان نقرر ان ابن تاشفين لم يكن في معاملته للمعتمد خارجا عما كان - ولا يزال - مؤلوفا في مثل هذه الحوادث، بل اننا اذا استعرضنا حوادث التاريخ ونظرنا الى ما كان يفعل بملوك الشرق - في عصر ابن تاشفين - من سمل العيون وتمثيل بالملوك لوجدنا ان يوسف كان رحيما الى حد كبير بالمعتمد واسرته، وينبغي ان لا نغفل - عند تعليقنا على هذه الحوادث - النزاع الخطير الذي كانت تتاجج ناره وتخبو اخرى - بين العرب والبربرفي كل من المغرب والاندلس، وكان العرب يريدون ان

1) نفح الطيب ج 2 ص 458.
2) ابن الاثير ج 10 ص 76 - 79.

يطبقوا في هذه البلاد نفس السياسة التي كانوا يسيرون عليها في بلاد الفرس وكما اصطدموا في الشرق بالقومية الفارسية التي كانت من اهم العوامل التي حطمت دعائم بني امية في الشرق، فانهم كذلك لقوا مقاومة عنيفة من البربر في المغرب والاندلس (1).

وكان عصرنا الذى نؤرخ له من اشد عصور الاندلس اضطرابا وعنفا في سبيل تحقيق السيادة لاحد الفريقين وقد امعن بنو عباد - الذين كانوا يرمون الى توسيع مملكتهم على حساب دويلات البربر المجاورة - امعن هؤلاء تقتيلا وتشريدا في البربر المجاورين لهم حتى حققوا اطماعهم وكانت للمعتضد بساحة قصره حديقة مجللة برؤوس قواد البربر وملوكهم، وكان لا يحلو له شرب الخمر الا اذا كان مشرفا عليها وكانت له بجانب هذه الحديقة - خزانة - ملأى برؤوس البربر كان يعتني بتطييبها، وقد بقيت هذه الخزانة الى ان استولى المرابطون على اشبيلية فسلموا الرؤوس الى ذويها (2). ومن الغريب ان تقع هذه الحوادث دون ان نسمع صوتا يرتفع من الذين يندددون الآن بسلوك ابن تاشفين نحو اسرة بني عباد، بل بالعكس نجد احد شعراء الاندلس وهو ابن عمار يشيد بقسوة المعتضد هذه ويصف خصومه البربر بأنهم يهود وان تسموا بربرا.

سقيت بسيفك امة لم تعتقد	الا اليهود وان تسمت بربرا
اثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم	لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء كماتهم	لما علمت الحسن يلبس احمرا (3)

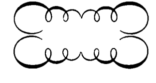
وقد سار المعتمد في نفس السياسة التي كان يسير عليها والده فشن حربا شعواء على البربر وأدت به اطماعه الى ان تحالف مع

---

1) راجع ص 18 من هذه الرسالة.
2) راجع ص 69 من هذه الرسالة .
3) راجع ص 102 من هذه الرسالة .

المسيحيين ضد اخوانه المسلمين وكان من اثر هذا التحالف ان استولى الاذفونش على طليطلة وانتزاعها من يد التادر بن ذي النون وهو بربري وبالتالي كان سينتزع اشبيلية من صديقه المعتمد لولا ان تدارك ابن تاشفين الامر وكانت موقعة الزلاقة كما رأينا .

هذه كلها اعتبارات ينبغي ان يضعها نصب عينيه كل من يحاول التعليق على الحوادث التي ادت الى نفي المعتمد واسرته ، اذ بذلك توضع الامور فى نصابها .



الباب الرابع

الحياة في اشبيلية ايام دولة بني عباد

- أ -

نظـم الحكــم

ان بني عباد عند ما وصلوا الى ملك اشبيلية ساسوا ملكهم وفق التقاليد الاندلسية الاسلامية، فاذا تحدثنا اليوم عن نظم الحكم فى دولة بني عباد فانما نتحدث فى الوقت ذاته عن نظـم الحكم الاسلامي في الاندلس سلفا الا ان بعض التقاليد التى سنعنى بالحديث عنها ، كان من مبتكرات بني عباد اقتضته ظروفهم الخاصة وسنشير الى ذلك كما ياتي.

البيعة

كانت مراسم البيعة تقام فى المسجد فيجتمع فيه اهل الحل والعقد يقدمون فروض الولاء والطاعة للملك الجديد، وكان على اليهود ايضا ان يظهروا ولاءهم للملك فكانوا يقسمون له يمين الاخلاص بمجرد ان ينادى بولي العهد.

وكان الملك هو الرئيس الاعلى للدولة فعنه تصدر جميع الاوامر وطاعته فرض على كل فرد من رعاياه، ومن حدثته نفسه بمخالفة اوامر الملك او التقصير في تنفيذها عوقب بكل شدة، (2) وكان ملوك بني عباد يعتقدون - كسائر الملوك الاتوقراطيين في العصور الوسطى - انهم خلفاء الله في ارضه وانهم غير مسؤليين في تنفيذ سياستهم امام احد من خلقه .

الـوزارة

وكان يعاون الملك في اداء مهمته طائفة من الـوزراء يختـارهـم للمجالسه والتشاور ، وقـد افرد ملـوك الاندلس « لكل صنف وزيـرا فجعلـوا لحسبان المال وزيـرا وللترسيل وزيرا ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر في احوال اهل الثغور وزيرا وجعل لهـم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون امر السلطان هناك كل فيما جعل له » وكان الوزيرالذي ينوب على الملك يسمى بذي الوزارتين - كنية - على انه يملك زمام السيف والقلم (3) .

وكان الوزراء في عهد القاضي ابن القاسم محمد بن عباد وكذلك

1) كوندى ج 2 ص 176 - 177.
2)ص71 - 72 من هذه الرسالة.
3) ابن خلدون (المقدمة) ص199 -200.نفح الطيب ج 1 ص101.السيد امير علي ص481.

في عهد ابنه المعتضد - معرضين لاخطار شديدة من ملوكهم، فكثيرا ما نكل بهم فقتلوا او شردوا ، وذلك لان ملوك بني عباد كانوا غير دستوريين وكان الوزراء منهم بمثابة المنفذين لاوامرهم فحسب، فاذا ما ساورت الملك شبهة من ناحية وزيره نكل به في الحال (1)

الحجابة

وكان الملك يميز من بين هيئة وزرائه شخصا فيقربه اليه ويسميه بالحاجب ، وكانت مهمته ان يحجب الملك عن الخاصة والعامة ، ويتردد بين الملك وبين وزرائه . وفي العصر الذي نؤرخ له « ارتفعت خطة الحاجب ومرتبته عن سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها ، ونقشت اسماؤهم على السكة» وكان اعظمهم ملكا بعد انتحال القاب الملك واسمائه، لابد له من ذكر الحاجب (2) واصبحت الحجابة في عصر بني عباد من القاب الشرف لا تسند الا للامراء من البيت المالك، وكان اول حاجب - في دولة بني عباد - هو اسماعيل بن القاضي ابن القاسم، انتدبه والده لحجابة هشام الحصري لما استجلبه الى اشبيلية. فكان اسماعيل يقف على باب هشام ليكون واسطة بينه وبين من يرغب في مقابلته، وعندما سقط اسماعيل في حومة الوغى اسند القاضي حجابة هشام الى ابنه الثاني ابي عمرو محمد المعتضد، اما في عصر المعتضد فقد اسند الحجابة الى ابنه اسماعيل فلما قتله استدعى المعتضد ابنه الثاني محمداً الظافر (المعتمد فيما بعد) واسند اليه الحجابة(3) وفي عصر المعتمد تطورت الحجابة ، اذ اصبحت حقا مشاعا بين ابناء المعتمدالكثيرين، فسراج الدولة، والظافر، وعضد الدولة، والرشيد، كلهم

1) راجع ص 45 ، 66 - 67 - 68.من هذه الرسالة
2) مقدمة ابن خلدون ص 199 - 200 نفح الطيب ج 1 ص 101
3) راجع ص 60 من هذه الرسالة .

الــــولاة

جرت العادة ان تسندولاية الاقاليم اوالمدن الكبيرةالى ولاة يختارون لتنفيذ السياسة التي ترسمها لهم الحكومة المركزية، فلما بدأت اشبيلية توسع نفوذها على حساب الامارات الصغيرة أصبح بنو عباد يعتمــدون في حكم هذه الامارات على امراء من البيت المالك » فنـرى المعتضـد « عندما اجتاحت جيوشه ولاية (شلب) اسنـد حكمها الى ابنه المعتمد ، ولما سقطت ولبة ولبلة وجبل العيون ضم المعتضد هذه الولايات الى المعتمد ايضا.

وقد سار المعتمد في نفس الطريق التي سار فيها والده من قبـل فوزع ابناءه ليضبطوا له مدن : قرطبة والجزيرة الخضراء ورندة ، وهكذا كان بنو عباد يسيطرون بأنفسهم على جميع الانحاء في مملكتهم خشية ان تعمد بعض الولايات الى الخروج عن طاعتهم كما فعلت مرسية فـي عهد الوزير ابن عمار والقائد ابن رشيق .

الشرطـة

كان رئيس الشرطة بالاندلس يسمى «صاحب الشرطة» كما كان يسمى «صاحب المدينة» وكان المسؤول عن أمن المدينة، والى جـانب ذلك كان يواظب على الحضور الى القصر الملكي ليرفع للملك اخبار المدينة ويقوم بحراسته عند خروجه، وكان صاحب هذه الخطة يختص بالنظر في الجرائم واقامة الحدود في الزنى وشرب الخمر وغير ذلك.

ولما كانت احياء مدن الاندلس تنقسم الى دروب، وكل دربله

وكانت خطة الاحتساب تسير على نمط ما كانت عليه ايام الامويين ، اذ كان صاحبها يختار من بين القضاة ، كما كانت لها احكام مدونة تدرس كما تدرس احكام القضاء، وكان على المحتسب ان يخرج في عصبة من اعوانه بين آونة واخرى في الاسواق لمراقبة الاسعار ومعاينة ما يباع من المأكولات حتى يتأكد بنفسه من عدم الغش في المأكل والمشرب ، وكان كل من يحاول ان يبدل او يغير في المبيعات او يحاول التطفيف في الكيل يعاقب بالجلد او النفى (2).

ديوان الرسائل

وكانت الكتابة عندهم على قسمين اشرفها كتابة الرسائل، وكان صاحبها له مقام مرموق في الدولة، وكان لا ينادى الا بالكتابة لشرف هذا الاسم عندهم وكان الاندلسيون «كثيري الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة فأن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الالسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه».

اما القسم الثاني من الكتابة فكان صاحبه يعرف بكاتب الزمام او الجهبذة وكان لا يكون بالاندلس نصرانيا ولا يهوديا ، وكان يعهد اليه بالنظر في شئون اهل الذمة (3) .

---

1) ابن خلدون (المقدمة) ص 185. نفح الطيب ج 1 ص 102. السيد امير علي ص 482.
2) ابن خلدون (المقدمة) ص 188. نفح الطيب ص 101.
3) نفح الطيب ص 101.

ومن الخطط الاسلامية التي كانت مرموقة في الاندلس خطة الاحباس (الاوقاف) وممن تولى هذه الخطة في عهد ايام بني عباد عبد الرحمن ابن محمد «البيرو» وقاسم بن كهلان، وبما ان صاحب الاحباس كان يؤمن على اموال وعقار المسلمين فقد كان يسمى أيضا بالامين، وكانت تصرف اموال الاحباس في بناء المساجد واصلاحها كما كانت تنفق في ترميم وتحديد العقار المحبسة لتدر على الخزانة اموالا تنفق في مصالح المسلمين(1).

الجيش

كان جيش بني عباد ـ كغيره من جيوش الدويلات الاسلامية بالاندلس ـ يضم بين صفوفه اجناسا مختلفة من صقالبة واسبانيين وعرب وبربر وسودانيين، وكان بنو عباد ينفقون بسخاء على جيشهم لتكون لهم قوة حربية يستطيعون بها رد هجمات اعدائهم (2).

وكانت قيادة الجيش في غالب الاحيان تسند الى امراء من البيت المالك فقد كان يتولاها في عهد القاضي ابنه اسماعيل، وفي عهد المعتضد كان يتولاها ابنه اسماعيل، كذلك فلما قتل بيد ابيه اسندت جميع اعماله الى اخيه محمد الظافر «المعتمد» وفي العهد الاخير الذي توالت فيه المحن والكوارث على بني عباد كان المعتمد يخرج بنفسه على رأس جيشه، بمعاونة ابنائه وبعض القواد المخلصين له.

وكان الجيش يقسم عند ابتداء المعركة الى، مقدمة وقلب وجناحين ومؤخرة، وكان في كثير من الاحيان يحتفظ بقسم من الجيش احتياطيا

1) راجع الكتابات العربية في اسبانية ص 42 - 48 - 49.
2) راجع اسكوت ج 2 ص 118 - 119. وص 42 من هذه الرسالة.

في كمين حتى اذا حمي وطيس المعركة هجم هذا الاحتياطي على العدو فيحدث في صفوفه ارتباكا وبذلك تصبح هزيمة العدو محققة (1) وكان القائد الذي يفوز بالنصر في احدى المعارك يجازى عن عمله بما يستحق، ونرى ذلك واضحا عندما استطاع القائد ايوب بن عامر اليحصبي تفريق جند البربر وهزيمتهم سنة 429 ه. فان القاضي ابا القاسم جازاه على ذلك بان منحه ولبة وجزيرة شلطيش على ان يدفع الجزية لبني عباد (2). وكذلك نرى المعتضد يمنح ابنه المعتمد درعا من اللازورد الازرق مرصعا بنجوم من الذهب تحيط بهلال مذهب، وذلك عندما احرز المعتمد بعض الانتصارات على خصوم بني عباد (3).

البحرية

وكان لبني عباد اسطولان احدهما حربي والثاني تجاري وقد ادى الاسطول الحربي للدولة خدمات جليلة فبفضله استطاع بنو عباد ان يضيقوا الحصار على الجزيرة الخضراء ويثلوا عرش بني حمود (4). وبهذا الاسطول ايضا استطاعوا ان يحطموا مقاومة سقوت البرغواطي بمدينة سبتة (5)

النقود

كان لبني عباد نقود مضروبة باسمهم وقد نقل لنا فرنسيسكو كوديرا في كتابه «النقود العربية الاسبانية (6)» صورا لنقود مضروبة باسم المعتضد وابنه محمد المعتمد، واغلب الظن انه لم تكن لمؤسس

1) راجع ص 55، 81. من هذه الرسالة .
2) يوسف اشباخ ج 1 ص 41. راجع ايضا ص 58 من هذه الرسالة .
3) كوندي ج 2 ص 173.
4) راجع ص 91 من هذه الرسالة.
5) راجع ص 161 من هذه الرسالة .
6) ص 136 - 141 - 142 - 244

دولة بني عباد القاضي أبي القاسم نقود سكت باسمه، أذ ان كوديرا على سعة اطلاعه في هذا الشأن وعنايته الفائقة بحصر كل ما عثر عليه من النقود الاندلسية لم يورد لنا شيئا عن نقود ضربت باسم القاضي. ويظهر ان القاضي قد اكتفى بان تضرب النقود باسم هشام على ان يضاف اليها لقب الحاجب عباد، وقد وجدت بالاندلس عملة تفيد هذا المعنى اذ اننا وجدنا نقوداً مضروبة في سنة 437 هـ و38 و 39 مكتوبا على احدى وجهيها «الامام هشام امير المؤمنين المؤيد بالله» وفى الجهة الاخرى « الحاجب عباد».

ويظهر ان نقود المعتضد ضربت بقرطبة. اما نقود المعتمد فقد ضرب بعضها في اشبيلية حسب السنوات الآتية:

سنة 465 هـ. ـ 66 ـ 67 ـ 468 ـ 69 ـ 70 ـ 72 ـ 76 ـ 78. وبعضها في قرطبة فى سنوات: 461 ـ 63 ـ 64 ـ 65 ـ 469 ـ 473، ثم نجد نقودا اخرى مضروبة في مرسية، وكانت نقود المعتضد يكتب عليها هذه العبارة «المعتضد بالله» ثم مضافا الى ذلك اسم احد أبنائه مثلا «الحاجب اسماعيل» او «الحاجب محمد» او «الحاجب الظافر المؤيد» اما نقودالمعتمد فكانت تحمل اسم «المعتمد على الله» ولقب ابنائه وهم «الحاجب سراج الدولة» او «الحاجب هاشم» او الحاجب «الظافر الموفق» وقد اورد فرنسيسكو كوديرا فى كتابه «النقود العربية الاسبانية»(1) جدولا باسماء ملوك وحجاب بني عباد التى وجدت منقوشه على النقود رأينا لاتمام الفائدة ان ننقله هنا.



1) ص 136 - 141 - 142 - 144.

نقود المعتضـــــــــــــــد

438 - 437	الحـاجـب	
439 41 - 40 - 439	عبـاد المعتـضـد	محـمـد الحـاجـب
44 - 43 - 42 48 - 45 53 - 52 - 45	بالله المعتضد	اسمـاعيل الحاجب
57 - 56 - 54 58 - 57 - 456	بالله المعتضد	محمـد الـظـافـر
61 - 60 - 50 458 - 456	بالله المعتضد	المؤيـد بالـلـه الظـافـر
59	بالـلـه	مـحـمـد

نقود المعتمد

أندلس	461	الظافر	الحاجب
	461 ؟	الظافر	سراج الدلة الحاجب
	462 ـ 63	المعتمد على الله	سراج الدولة هاشم
	463 64	المعتمد على الله	هاشم
اشبيلية	465	المعتمد على الله	هاشم
	466 467	المعتمد على الله	سراج الدولة الظافر
	468	المعتمد على الله	الموفق الحاجب
	470 ـ 72 60	المعتمد على الله	عضد الدولة

قرطبة	76 ـ 78 47	المعتمد على الله	الرشيد
	72 461	الظافر	الرشيد الحاجب
	464	المعتمد على الله	سراج الدولة الحاجب
	463	المعتمد على الله	سراج الدولة ابن فرحون
مرسية	64 ـ 65 469	المعتمد على الله	عضد الدولة الرشيد
	48	المعتمد على الله	المامون
	48 ـ 80	المعتمد على الله	الرشيد
	483	ابو جعفر ابن المعتمد على الله	الرشيد
		جعفر	الرشيد

القضاء

كان منصب القضاء من اعظم الوظائف الاسلامية لاتصاله بأمور الدين، وبعد ما كان قاضي المسلمين - في اول الامر - يعرف بقاضي الجند اصبح يعرف بقاضي الجماعة او قاضي القضاة وهو بمثابة وزير العدل في عصرنا الحاضر، اما القاضي الذي يزاول اعماله في مدينة صغيرة فلا يطلق عليه الا «مسدد» خاصة» (1) ومن اهم من تولى هذا المنصب القاضي محمد بن احمد بن عيسى بن منظور القيسي المتوفي سنة 464 ه، والقاضي احمد بن احمد بن عيسى بن منظور القيسي المتوفي سنة 520 ه، والقاضي شريح بن محمد الرعيني المتوفي سنة 539ه (2).

مجلس الشورى

وجرت العادة بان يكون للقضاة مجالس شورى يرجعون اليها فيما يشكل عليهم، وكان لا يعين في مجلس الشورى الا المبرزون في معرفة الاحكام الشرعية وكان يرأس هذا المجلس قاضي القضاة، وممن تولى الرياسة في عصر بني عباد: القاضي عبد الله الرشيد بن المعتمد والفقيه احمد بن احمد بن عيسى بن منظور القيسي (3).

1) القضاة في قرطبة ص 28 - 34. نفح الطيب ج 1 ص 101.
2) راجع الصلة رقم 128 - 531 - 1080 .
3) الصلة ج 1 رقم 128. كوندي ج 2 ص 195.

الحالة الاقتصادية

الزراعة

اشتهرت اشبيليه بزراعة الزيتون فكان اقليم الشرف - وهو عبارة عن جبل من تراب احمر طوله اربعون ميلا وعرضه اثنى عشر ميلا - ملتحفا باشجار الزيتون والتين، فكان لتين اشبيلية وزيتونها شهرة عظيمة حتى ان بعض الشعراء قال فيهما :

وحمص لا تنسى لها تينها   واذكر مع التين زياتينها (1)

ومما فاقت به اشبيلية غيرها من نواحي الاندلس زراعة القطن الذي كان يحتمل منها الى جميع بلاد الاندلس والمغرب (2).

ويذكر لنا المقري (3) ان ضفتي نهر اشبيلية كانتا مطرزتين بالمنازل والبساتين، كما كانت الدور لا تخلو من الاشجار المتكائفة

1) وورد هذا البيت كما ياتي:
لا تنسى لاشبيلية تينها   واذكر مع التين زياتينها
وهو نحو الاول لان حمص هي اشبيلية. راجع نفح الطيب ج 1 ص 74 - 76 - 77. الادريسي ص 178.
2) معجم البلدان ج 1 ص 254.
3) نفح الطيب ج 2 ص 150 - 151 .

كالنارنج والليمون والليم والزنبوع، يضاف الى ذلك كثير من الازهار والرياحين كالنرجس والبهار والبنفسج والخيري(1).

الصناعة

وبرع اهل اشبيلية في صناعة الادوات الموسيقية التي كانوا يصدرون الفائض منها عن حاجاتهم الى الخارج كما برعوا في اعمال النقش والزخرفة وصناعة التماثيل.

التجارة

وكان في اشبيلية اسواق قائمة وتجارة رابحة، واهلها ذوي اموال عظيمة وكانت اكثر تجارتهم في الزيت، وكانت مراكب اشبيلية تخرج من الوادي الكبير الى البحر فتمر ببعض الموانىء ببلاد المغرب تفرغ شحناتها من الزيت والقطن وادوات الطرب ثم تستأنف سيرها الى الاسكندرية حيث تفرغ شحنات زيت اشبيلة التي كانت تصدرها الى القطر المصري، وكانت كذلك تستورد الاقمشة والرقيق من مصر والقيان من اوربا(2).

---

1) راجع الرسالة التي بعثها ابو الوليد اسماعيل الملقب بالحبيب الى المعتمد يفضل بها الورد على جميع الرياحين في الذخيرة قسم 2 ص 71.

2) نفح الطيب ج 2 ص 150 - 151. معجم البلدان ج 1 ص 254. تاريخ العرب لفليب حقي ص 81 - 206.

الحيـاة الاجتمـاعيــــــــــة

اشبيليــة

كانت اشبيلية فى عصر بني عباد ازهى مدن الاندلس فقدكانت دورها المنتشرة على ضفة نهر الوادي الكبير من افخـم بيـوت الاندلس بما تحتوي عليه من فخامة البناء وسلامة الذوق . وكانت دور اشبيلية لا تختلف على غيرها فى سائر مدن الاندلس، فقد اعتمد اهل الانـدلس في بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية فى الغالب ، وجعلوا في الدور فناء او صحنا في وسطه بركة مـن ماء وعـلى جانبيهـا الازهـار والاشجار وتقوم بعض طنـوف الطبقة الثانيـة من البنـاء على عمد مـن الرخام وغيره، والدور طبقتان فقط سفلية للصيف والطبقة العلويةللشتاء وبدخل الى الدار من الدهليز (1) . وكـان كل منزل باشبيلية لا يخلو من الماء الجاري والاشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمـون والرنبـوع وغير ذلك (2) ولم تقتصر اقامة التماثيل الفنية على دور الملوكوالامراء بل تعدتها الى الحمامات الشعبية ، فكان باقليم طالقة من اقاليم اشبيليـة

1) غابر الاندلس وحـاضرها ص 27.

2) نفح الطيب 2 ص 150 - 151.

صورة جارية من مرمر معها صبي وكأن حية تريده لم يسمع في الاخبار ولا روي في الآثار صورة ابدع منها جعلت في بعض الحمامات وتعشقها جماع من العوام (1) ووصفها بعض الشعراء بقوله :

ودمية مرمر تزهو بجيد	تناهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا	ولا المت باوجاع المخاض
ونعلم انها حجر ولكن	تيمنا بالحاظ مراض

وكان في قصر المعتمد فيل من فضة على شاطئ بركة يغدق الماء من فيه وذات يوم جلس المعتمد على تلك البركة والماء يجري من ذلك الفيل وقد اوقد شمعتان من جانبيه والوزير ابو بكر بن الملح عنده فصنع الوزير فيهما عدة مقاطع منها:

وانبوب ماء بين نارين ضمنا	هوى لكؤس الراح تحت الغياهب
كأن اندفاع الماء بالماء حية	يحركها في الماء لمع الحباحب
(وكأن سراجي سريهم)في التظائها	وانبوب ماء الفيل في سيلانه
كريم تولى كبره من كليهما	لئيمان في انفاقه يعذلانه (2)

قصور بني عباد

اما قصور بني عباد فكانت « في غاية الحسن والبهاء وفيها انواع ما يحتاج اليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك»(3). و«كان القصر الزاهر - وهو احد قصور المعتمد - من اجل المواضع لديه وابهاها واحبها اليه واشهاها لاطلاله على النهر واشرافه على القصر وجماله في العيون واشتماله بالشجر والزيتون وكان له به من الطرب والعيش المزري بحلاوة الضرب ما لم يكن بحلب لبني حمد ان ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان ».

1) نفح الطيب ج 1 ص 77 - 249.
2) نفح الطيب ج 2 ص 479.
3) نفح الطيب ج 2 ص 534.

لم نعد نسمع في هذا العصر - وهو عصر التدهور السياسي في الامارات الاسلامية - بروعة وجلال الاستقبالات التي كان يقابل بها سفراء الدول في بلاط بني امية، وكان ملوك الاندلس - في العصر الذي نحن بصدده - كثيرا ما يتبادلون السفارات مع جيرانهم ملوك المسيحيين، وكذلك مع بعضهم البعض، غير ان طابع السفارات قد تغير على ما كان عليه في عصر بني امية، فبعد ما كان السفراء في العصر الاموي يأتون الى قرطبة محملين بالهدايا النفيسة فيقابلون بها استقبالا رائعا، نجد سفراء المسيحيين اليوم يأتون الى اشبيلية في ثوب المتعجرفين، وبعد ما كان هؤلاء السفراء يقدمون الهدايا النفيسة والتحف النادرة الى بلاط بني امية نجدهم اليوم يأتون الى اشبيلية وغيرها من الامارات الاسلامية وليس معهم الا صك فيه بيان بما يجب على الامير ان يقدمه من جزية لملك النصارى.

وكانت اول سفارة من هذا النوع عند ما بعث فرديناند سنة 457 هـ. (1065م)، بعض اساقفته الى اشبيلية ليقبض من ملكها «المعتضد» الجرية المفروضة عليه، وليحمل معه جثمان احد القديسين المسيحيين (1).

وفي عصر المعتمد بن عباد كانت السفارة متبادلة بينه وبين ملوك النصارى تبعا للظروف السياسية فمرة يكون طابع السفارة، وديا ومرة نراه عدائيا، فعند ما تطلع المعتمد الى الاستيلاء على بعض الامارات الاسلامية وخشي من نفوذ ابن ذي النون الذي كان يتمتع بمساعدة ملك قشتالة، رأى ان يسعى في التفريق بين المتحالفين فبعث وزيره سفيرا من قبله الى صديقه سيد برشلونة «ريموند الكبير» يطلب منه ان يعاونه عند الحاجة، وكذلك بعث هذا الوزير الى قشتاله سنة 471 هـ.

1) ملوك الطوائف ص 171 - 176. راجع ايضا ص107 - 108. من هذه الرسالة.

(1079 م) ليفاوض الاذفونس في عقد معاهدة وقد كللت اعمال السفير بالنجاح فى كلتا السفارتين (1) ولما تحرجت الاحوال في الاندلس واصبحت كفة المسيحيين هي الراجحة؛ اصبح سفراء المسلمين يقابلـون بـالسخرية والازدراء. وقد ظهر ذلك واضحا عندما قابل وفد طليطلة وغيـره من وفود اهل الاندلس، الاذفونس (2) .

وكانت آخر سفارة بين بني عباد وملوك المسيحيين هي سفارة ابن شالب اليهودي الى المعتمد بن عباد وقد اظهر هـذا السفير مـن الوقاحة امام المعتمد ما استدعى هذا الاخير ان يقتل اليهودى بيده وان يصدر اوامره الى جنده ليقضوا على اكثر اعضاء الوفد الذين كانوا فى صحبتـه (3) .

وكما كـانت هناك سفارات بين المسلمين والمسيحيـين فكذلك كانت ملوك الاندلس يتبادلون السفارات مع بعضهم البعض ونرى ذلك فى السفراء الذين كان يبعثهم ابن جهور الى بني عباد وخصومهم ليكون واسطة خير بين المتخاصمين (4)

وفى سنة 436 هـ . جاء الى اشبيلية وفد من اهل طليطلة وعلى رأسه الوزير ابو عمرو بن الحدى ليقدموا بيعة يحيى بن ذي النون الى هشام الحصري فاستقبلهم المعتضد احسن استقبال وقرئت البيعة فى مسجد اشبيلية (5)

وكان يتخلل هذه الوفادات كثير من الحوادث التي تدل على علو

---

1 كوندي ج 2 ص 190 - 192 . يوسف اشباخ ج 1 ص 59 - 60. راجع ايضـا ص 134 - 135. مـن هذه الرسالة.

2) الذخيرة قسم 4 ج 1 ص727 وما بعدها، وراجع ايضا ص138 - 139. من هذه الرسالة.

3) راجع ص 164. من هذه الرسالة .

4) راجع ص 83 - 84. من هذه الرسالة

5) راجع ص 57 - 58. من هذه الرسالة.

كعب الشعراء في الأدب كما تدل على حاضر بديهتم وقد كان ملوك بني عباد يقابلون ذلك بما فطروا عليه من تبسط .

بعث اقبال الدولة بن مجاهد العامري والمعتصم بن صمادح صاحب المرية والمقتدر بن هود ملك الغرب سفراءهم الى المعتمد ليصلحوا ذات البين بين المعتمد وابن ذي النون، وكان يمثل هذا الوفد ابو عثمان ابن سنتفير وابو عمر بن عبد شلب فسر المعتمد بقدومهم واكرمهم ودعاهم الى طعام صنعه لهم وكان لا يظهر شرب الراح منذ ولي الملك، فلما رأوا انقباضه عن ذلك تحاموا الشراب فلما امر بكتب اجوبتهم كتب له ابو عامر :

بقيت حاجة لعبد رغيب	لم يدع غيرها له من نصيب
هي خيرية المساء حديثا	وانا في الصباح اخشى رقيبي
فاذا امس كان عندي نهارا	لم تخفني عليه بعد الغروب
واذا الليل جن حدثت جلا	سي بما كان من حديث غريب
قيل ان الدجى لديك نهار	وكذاك الدجى نهار الاريب
فتمنيت ليلة ليس فيها	لذكا (1) ذلك السنى من مغيب
حيث اعطيك في الخلاء وتعطيـ	ـني مداما كمثل ريق الحبيب
ثم اغدو كانني كنت في النوم	واخفي المنام خوف هزيب (2)

فسر المعتمد وانبسط بانبساطه وضحك من مجونه وكتب اليه :

يا مجابا دعا الى مستجيب	فسمعنا دعاءه من قريب
ان فعلت الذي دعوت اليه	كنت فيما رغبت عين رغيب

واستحضره فنادمه خاليا وكساه ووصله، وانقلب مسرورا وظن المعتمد ان ذلك يخفي من فعله عن ابن سنتفير فاعلمه الامر القائد ابن مرتين فكاد يتفطر حسدا، وكتب الى المعتمد :

1) كذا بالاصل

2) الهزيب عند اهل الاندلس هو الرقيب العتيد.

انا عبد وليته كل بر … لم تدع من فنون برك فنا
غير رفع الحجاب في شربك الراح … فماذا جناه ان يتجنى
وتمنى شراب سؤرك في الكأ … س فبالله اعطه ما تمنى

فسرته ابياته واجابه:

يا كريم المحل في كل معنى … والكريم المحل ليس يعنى
هذه الخمر تبتغيك فخذها … او فدعها أو كيفماشئتكنا(1)

وقد ارسل المعتصم بن صمادح وزيره ابا الاصبغ عبد العزيز بن الارقم سفيرا الى المعتمد ليعالج بعض الشئون التي تهم الامارتين، ومعه الوزير ابو عبيدالبكري، والقاضي ابو بكر بن صاحب الاحباس، فلما قرب الوفد من اشبيلية كتب الوزير ابو الاصبع بن ارقم الى المعتمد يخبره بالقدوم:

يا ملكا عظمته العرب والعجم … وواحدا وهو في اثوابه امم
انا وردناك والاقطار مظلمة … والبدر يرجى اذا ما التفت الظلم

فرد عليه المعتمد :

اهلا بكم صحبتكم نحوي الديم … ان كان لم يتبجج لي بكم حلم
حثوا المطي ولو ليلا بمجهلة … فلن تضلوا ومن بشرى لكم علم
لانتم القوم ان خطوا تجد قلم … وان يقولوا يصب فصل الخطاب فم
لاعي ان رقموا كتبا ولا حصر … اذ ينتدون ولا جور اذا حكموا
اقدم ابا الاصبغ المودود تلق فتى … هش المودة لا يزري به سأم
هذا فؤادي قد حار السرور به … ان كنت تنقلك الوخادة الرسم
سأكتم الليل ما القاه من بعد … وأسأل الصبح عنكم حين يبتسم

وكان الوزير ابو الاصبغ آية الله تعالى في الوفاء فلما تحدث مع المعتمد فيما وفد من اجله « اعجبت المعتمد محاولته ووقع في قلبه، فاراد افساده على صاحبه واخذ معه في ان يقيم عنده فقال له : ما رأيت من

1) نفح الطيب ج 2 ص 247.

صاحبي ما اكره فأوثر عند غيره ما احب، ولو رأيت ما اكره لما كان من الوفاء تركي له في حين فوض الي امره ووثق بي وحملني اعباء دولته ، فاستحسن ذلك ابن عباد وقال له : فاكتم علي . فلما عاد الى صاحبه سأله عن جميع ما جرى له في اثناء ذلك فقال له : وجرى لي معه ما ان اعلمتك به خفت ان تحسب فيه كالامتنان والاستظهار وتظن ان خاطري فسد به ، وان كتمتك لم اوف النصيحة حقها، وخفت ان تطلع عليه من غيري فيحطني ذلك من عينك وتحسب فيه كيدا، احمل عليه فى ان يعلمه فاعلمه بعد ان تلطف هذا التلطف» (1).

مجالس بني عباد

وكان بنو عباد يقضون اوقاتهم مع ندمائهم وخواص اهل دولتهم في اللهو والطرب ، يتمتعون بسماع المقطعات الشعرية والادوار الموسيقية، فيخبرنا ذخر الدولة بن المعتضد انه دخل على المعتمد فى ليلة قد ثنى السرور منامها، وامتطى الحبور غاربها وسنامها، وراع الانس فؤادها وستر بياض الاماني سوادها وغازل نسيم الروض زوارها وعوادها ونور السرج قد قلص اذيالها ومحا من لجين الارض نبالها، والمجلس مكتس بالمعالي وصوت المثاني والمثالث عالي، والبدر قد كمل والتحف بضوئه القصر واشتمل وتزين بسناه وتجمل فقال :

ولقد شربت الراح يسطع نورها	والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر فى جوزائه	ملكا تناهى بهجة وبهاء
لما اراد تنزها في غربه	جعل المظلة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يحفه	لألاؤها فاستكمل الالاء
وترى الكواكب كالملوك كب حوله	رفعت ثرياها عليه لواء

1) قلائد العقيان ص 8 . نفح الطيب ج 2 ص 291.

وحكيته في الارض بين مواكب وكواعب جمعت سنا وسناء
ان نشرت تلك الدروع حنادسا ملأت لنا هذي الكؤس ضياء
واذا تغنت هذه في مزهر لم تأل تلك على التريك غناء(1)

ويذكر ايضا ان المعتمد حن يوما الى مجالسة الطبيب ابي محمد المصري فكتب يستدعيه بهذه الابيات :

أيها الصاحب الذي فارقت عيـ ـنى ونفسي منه السنا والسناء
نحن في المجلس الذي يهب الرا حة والسمع والغنى والغناء
نتعاطى التي تسمى من اللذة والرقة الهوى والهواء
فأته تلف راحة ومحيا قد أعالك الحيا والحياء

«فوافاه والفى مجلسه قد اتلعت ابارقه اجيادها، واقامت به خيل السرور طرادها واعطته الاماني انطباعها وانقيادها واهدت الدنيا ليومه مواسمها واعيادها، وخلعت عليه الشمس شعاعها، ونشرت فيه الحدائق ايناعها، فأديرت الراح وتعوطيت الاقداح وخامر النفوس الابتهاج والارتياح واظهر المعتمد من ايناسه ما استرق به نفوس جلاسه ثم دعا بكبير فشربه كالشمس غربت في ثبير، وعندما تناولها قام المصري ينشد ابياتا تمثلها:

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا بشاذ مهر ودع غمدان لليمن
فانت اولى بتاج الملك تلبسه من هوذة بن علي وابن ذي يزن

فطرب حتى زحف من مجلسه وأسرف في تأنسه وامر فخلعت عليه ثياب لا تصلح الا للخلفاء، وادناه حتى اجلسه مجلس الاكفاء، وامر له بدنانير عددا وملأ بالمواهب منه يدا» (2)

ولقد حضر الحكيم المطرب ابو بكر الاشبيلي مجلسا من مجالس الرشيد ابن المعتمد فقال في وصفه : لقد حضرت مجلس الرشيد بن

1) قلائد العقيان ص 6 .
2) القلائد ص 7 .

المعتمد ابن عباد وعنده الوزير ابو بكر بن عمار فلما دارت الكأس وتمكن الانس وغنيت اصواتا ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب فارتجل يخاطب الرشيد:

ما ضر أن قيل اسحق وموصله ... ها انت انت وذي حمص واسحق
انت الرشيد فدع من قد سمعت به ... وان تشابه اخلاق واعراق
لله درك دارکها مشعشعة ... واحضر بساقيك ما قامت بناساق(1)

الهدايا

وكان بنو عباد يتقبلون الهدايا التي كانت ترد اليهم من افراد الشعب في مختلف المناسبات، ولم يكن الناس يتفقون في اختيار الهدية فكل على قدر استطاعته وذوقه، فنجد ابن اللبانة يهدي للمعتمد في يوم عيد ثوبا من صوف بحر اصغر وكتب معه:

لما رأيت الناس يحتفلون في ... اهداء يومك جئته من بابه
فبعثت نحو الشمس شبه اياتها ... وكسوت متن البحر بعض ثيابه(2)

واهدى ابو الوليد بن زيدون باكورة تفاح الى المعتضد وكتب له معها:

يا من تزينت الريا ... سة حين البس ثوبها
جاءتك جامدة المدا ... م فخذ عليها ذوبها (3)

وقد اهديت الى المعتمد شمعة قال في وصفها ابو القاسم بن مرزقان الاشبيلي:

مدينة في شمعة صورت ... قامت حماة فوق اسوارها
وما رأينا قبلها روضة ... تتقد النار بنوارها

---

1) نفح الطيب ج 2 ص 483.
2) قلائد العقيان ص 84 - 85.
3) نفح الطيب ج 2 ص 392.

تصيـر الـلـيـل نهـارا اذا ما اقبلت ترفـل في نارهـا
كأنها بعض الايادي التـي تحت الدجى تسري بأنوارها
مـن مالك معتمد مـاجـد بـلاده اوطـان زوارهـا

وحتى نصارى اشبيلية كانوا يشاركون مـواطنيـهـم مـن المسلمـيـن في تقديم الهدايا الى ملوكهم. فهذا ابن المرغوي النصراني الاشبيلي يهدي الى المعتمد كلبة صيد ويقول فيها:

لم ار ملهى لذي اقتناص ومكسبا مقنع الحريص
كمثل خطـار ذات جيـد اتلع فـي صفرة القميـص
كالقوس في شكلها ولكن تنفذ كالسهم للقنيـص
ان تخذت انفـهـا دليـلا دل على الكامن العويص
او انها تستثيـر برقـا لم يجد البرق من محيص

المنح والعطايا

وكان بنو عباد لا يبخلون من ناحيتهم في اسداء المنح والعطايـا لندمائهم وخواص اهل دولتهم، فيحكـى ان ابـا بكـر الصابوني شـاعر اشبيلية حضر يوما بين يدي المعتضد بن عباد وقد نـثرت امامـه جملة دنانير سكت باسمه فأنشد:

قد فخر الدينار والدرهـم اما علا ذين لكـم مـيسم
كلاهما يفصح عن مجدكم وكل جزء منه فرد فـم

الى ان قال:

كأنها الانجم والبعد قـد حقق عندي انها الارجـم

فأشار المعتضد الى وزيره فأعطاه منها جملة وقال له: بدل هـذا البيـت ليلا يبقى دما (1).

1) نفح الطيب ج 2 ص 301.

ومما يحكى عن كرم بني عباد ان ابا العرب الصقلي حضر يوما مجلسا من مجالس المعتمد بن عباد، فأدخلت عليه جملة من دنانير السكة فأنشد ابو العرب قصيدة فامر له بذهب كثير مما كان بيده من السكة الجديدة، وكان بين يدي المعتمد وقتئذ تصاوير من عنبر من بينها تمثال جمل من بلور، له عينان من اقوتتين وقد حلي بنفائس الدر فقال ابو العرب ـ معرضا بذلك الجمل ـ ما يحمل هذه الصلة الا جمل، فقال له المعتمد: خذ هذا الجمل فانه حمال اثقال، فارتجل شعرا منه:

اجديتني جملا جونا شفعت به | حملا من الفضة البيضاء لو حملا
نتاج جودك في اعطان مكرمة | لا قد تصرف من منع ولا عقلا
فأعجب لشأني فشأني كله عجب | رفهتني فحملت الحمل والجملا

وذكر ان ذلك الجمل بيع بخمسمائة مثقال فسارت بهذا الخبر الركائب وتهادته المشارق والمغارب (1).

وذكر ايضا ان المعتمد بن عباد امر بصياغة غزال وهلال من ذهب فصيغا فجاء وزنهما سبعمائة مثقال فاهدى الغزال الى السيدة ابنت مجاهد العامري والهلال الى ابنه فوقع له الى ان قال:

بعثنا بالغزال الي الغزال | وللشمس المنيرة بالهلال

ثم اصبح مصطبحا وجاء الرشيد فدخل عليه وجاء القدماء والجلساء وفيهم ابو القاسم بن المزربان فحكى لهم المعتمد البيت وامرهم باجازته فبدر ابن المزربان فقال:

فذا سكني ابوه فؤادي | وذا نجلي اقلده المعالي
شغلت بذا الطلاخلدي ونفسي | ولكني بذاك رضي البال
دفعت الى يديه زمام ملكي | محلى بالصوارم والعوالي

---

1) نفح الطيب ج 2 ص 324 - 325 ، 478.

وكانت احسن تسلية للمعتمد هي الخروج الى الصيد بالبزاة والكلاب، وقد جلس يوما والبزاة تعرض عليه فاستحث الشعراء في وصفها فصنع ابن وهبون بديها:

الصيد قبلك سنة مأثورة   لكنها بك ابدع الاشياء
تمضي البزاة وكلما امضيتها   عاطيتها بخواطر الشعراء

فاستحسنها وأسنى جائزته (2).

السباق

وقد خرج المعتمد للنزهة بظاهر اشبيلية في جماعة مع ندمائه وخواص شعرائه فلما ابعد اخذ في المسابقة بالخيول فجاء فرسه بين البساتين سابقا فرآى شجرة تين قد ايعنت وزهت وبرزت منها ثمرة قد بلغت وانتهت فسدد اليها عصا كانت في يده فاصابها وثبتت على اعلاها فاطربه ما رآى من حسنها ونباتها والتفت ليخبر به من لحقه من اصحابه فرأى ابن جامع الصباغ اول من لحق به فقال اجز: «كانها فوق العصا» فقال: «هامة زنجي عصاه» فزاد طربه وسروره بحسن ارتجاله وامر له بجائزة سنية (3).

مصارعة الوحوش

وكان المعتمد في بعض المناسبات يقيم الحفلات لمصارعة الوحوش وقد رأيناه عندما انتزع قرطبة من بني جهور اخذ يقيم الحفلات للقرطبيين

1) نفح الطيب ج 2 ص 345.
2) نفح الطيب ج 2 ص 478.
3) نفح الطيب ج 2 ص 343.

فيقيم لهم ميادين لمصارعة الوحوش (1) ولعل هذا النوع من المصارعة هو الذي لا يزال يتمثل في اسبانيا في مصارعة الثيران، اذ ان محمد لبيب البتانوني (2) يذهب الى ان «هذا النوع من الصراع قديم في بلاد اسبانيا ولا يدرون أمن طريق الرومان دخل اليها أم من طريق القرطاجنيين؟ ويقول بعضهم انه ظهر في اسبانيا بعد دخول العرب فان كان هذا صحيحا فانه يكون من طريق البربر الذين اخذوه عن القرطاجنيين لما بينهما من التبعية او الجوار، اما العرب فلا نعلم عنهم في تاريخهم انهم اشتغلوا بمثل هذا الصراع».

المجتمع الاشبيلي

وكان اهل اشبيلية من اخف الناس ارواحا قد اشتهروا بالفرح والمرح وجبلوا على اللهو والطرب، وكانوا «اخف الناس ارواحا واطبعهم نوادر، واجملهم لمزاح باقبح ما يكون من السب، قد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا» (3)

ومما ينقل عن نوادر اهل اشبيلية ان الاديب النحوي هذيل الاشبيلي خرج يوما من مجلسه فنظر الى سائل عاري الجسم وهو يرعد ويصيح: الجوع والبرد، فاخذ بيده ونقله الى موضع بلغته الشمس وقال له: صح الجوع فقد كفاك الله مؤنة البرد (4).

ومما يروي من نوادر اهل اشبيلية «ان ابن الصابوني كان في مجلس احد الفضلاء باشبيلية فقدم فيما قدم (خيار) فجعل احد الادباء يقشرها بسكين فخطف ابن الصابوني السكين من يديه فالح عليه في

---

1) راجع ص 120 من هذه الرسالة.
2) الرحلة الاندلسية ص 14 هامش.
3) نفح الطيب ج 2 ص 150.
4) نفح الطيب ج 2 ص 408.

استرجاعها فقال له ابن الصابوني كف عني والا جرحتك بها، فقال له صاحب المنزل اكفف عنه ليلا يجرحك ويكون جرحك جبارا ، تعريضا بقول النبي صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار، فاغتاظ ابن الصابوني وخرج من الاعتدال واخطأ بلسانه وماكف الا بعد الرغبة والتضرع (1).

«ومر المعتمد بن عباد ليلة مع وزيره ابن عمار على باب شيخ كثير التندير والتهكم يمزج ذلك بانحراف ويضحك الثكلى، فقال لابن عمار تعال نضرب على هذا الشيخ الساقط بابه حتى نضحك معه، فضربا عليه الباب فقال: من هذا ؟ فقال ابن عباد: انسان يرغب ان تقد له هذه الفتيلة فقال والله لو ضرب ابن عباد بابي في هذا الوقت ما فتحته له فقال: فأني ابن عباد ، فقال مصفوع الف صفعة، فضحك ابن عباد حتى سقط على الارض وقال لوزيره: امض بنا قبل ان يتعدى الصفع من القول الى الفعل» (2).

وكان في عصر المعتمد سارق يعرف بالبازي الاشهب جرت له نوادر غريبة ذكرها بعض المؤرخين (3) ، فقال: «كان زمان المعتمد السارق المشهور بالبازي الاشهب وكان له في السرقة كل غريبة، وكان مسلطا على اهل البادية ، وبلغ من سرقته انه سرق وهو مصلوب لان ابن عباد امر بصلبه على ممر اهل البادية لينظروا اليه فبينما هو على خشبته على تلك الحال اذ جاءت اليه زوجته وبناته وجعلن يبكين حوله ويقلن: لمن تتركنا نضيع بعدك ؟! واذا

---

1) نفح الطيب ج 2 ص 300.
2) نفح الطيب ج 2 ص 408.
3) نفح الطيب ج 2 ص408.

ببدوي على بغل وتحته حمل ثياب واسباب فصاح عليه ياسيدي انظر في اي حالة انا ولي عندك حاجة فيها فائدةلي ولك، قال : وماهي؟ فقال: انظر الى تلك البئر لما ارهقتني الشرط رميت فيها مائة دينار فعسى تحتال في اخراجها ، وهذه زوجتي وبناتي يمسكن بغلك خلال ما تخرجها ، فعمد البدوي الى حبل ودلى نفسه في البئر بعدما اتفق على ان ياخذ النصف منها ، فلما حصل اسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل وبقي حائرا يصيح ، واخذت ما كان على البغل مع بناتها وفرت به ، وكان ذلك في شدة حر وما سبب الله شخصا يغيثه الا وقد غبن عن العين وخلص ، فتحيل ذلك الشخص مع غيره على اخراجه وسالوه عن حاله ، فقال : هذا الفاعل الصانع احتال علي حتى مضت زوجته وبناته بثيابي واسبابي ورفعت هذه القصة الى ابن عباد فتعجب منه وامر باحضار البازي الاشهب وقال له: كيف فعلت هذا مع انك في قبضة الهلكة؟ فقال له : ياسيدي لو علمت قدر لذتي في السرقة خليت ملكك واشتغلت بها . فلعنه وضحك منه ثم قال: ان سرحتك واحسنت اليك واجريت عليك رزقا يقلك أتتوب من هذه الصنعه الذميمة؟ فقال يامولاي كيف لا اقبل التوبة وهي التي تخلصني من القتل، فعاهده وقدمه على رجال انجاده وصار من جملة حراس احواز المدينة » .

وقد اشتهر اهل اشبيلية وغيرها من مدن الاندلس ببديهتهم وسرعة خاطرهم فيذكر ان المعتمد مر مع وزيره ابن عمار ببعض ارجاء اشبيلية فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط فكشفت وجهها وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون الجبس والجيارين الصانعين للجير باشبيلية، فالتفت المعتمد الى موضع الجيارين وقال: يا ابن عمار الجيارين ففهم مراده وقال في الحال: يا مولاي والجباسين فلم يفهم الحاضرون المراد وتحيروا فسألوا ابن عمار فقال له المعتمد: لا

تبعها منهم الاغالية. وتفسيره ان ابن عبادصحف (الحيا) (زين)بقوله الجيارين اشارة الى تلك المرأة او كان لها حياً لازدانتفقال له:والجباسين وتصحيفه و(الخنا)(شين) اي هي وان كانت جميلة بديعة الحسن لكن الخنا شأنها وهذا شان لا يطاق» (1)

الخمر

وكانت مجالس اهل اشبيلية لا تخلوا من شرب الخمر سواءً في ذلك مجالس السوقة او مجالس الملوك فكانت الخمر مباحة للجميع«لا ناه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤد السكر الى شر وعربدة، وقدرام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا ازالته» (2).

ويكفي برهانا على ادمان اهل اشبيلية على شرب الخمر ما رأيناه في مجالس ملوكها وامرائها (3) حتى ان المعتمد يوما شرب حتى ثمل واصبح على تلك الحال فدخل الحمام وامر ان يدخل معه ابا الوليد البطليوسي المعرف بالنحلي، فجاء وقعد في مسلخ الحمام حتى يستاذن عليه فجعل المعتمد يحبق في الحمام وهو خال وقد بقيت في رأسه بقية من السكر، وجعل كلما سمع ذوي‌ذلك الصوت‌يقول: الجوز، واللوز، القسطل، ومر على هذا ساعة الى ان تذكر النحلي فصادفه فلما دخل فقال له من اي وقت انت هنا ؟ قال.من اول ما رتب مولانا الفواكه في النصبة فغشي عليه من الضحك‌وامر له باحسان»(4).

الزي «اللباس»

كان الغالب على اهل اشبيلية وغيرها من غربي الاندلس ان

---

1) نفح الطيب ج 2 ص 478 .
2) نفح الطيب ج 2 ص 150
3) راجع ص 102 من هذه الرسالة
4) نفح الطيب ج 2 ص 161.

يضعوا العمائمعلى رؤوسهم فكنت لا ترى عالما ولا فقيها مبرزا الا وهو بعمامة ، بخلاف ماكانت عليه الحال من مدن شرقي الاندلس، وكان المسلمون يظهرون بعمائمهم التي كانوا يرخون لها دؤابة من تحت الاذن اليسري اما اليهود فلم يكن يسمح لهم بلبس العمائم وكاناكثر عوامهم يخرج بدون طيلسان الا انه لا يضعه على رأسه منهم الا الاشياخ المعظمون، وكان المسلمون كثيرا ما يلبسون غفائر الصوف حمراً وخضرا، اما الصفر فكانت مخصوصة باليهود، ويظهر ان اللباس الاحمر كان محببا لديهم اذ اننا نجده كثيرا فى مدائحهم فلهذا نرى ابن عمار فى مدحه للمعتضد يشير الى الزي الاحمر فيقول:

وصبغت درعك من دماء كماتهم   لما علمت الحسن يلبس احمرا (1)

ويقول ابن الصابوني فى لابس احمر :

اقبل فى حلة موردة   كالبدر في حلة من الشفق
تحسبه كلما اراق دمى   يمسح في ثوبه ظبا الحدق (2)

وكان اهل اشبيلية وغيرها من مدن الاندلس يلبسون اللباس الابيض فى الحزن فيقول احد الشعراء :

الا يا اهل اندلس فطنتم   بلطفكم الى امر عجيب
لبستم في مآتمكم بياضا   فجئتم منه في زي غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن   ولا حزن اشد من المشيب(3)

الملاهي والمنتزهات

كان يوجد باشبيلية كثير من المتفرجات والمنتزهات ومن

1) نفح الطيب ج 1 ص 103 - 104.
2) نفح الطيب ج 2 ص 300 - 301.
3) نفح الطيب ج 2 ص 263 ، 399.

ذلك مدينة طريانة احدى مدن اشبيلية ومتفرجاتها، وكذلك مدينةتيطل. وكانت طريانة كالحاضرة لاشبيلية لانها امامها من البر الآخر على الوادى الكبير وهي على طراز من منظر، قد اتقنت بالبياض والزخرفة تسحر الناظر اليها عند وقوع الشمس عليها. وكان اهل اشبيلية كثيرا ما يخرجون الى هذه المدينة بقصد الفرجة والراحة (1) وكان الافراد يتخذون لانفسهم البساتين والمنتزهات، فكان البستان او «المنظر» كما كانوا يسمونه مرتعا للاندلسيين يقضون فيه اوقات الفراغ في اللهو والطرب وقد نقل لنا المقري (2) وصفا لهذه المناظر وما كانت تحتوي عليه من مروج مؤنقة وازهار متسقة فيقول: «خرج الوزير ابو بكر ابن عمار والوزير ابو الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من اشبيلية الى منظرة لبني عباد بموضع يقال له القنت» تحف بها مروج مشرقة الانوار متنسمة الانجاد والاغوار مبتسمة عن ثغور النور فى زمان ربيع سقت الارض السحب فيه بوسميها ووليها وحلبتها في زاهر ملبسها وباهر حليها، وارداف الربا قد تازرت بالازر الخضر من نباتها، واجياد الجداول قد نظم البنوار قلائده حول لباتها، ومجامر الدهر تعطر اردية النسائم عند هباتها، وهناك من البهاء ما يزري على مناهن النظار، ومن النرجس الريان مايهزا بنواعس الاجفان، وقد نووا الانفراد للهو والطرب والتنزه في ارض النبات والادب، وبعثوا صاحبا لهم يسمى خليفة، هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم لياتيهم بنبيذ يذهبون الهم بذهبه في لجين زجاجة ويرمونه بما يقضي بتحريكه للهرب عن القلوب وازعاجه.. الخ».

النيـروز

ومن الغريب ان نجد اهل الاندلس عامة يحتفلون بعيد النيـروز

1) نفح الطيب ج 1 ص 85, تقديم البلدان ص 110.

2) نفح الطيب ج 2 ص 164 - 165.

وهو من اعياد الفرس ما يزالون يحتفلون به الى اليوم فى اول يوم من فصل الربيع. ولعل هذه العادة انتقلت الى الاندلس عن طريق الجيش الاسلامي الفاتح الذي كان يضم بين صفوفه اخلاطا من الناس من بينهم الفارسيين الذين دخلوا فى الاسلام، وكان الاندلسيون يحتفلون في مثل هذا اليوم بان يصنعوا في بيوتهم مدائن من عجيب لها صور جميلة تخلب لب الناظرين اليها. ورأى مدينة من هذه المدينة يوما ابو عمران موسى الطرياني فاعجبته فقال له صاحبها صفها وخدها فقال:

مدينة مسورة	تحار فيها السحرة
لم تبنها الا يدا	عذراء او مخدرة
بدت عروسا تجتلى	من درمك مزعفرة
ومالها مفاتح	الا البنان العشرة (1)

الغلمان

وكان الاندلسيون مغرمون بمغازلة الغلمان ومنادمتهم، فكنت لا ترى مجلسا من مجالس الاندلسيين الا وبه فتى يكون قبلة للندماء والشعراء يبثونه اشواقهم واخزانهم، وها نحن نرى المعتمد في احدى مجالسه وبين يديه فتى من فتيانه يتثنى تثني القضيب ويحمل الكأس في راحة ابهى من الكف الخضيب وقد توشح وكأن الثريا وشاحه، وانار فكان الصبح من محياه كان اتضاحه فكلما ناوله الكأس خامرمسوره، وتخيل ان الشمس تهديه نوره فقال المعتمد:

لله ساق مهفهف غنج	قام ليسقي فجاء بالعجب
اهدى لنا من لطيف حكمته	في جامد الماء ذائب الذهب(2)

وقد خرج ابن عمار فى بعض اسفاره مع غلامين لبني جهور احدهما

1) نفح الطيب ج 2 ص 376.

2) قلائد العقيان ص 9.

اشقر العذار، والآخر اخضره، فجعل يميل بحديثه لمخضر العذار ويقول.

تعلقته جهـــــوري النجار | حلى اللمى جوهرى الثنايـا
من النفر البيض اسد الزمان | رقاق الحواشي كرام السجايا
ولا غروان تغرب الشارقات | وتبقى محـاسنها بـالعشايـا
ولا وصل الاجمان الحديث | نساقطه من ظهـور المطـايا
شنئت المثلث للزعفران | وملت الى حضرة في التفايا (1)

ويقص علينا احد شيوخ اشبيلية عن نفسه قصة لا تخلو من الطرافة فيقول: كنت فى صباي حسن الصورة بديع الخلقة لا تلمحنى عين احد الاملكت قلبه وخلبت خلبه وسلبت لبه، واطالت كربه، فبينما انا واقف على باب دارنا اذا بالوزير ابي بكر بن عمار قد اقبل في مـوكـب علـى فرس كالصخرة الصماء قدت من قنت الجبـل، فحين حاذاني ورآنـي اشرأب الي ينظرني وبهت يتأملني ثم دفع بمخصرة كانت بيده فى صدري وانشد:

كف هـذا النهـد عـنـي | فبقلبــــي منه جـــــرح
هو فـــى صدرك نهـــد | وهو فـــي صدري رمح(2)

ومما يحكى عن افتتان الاشبيليين بالغلمان ان الاديب ابا القاسم العطار الاشبيلي دخل يوما اشبيلية فجلس الى جانبـه وسيم خمـري العينين فافتتن بالنظر اليه والمحادثه الى ان قام وقعد فى مكانه اسود فقال :

مضت جنة المأوى وجـاءت جهنم | فها انا اشقى بعد ما كنت انعـم
وما كان الا الشمس حان غروبها | فاعقبها جنح من الليل مظلم (3)

وكان العالم النحوي ابو بكر محمد بن طلحة الاشبيلي «لايملك نفسه فى النظر الى الوجه الحسن، واتاه يوما احد اصحابه بولد له فتان

1) نفح الطيب ج 2 ص 207.
2) نفح الطيب ج 2 ص 207.
3) نفح الطيب ج 2 ص 281.

الصورة فعندما دخل مجلسه قصر عليه طرفه ولم يلتفت الى والده وجعل والده يوصيه عليه وهو لا يعلم ما يقوله، ولم يلتفت الى والده وقدافتضح في طاعة هواه، فقال له الرجل يا ابا بكر، حقق النظر فيه لعله مملوك ضاع لك وقد جبره الله تعالى عليك، ولكن على من يتركه عندك لعنة الله، هذا ما عملت بمحضري والله ان غاب معك عن بصري لتفعلن به ما اشتهر عنك، وأخذ ولده وانصرف به فانقلب المجلس ضاحكا (1)» وهذا الوزير ابو جعفر احمد بن الابار الاشبيلي شاعر المعتضد ابن عباد يذكر لنا في ابيات شعرية قصة جرت له مع احد الفتيان نسوقها هنا علها تعطينا صورة واضحةعن انحلال الحياة الخلقيةفي ذلك العصر، يقول ابن الابار:

زارنا خيفة الرقيب مريبا	يتشكي منه القضيب الكثيبا
رشا رأش لي سهام المنايا	من جفون يسبي بهن القلوبا
قال لي: ما ترى الرقيب مطلا	قلت: دعه اتى الجناب الرحيبا
عاطه أكؤس المدام دراكا	وادرها عليه كوبا فكوبا
واسقنيها من خمر عينك صرفا	واجعل الكأس منك ثغرا شنيبا (2)

الموسيقى

ازدهرت الموسيقى التي وضع زرياب اساسها بالاندلس وانشئت معاهد لدراسة فن الموسيقى في انحاء كثيرة بالاندلس؛ في اشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة. واصبحت اشبيلية في عصر بني عباد مركزا للنشاط الموسيقي بل انها بذت بغداد وكسفتها في فن الموسيقى.

وكان المعتمد بن عباد من اشهر المغنين، يجيد الغناء والضرب على الطنبور كما كان ابنه الرشيد المعروف بالقاض بارعا في التوقيع

---

1) نفح الطيب ج 2 ص 280 .

2) نفح الطيب ج 2 ص 280 . ولا نستطيع ان نذكر بقية الابيات لانها تخالف الاداب، وينفر منها الذوق العام. فليرجع اليها من شاء في المرجع السابق .

على العود وغيره من الآلات الموسيقية، وكان ايضا يحسن تأليف الالحان وترنيمها بصوته الشجي (1). ومن المغنيين المشهورين في عصر بني عباد ابو بكر الاشبيلي المشهور بالحكيم المطرب، ويذكر انا هذا المطرب انه حضر مجلس الرشيد بن عباد وعنده ابو بكر بن عمار فلما دارت الكاس وتمكن الانس وغنيت اصواتا ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب فارتجل يخاطب الرشيد:

ماضران قيل اسحق وموصله ... ها انت انت وذي حمص واسحق
انت الرشيد فدع من قد سمعت به ... وان تشابه اخلاق واعراق
لله درك دركها مشعشعة ... واحضر بساقيك ما قامت بنا ساق (2)

وفي عصر المعتضد اشتهر المغني السوسي وقد رغب المعتضد في مرضه الاخير ان يسمع شيئا من الغناء ليخفف عنه كربه وليجعل مايبدأ به من الغناء فألا له فاستدعى المغني السوسي فكان اول شعره قاله:

نطوى المنازل علما ان ستطوينا ... فشعشعيها بماء المزن واسقينا

فمات بعد ذلك بخمسة ايام (3).

وكان بلاط بني عباد يزخر بالمغنيات الفاتنات اللواتي كن يجلبن من سائر انحاء الاندلس ومن اوروبا وآسيا، وقد ذكر عن ابن الوليد ابن جهور امير قرطبة انه قال: «وردت علي من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات صاحب سبتة يطلب قارئا يقرأ القرآن... وعجب ابو الوليد من ذلك وقال: جاهل يطلب

---

1) تاريخ العرب ص 206. كوندي ج 2 ص 195.
2) نفح الطيب ج 2 ص 483.
3) نفح الطيب ج 2 ص 392. وفيات الاعيان ج 7 ص 29.

قارئا! وعلماء يطلبون الاباطيل(1) ولما سمع المعتضد بجارية ابن الرميمي فى قرطبة وما كانت توصف به من البراعة في صنعة الغناء بعث فى طلبها واستجلبها الى قصره(٤)، واهدى يوسف بن تاشفين الى المعتمد بن عباد قينة تحسن الغناء من بلاد العدوة، فخرج بها مرة الى قصر الزهراء على نهر اشبيلية وقعد على الراح فخطر بفكرها ان غنت عند ما لعبت الخمر به وبها:

حملوا قلوب الاسد بين ضلوعهم ولووا عمائمهم على الاقمار
وتقلدوا يوم الوغى هندية امضى اذا انتضبت من الاقدار
ان خوفوك لقيت كل كريهة او امنوك حللت دار قرار

فوقع فى روع المعتمد انها تشير بذلك الى سادتها المرابطين لما كان بين اهل العدوة والاندلسيين من العداوة فى ذلك الوقت ، فلم يتمالك المعتمد غضبه ورمي بالمغنية فى النهر فغرقت (3).

وكانت الموسيقى والغناء تتخللها ادوار من الرقص الجميل من بعض الراقصات وكانت الراقصة تشير باناملها وهى تغنى الى كل عضو وما يحل به من تعذيب الهوى، فان ذكرت دمعا اشارت الى العين، وان وجدا اشارت الى القلب، وهى مع ذلك تعبر عن تدلل المحبوب وتدلل المحب بما يليق بهما من الاشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما ارادت (4).

وكانت اشبيلية فى عصر بنى عباد تحيا حياة كلها لهو ومجون على النقيض مما كانت عليه اختها قرطبة ، فبينما نرى اهل اشبيلية من ناحية ، يضرب بهم المثل فى الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان الساعة بين

---

1) البيان المغرب ج 3 ص 250.
2) شرحه ص 211 - 212.
3) نفح الطيب ج 2 ص 485.
4) راجع ديوان ابن احمد ينس ص 111.

الساعة، نرى اهل قرطبة من ناحية اخرى قد تغلبت عليهم حياة الجد والصراحة، وكبت الفقهاء فيهم كل نزعة ترمي الى التمتع بالحياة الدنيا ومباهجها، فقد جرت بعد عصر بني عباد بقليل مناظرة بين ابن رشد وابي بكر محمد بن زهر في فضائل كل من اشبيلية وقرطبة، وكانت هذه المناظرة امام المنصور ثالث ملوك الموحدين، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: «ما ادري ما تقول ؟ غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (1)». وكان لازدهار الموسيقى باشبيلية ان نشطت فيها صناعة الآلات الموسيقية حتى ان اشبيلية كانت تصدر الفائض عن حاجتها الى الخارج (2).

وكان باشبيلية من ادوات الطرب، الخيال، والكريج (3)، والعود والروطة، والرباب، والقانون، والمؤنس، والكثيرة، والفنار، والزلامي، والشقورة، والنورة، وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه، والبوق (4).

وبقيت اشبيلية تبعث النور والوحي والالهام بموسيقاها حتى تناقلت «منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسمت على امصارها» (5).

---

1) نفح الطيب ج 1 ص 75.

2) تاريخ العرب ص 65.

3) لعل المقري اورد لنا الخيال والكريج بين ادوات الطرب لما كان يجلبانه على النفوس من طرب ، اما الخيال فلعله يقصد به خيال الظل اما الكريج فلعله ما يسميه ابن خلدون (المقدمة ص 357) بالكرج وهي عبارة عن تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويتاقفون.

4) نفح الطيب ج 2 ص 151. الاسلام والحضارة العربية ج 1 ص 137.

5) مقدمة ابن خلدون ص 357.

لم يكن مركز المرأة في الاندلس يختلف عن مركز المرأة المتمدنة في العصر الحاضر بكثير، فقد كانت المرأة المثقفة تعقد المجالس لمناظرة العلماء في شتى نواحي الثقافة والتفكير، كما كانت تشترك في نظم القصائد وبعث روح الحياة في المجتمعات بجمالها وادبها.

فكانت العبادية جارية المعتضد بن عباد اديبة ظريفة كاتبة شاعرة ذاكرة الكثير من اللغة، وقد تناظرت يوما مع علماء اشبيلية فجاءت بالغريب في كلامها حتى ظهرت على جميع العلماء، فيقول المقري(1) «اغربت جارية لمجاهد العامري اهداها الى عباد - كاتبة شاعرة - على علماء اشبيلية فجاءت بالفرمة التي تظهر في اذقان بعض الاحداث وتعتري بعضهم في الخديں عند الضحك فاما التي في الذقن فهي النونة ومنه قول عثمان رضي الله تعالى عنه. وسموا نونة لتدفع العين، فما كان في ذلك الوقت في اشبيلية من عرف منها واحدة»

وفي احدى الليالي تجمعت الهموم فيها على ابن عباد فأرقته، وكانت العبادية نائمة فقال:

تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر

فأجابته بقولها:

لئن دام هذا وهذا له سيهلك وجدا ولا يشعر

وكانت اعتماد زوجة المعتمد بن عباد مع حسنها وجمالها حلوة الحديث كثيرة النادرة تقرض الشعر وتتذوقه (2):

اما ابنتها بثينة فكانت تشبه امها في الجمال والنادرة وقرض الشعر، وقد حدثت لها قصة طريفة نسوقها هنا دلالة على عفاف المرأة

1) نفح الطيب ج 2 ص 489. نقلا عن ابن عليم في شرحه على ادب الكاتب

2) نفح الطيب ج 2 ص 451، 483، 484.

الاندلسية وصونها لنفسها، يقول المقرى (1): ولما احيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت في جملة من سبى ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وله دائم لا يعلمان ما آل اليه امرها....

وكان احد تجار اشبيلية اشتراها على انها جارية سرية ووهبها لابنه فنظر من شأنها وهيئت له فلما اراد الدخول عليها امتنعت واظهرت نسبها، وقالت لا احل لك الا بعقد النكاح ان رضي ابي بذلك واشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه، فكان الذي كتبته بخطها من نظمها ما صورته:

اسمع كلامي واستمع لمقالتي ... فهي السلوك بدت من الاجياد
لا تنكروا انني سبيت وانني ... بنت لملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للافساد
لما اراد الله فرقة شملنا ... واذاقنا طعم الاسى من زاد
قام النفاق على ابي في ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني امرؤ ... لم يأت في اعجاله بسداد
اذ باعني بيع العبيد فضمني ... من صانني الامن الانكاد
وارادني لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بني الانجاد
ومضى اليك يسوم رأيك في الرضا ... ولأنت تنظر في طريق رشادي
فعساك يا ابتي تعرفني به ... ان كان مما يرتجي لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والاسعاد

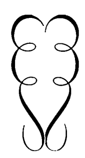
فلما بلغ شعرها لابيها وهو باغمات سر هو وامها بحياتها ورأيا ان ذلك للنفس من احسن امنياتها اذ علما مآل امرها وجبر كسرها، فكتب اليها المعتمد يقول لها:

بنيتي كوني به برة ... فقد قضى الدهر باسعافه

1) نفح الطيب ج 2 ص 489.

ومن النساء اللواتي اشتهرن بالادب فى اشبيلية مريم بنت يعقوب الفيصولي كانت من اهل شلب واتخذت اشبيلية موطنا ثانيا لها كانت بها تعلم نساء زمانها الادب، وهي التي تقول لما شاب قرناها ووهن عظمها، وكانت قد عمرت طويلا :

وما يرتجي من بنت سبعين حجة	وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل سعيا الى العصا	وتمشي بهامشي الاسير المكبل (1)



1) الصلة رقم 1423 . نفح الطيب ج 2 ص 493.

الحيـــاة الثـقــافيــــــــــــــــــة

التربية والتعليـم

كان التعليم الاولي في اشبيلية وغيرها من مدن الانـدلس يقـوم على أساس تعليم الاطفال «القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هوالذي يراعونه في التعليم، الا انه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل واخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة ، ولا تختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيـه بالخط اكثر مـن جميعهـا الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والبصر بها، وبرز فى الخط والكتاب وتعلق بأذيـال العلم على الجملة (1).

اما التعليم العالي فكان يقوم على اساس التبحر في علوم القـرآن والتفسير والحديث واصول الدين والفقه والفلسفة والتاريـخ والنحو وعلوم اللغة والشعر، وكانت جامعة اشبيلية تضم أقساماً متعددة لمختلف

1) مقدمة ابن خلدون ص 473.

العلوم والفنون، وكان يقصدها الآلاف من رواد المعرفة من مختلف انحاء الاقطار الاسلامية (1).

لم يكن لاهل الاندلس على العموم مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد باجرة، فهم يقرؤون لان يعلموا لا لان يأخذوا جريا، فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه (2).

وكان الرأي العام في الاندلس يمقت الفلاسفة والمنجمين»، فكان كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة او يشتغل بالتنجيم اطلقت العامه عليه اسم زنديق، وقيدت أنفاسه فان زل في شبهة رجموه بالحجارة او أحرقوه قبل ان يصل امره للسلطان، او يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة، وكثيرا ما يامر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن (3)»

وكان الملوك يفعلون ذلك تقربا للعامة اما الخاصة فكانوا يستسيغون قراءة الفلسفة والاشتغال بها ، وتبعا لهذه السياسة التي كانت متبعة فى جميع عصور الاندلس ـ اللهم الا اذا استثنينا عصر المرابطين والموحدين ـ نرى المعتضد بن عباد يأمر باحراق كتب الحافظ ابن محمد ابن حزم الظاهرى لما كانت تنطوي عليه من عمق فى التفكر واستهزاء بعلماء عصره؛ ولكن هذا العالم نراه بعدما احرقت كتبه يتحدى المعتضد وعلماء عصره فيقول :

دعوني من احراق رق وكاغد ... وقولوا بعلمكي يرى الناس من يدري
فان تحرقوا لقرطاس لم تحوقوا الذي ... تضمنه القرطاس، بل هو فى صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل ان انزل ويدفن في قبري(4)

1) تاريخ العرب ص 149.
2) نفح الطيب ج 1 ص 102.
3) نفح الطيب ج 1 ص 102.
4) الذخيرة قسم 1 ج 1 ص 143 - 144. نفح الطيب ج 1 ص 61.

ازدهرت علوم الشريعة من حديث وتفسير وفقه وغيرهامن العلوم باشبيلية، وبرز في معرفة هذه العلوم علماء لا يحصى عددهم، نذكر منهم: عبد الملك بن سليمان المعروف بابن القوطية المتوفى سنة 429 ه، فقد كان متصرفا في العلوم من الفقه والعربية والحساب، محسنا لعقد الوثائق بصيرا بعللها، (1) وكان سعد بن احمد المعروف بابن الربيبة المتوفى سنة 434 ه ، من اهل النفاذ في الحديث والرأي محسنا لنظم الوثائق بصيراً بعللها، مشاركا في غير ذلك من العلوم (2). وكان عبد الرحمن بن مسلمة القرشي المتوفى سنة 446 ه ، يعرف كثيرا من علوم القرآن والاصول والحديث والفقه والحساب والطب (3).

وقد ألف العالم المحدث اسماعيل بن خزرج الاشبيلي المتوفى سنة 421 ه، كتابا في الحديث سماه «الانتقاء» في اربعة أجزاء ذكر فيه عدد شيوخه، واضاف الى كل رجل منهم ما انتقاه من حديثه (4) .وكان ابو محمد عبد الله بن سعيد الاشبيلي المتوفى سنة 522 ه، من المبرزين في علم الحديث عارفا بعلله، بصيرا بالمعدلين من رجاله والمجرحين منهم ، وقد الف كتبا في هذا الموضوع منها : «كتاب الاقليد في بيان الاسانيد» وكتاب «تاج الحلية وسراج البغية في معرفة اسانيد الموطأ»، وكتاب «لسان البيان عما في كتاب ابي نصر الكلاباذي من الاغفال والنقصان» وكتاب «المنهاج في رجال ابي مسلم بن الحجاج»، وغير ذلك من التآليف (5).

1) الصلة رقم 765.
2) الصلة رقم 499.
3) الصلة رقم 719.
4) الصلة رقم 233.
5) الصلة رقم 640.

اما في علم الفلسفة فرغما عن ان المشتغلين به كانوا مضطهدين من الشعب والحكومة، فقد برز في هذا العلم كثير من العلماء منهم: ابو اسحق ابراهيم الهوذي، وكان بصيرا بعلوم البرهان واللسان والمسألة متفننا في ضروب المعارف، توفي سنة 420 هـ، (1). وكان ابو مسلم عمر بن خلدون الحضرمي المتوفي سنة 449هـ. في الفلسفة مشهورا بعلم الهندسة والنجوم والطب، متشبها بالفلاسفة في اصلاح اخلاقه وتعديل سيرته وتقويم سياسته، (2) وكذلك كان جعفر بن مفرج الحضرمي الاشبيلي متقدما في علم الطب، مطبوعا فيه وذا علم بالحساب وفنونه (3).

بنو زهر: ولكن الاسرة التي اضاء نجمها باشبيلية في ميدان الطب، فهي اسرة بني زهر، نسبة الى جدهم الاعلى زهر الايادي. وكان لزهر هذا ولد يسمى مروان، وهو والد ابي بكر محمد الذي اشتهر بين قومه بالعلم والتقوى، واضطهد من بني عباد فترك اشبيلية وهاجر الى شرق الاندلس، فبقي هناك الى ان توفي بطلبيرة سنة 422هـ.

وترك ابو بكر محمد ولدا، هو ابو مروان عبد الملك الطبيب المشهور، فرحل الى الشرق وتولى رياسة الطب في بغداد ثم بمصر ثم القيروان ثم عاد الى دانية حيث شمله مجاهد العامري برعايته.

ويقول ابن ابي اصيبعه(4): ان عبد الملك غادر دانية الى اشبيلية

1) طبقات الامم ص 97.
2) طبقات الامم ص 95. نفح الطيب ج 2 ص 232.
3) الصلة رقم 288.
4) عيون الانباء في طبقات الاطباء ص 184.

حيث توفى بها عن ثروة باهظة، بينما يذهب ابن خلكان (1) والمقري الى (2) ان عبد الملك بقي بدانية الى ان توفى بها.

وكان لعبد الملك ابن هو ابو العلاء زهر، اشتغل بالطب كابيه ومهر فيه، ولم يزل يترقى بالاندلس الى ان جذب اليه انظار المعتمد بن عباد باشبيلية، فالحقه ببلاطه ورد اليه املاك جده التي كانت قد صودرت منه، وبقي ابو العلاء ببلاط المعتمد الى ان استولى المرابطون على اشبيلية فضمه يوسف ابن تاشفين الى بلاطه، وخلع عليه لقب وزارته. ويذكر من تآلفه كتاب الطراز وكتاب الادوية لم يكملا، وتوفى ابو العلاء سنة 525 ه، بقرطبة ثم نقل جثمانه الى اشبيلية فدفن بها.

وكان لابي العلاء ولد يشابهه في معرفة الطب والبراعة فيه هو ابو مروان بن زهر، وقد حرف نساخ العصور الوسطى اسمه فقالوا: بمرون افترون او افترور فقط، وقد درس ابو مروان الطب على والده، وخدم به المرابطين والموحدين من بعدهم، وقد اشتهر من كتبه كتاب: «الاقتصاد في اصلاح الانفس والاجساد» وكتاب «التسير في المداواة والتدبير» الفه باشارة من ابن رشد، وقد اضاف ابو مروان الى الطب اشياء لم تكن معروفة من قبل كوصفه للاورام الحيزومية وخراج التامور، وكان اول طبيب عربي اشار بعملية شق الحجب، وكان يجري للمرض التغذية الصناعية عن طريق الحلقوم او عن طريق الشرج، وتوفى ابن مروان باشبيلية سنة 595 ه، وقد اثر ابن زهر هذا تأثيرا بليغا في الطب الاوربي عن طريق كتبه التي ترجمت الى العبرية واللاتينية (3).

1) وفيات الاعيان ج 2 ص 10.
2) نفح الطيب ج 1 ص 437.
3) راجع عن بني زهر. المعجم لابن الابار ج 4. التكملة لكتاب الصلة ج 1، 2 رقم 255، 855، 1691، 1717. وفيات الاعيان ج 2 ص 9. نفح الطيب ج 1 ص=

كان اهل الاندلس ـ في علوم النحو واللغة والاشتقاق ـ في الدرجة الثانية من عرب العراق وكان من رجال اللغة باشبيلية ابو الحسن علي بن عبد الرحمن التنوخي المعروف بابن الاخضر المتوفي سنة 513هـ، فقد اشتهر بحفظ اللغة والآداب ومعرفة اسرارها، وكان جعفر ابن احمد المعروف بابن الغاسلة بارعا في الادب واللغة ومعاني الشعر والخبر، توفي سنة 438 هـ .

ومن العلماء الموهوبين في النحو ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، درس هذا العالم على ابي اسماعيل القالي، وعهد اليه الحكم المستنصر في تربية ابنه هشام المؤيد، ولما طرد القاضي ابو القاسم بن عباد القاسم ابن حمود من اشبيلية سنة 414 هـ، كان ابو بكر الزبيدي من جملة ما اختارهم القاضي لمشورته ومعاونته على اعباء الحكم (1).

وقد انتج ابو بكر الزبيدي في النحو واللغة عدة كتب تدل على طول باعه ووفرة عمله، منها: كتاب مختصر العين وكتاب هتك ستور الملحدين في الرد على ابن مرة واصحابه وكتاب لحن العامة، وكتاب الواضح في العربية وكتاب الابنية في النحو، ولكن اشهر كتب الزبيدي هو كتاب، طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والاندلس من زمن ابى الاسود الدؤلي الى شيخه ابي عبد الله الرياض، وقد اعتمد على هذا الكتاب السيوطي في تأليف كتابه «المزهر» (2).

=237 - 439. ج 2 ص 259. عيون الانباء في طبقات الاطباء ص 118 ، 185. معجم الادباء ج 18 ص 216. دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 183. تحت مادة ابن زهر.

1) راجع ص 41 من هذه الرسالة.

2) يتيمة الدهر ج 2 ص 61. وفيات الاعيان ج 1 ص 514. معجم الادباء ج 18 ص 179. بغية الوعاة ص 34. مطمح الانفس ص 53.

كانت اشبيلية فى عصر بني عباد تفخر بان فيها عددا وافرا من الادباء الذين برعوا فى فن النثر والنظم، وقد ألف هؤلاء الادباء فى النثر رسائل فى العشق والغرام وفى المدح والاستعطاف، كما كتبوا فى القصص والحكايات الخيالية والمناظرة.

ولم تخل كتاباتهم من السجع الجميل، الذي كان يشبه الشعر الى حد كبير، وكان نثرهم طويلا فى بعضه تصوير جميل، وفي بعضه الآخر ملل سقيم (1).

وكان بلاط بني عباد يشتمل على نخبة ممتازة من الادباء والكتاب، منهم ابو حفص بن برد الاصفر من وزراء المعتضد (2)، والوزير الكاتب ابو عبد الله البزلياني احد وزراء المعتضد، والاديب ابو الوليد اسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، احد وزراء المعتضد ايضا، والوزير ابو الوليد محمد بن المعلم، والوزير الاديب ابو بكر بن الجد احد وزراء المعتمد، وقد اورد ابن بسام فى الذخيرة نماذج من جيد النثر والنظم لهؤلاء الادباء (3).

الشعر

ازدهرت دولة الشعر فى اشبيلية بما كان يغدقه بنو عباد على شعرائهم وندمائهم من المنح والعطايا، ولاعتناء بني عباد بالشعر والشعراء

1) من هذا النوع الاخير كتابات الفتح بن خاقان في كتابيه. قلائد العقيان ومطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس.

2) راجع ترجمته في الذخيرة قسم 1 ج 2 ص 18، ومطمح الانفس ص 42، وقد اكتفينا في اسلوبه بالرسالة التي كتبها للمعتضد ابن عباد الى صهره ابن مجاهد العامري عند ما قتل المعتضد ابنه اسماعيل راجع ص 75 من هذه الرسالة.

3) راجع ترجمة هؤلاء وما قالوه من نثر ونظم في الذخيرة. انظر فهرس القسم الاول والقسم الثاني.

خصصوا لهم يوما لا يقابلون فيه احداً سوى الشعراء، كما أنهم جعلوا للشعراء منتدى يجتمعون فيه يسمى دار الشعراء (1).

وقد طرق شعراء اشبيلية في شعرهم جميع الموضوعات فمدحوا الملوك والكبراء، وتغزلوا فى النساء والغلمان كما وصفوا في اشعارهم الانهار والاشجار، والابنية الفخمة بما فيها من نقوش وصور وتماثيل، وكذلك نظموا قصائد في التاريخ دونوا فيها الاحداث التي جرت فى عصرهم.

وكان الشعر ملكا لجميع الطبقات فقلما نجد شخصا الا وهو شاعر مفلق، قد استوى فى ذلك الملوك والسوقة، وقد اشتهر في عصرنا الذي نؤرخه المعتضد بن عباد وابنه المعتمد والوزير ابوجعفر بن الابار والوزير ابو بكر بن اللبانه (2)، وعبد الجليل بن وهبون، وسنورد هنا منتخبات شعرية للملوك والامراء من بني عباد، ثم نتبعها بمنتخبات من شعر الشعراء المتازين الذين ازدهر بهم بلاط بني عباد.

شعر المعتضد

يقال انه كان للمعتضد ديوان فى نحو ستين ورقة، من شعره الذي قاله فى شتى المناسبات، ولسوء الحظ ان المكتبة العربية لم تحمل لنا من شعره غير ابيات على قلتها تشهد ان المعتضد كان من اهل الادب البارع، والشعر الرائع، فمن شعره فى مدح الراح:

اشرب على وجه الصباح   والنظر الى نور الاقاح
واعلم بأنك جاهل   ما لم تقل بالاصطباح
فالدهر شيء بارد   ان لم تسخنه براح

وقال يصف ام الحسن وهي «البلبل».

اتتك ام الحسن   تشدو بصوت حسن

1) راجع ص 65 من هذه الرسالة.
2) لقد اوردنا لابن اللبانة نماذج من شعره في ص 194، 204.

تمـد فـى الـحـــــانـهـا مــــــد الغنـاءُ المدنى
تقــود منــــى سلســـلا كـأننــى فى رســن
اوراقهــــا استـارها اذا شدت فـي فـنـن

وقال يخاطب مجاهدا العامري :

خلي ابا الجيش هل يقضى اللقاءُ لنا فيشتفى منك طرف انت ناظره
شط المزار بنا والدار دانية ياحبذا الفال لوصحت زواجره

وقال من جملة قصيدة يمدح بها ابا القاضي:

اطعتك في سري وجهري جاهدا فلم يك لي الا الملام ثواب
ولما كبا جدي اليك ولم يسغ لنفسى على سوءُ المقام شراب
فررت بنفسي ابتغي فرجة لها على ان بعد العيش بعدك صاب
وما هزني الا رسولك داعيا فقلت امير المؤمنين مجاب
فجئت اغذ السير حتى كأنما يطير بسرجي في الفلات عقاب
وما كنت بعد البين الا موطنا بعزمي على ان لا يكون اياب
ولكنها الدنيا الي حبيبة فما عنك لي الا اليك ذهاب
اصل بالرضى عني مسرة مهجتي وان لم يكن فيما اتيت صواب (1)

شعر المعتمد

نشأ المعتمد بين اعطاف السؤدد والنعيم فاوحت اليه بيئته بخيال ساحر وكان بطبيعته يميل الى قرض الشعر كأبيه، الا ان شعره كان ارق واجمل من شعر ابيه، وكان المعتمد يعيش عيشة بذخ وترف، ميالا الى اللهو والمجون، وهذه العوامل من الاسباب التي خلعت على شعره مسحة من الرقة والعذوبة، فكان شعره انيقا خاليا من التكلف والتعمل

1) راجع شعر المعتضد في الذخيره قسم 2 ص 14 - 16 . نفح الطيب ج 2 ص 468 . ديوان ابن زيدون.

وكان اكثر شعره منتزعا من حياته، فهو صورة حية لحياة المعتمد في بؤسه ونعيمه ومسراته واحزانه.

ومما قاله المعتمد في النسيب قوله:

داوى الغرام ورام ان يتكلما ... وابى لسان دموعه فتكلما
رحلوا فأخفى وجده فأذاعه ... ماء الشجون مصرحا ومجمجما
سايرتهم والليل غفل ثوبه ... حتى تراءى للنواظر معلما
فوقفت ثم مخبرا وتسلبت ... مني يد الاصباح تلك الانجما

وقال:

اكثرت هجري غير انك ربما ... عطفتك احيانا على امور
فكأنما زمن التهاجر بيننا ... ليل وساعات الوصال بدور

وقال في جارية له كان يحبها، وبينما هي تسقيه اذ لمع البرق فارتاعت:

يروعها البرق وفي كفها ... برق من القهوة لماع
يا ليت شعري وهي شمس الضحى ... كيف من الانوار ترتاع

وكانت له جارية اسمها جوهرة وكان يحبها فجرى بينهما عتاب فكتب اليها يسترضيها، فاجابته برقعة من غير عنوان فقال:

لم تصف لي بعد والا فلم ... لم ار في عنوانها جوهره
درت باني عاشق لاسمها ... فلم ترد للغير ان تذكره
قالت اذا ابصره ثابتا ... قبله والله لا ابصره

وقال في جارية اسمها وداد.

اشرب الكأس من وداد ودادك ... وتأنس بذكرها في انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآ ... ه وسكناه في سواد فؤادك

وقال :

تم له الحسن بالعذار ... واختلط الليل بالنهار
اخضر في ابيض تبدى ... فذاك آسي وذاك بهاري

فقد حوى مجلسي تمامـــــا ان بك من ريقه عقاري

ويقول عبد الجبار بن حمديس الصقلي اقمت باشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت الي ولا يعبأ بي، حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي، فاني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي اذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي: اجب السلطان، فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة فنك وقال لي: افتح الطاق التي تليك، ففتحتها فاذا بكور زجاج على بعد والنور يلوح من بابيه وواقده تفتحها التارة وتسدها اخرى ثم دام سد احدهما وفتح الاخرى فحين تأملتها قال لي اجز:

انظرهما في الظلم قد نجما	فقلت: كما رنا في الدجنة الاسد
فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها	فقلت: فعل امرئ في جفونه رمد
فقال: فابتزها الدهر نور واحدة	فقلت: وهل نجا من صروفه احد

فاستحسن ذلك وامر لي بجائزة سنية والزمني خدمته (1).

ولكن الشعر الذي طار بشهرة المعتمد وحلق به في سماء الادب هو الشعر الذي تدفق منه في ايام بأسائه فقد وصف في هذا الشعر ما انزلته به عاديات الزمان في آخر الايام، فقد وصف فيه حياته في منفاه وسجنه وقيوده كما وصف فيه الحالة التي اصبحت عليها حياته في اخرياته.

وها هو يرى احد بناته - بعد ما اناخ عليها الدهر بكلكله - قد اصبحت تطلب غزلا من عامة الناس باجر لتشتغل به وتنفق ما تحصل لها من اجره في سد حاجياتها، واتفق ان السيدة الكبرى ام ابنائه مرضت مرضا استدعى الى ان تعرض على طبيب لفحصها، وتصادف في هذا الوقت ان كان بمراكش الوزير ابو العلاء بن زهر

1) راجع نفح الطيب ج 2 ص 346 وديوان ابن حمد يسن ص 481

الذي كان المعتمد قد شمله بعطفه واستدعاه الى بلاطه فكتب اليه المعتمد مستعطفا في علاج السيدة، فرد عليه ابو العلاء مسعفا له في طلبه ودعا للمعتمد في الختام بدوام البقاء، فقال المعتمد في ذلك :

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى | اسير ان يطول به البقاء
أليس الموت اروح من حياة | يطول على الشقي بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب | فان هواي من حتفي اللقاء
أأرغب ان اعيش ارى بناتي | عواري قد اضربها الحفاء
خوادم بنت من قد كان اعلى | مراتبه اذا يبدو النداء
وطرد الناس بين يدي ممري | وكفهم اذا غص الفناء
وركضي عن يمين او شمال | لنظم الجيش ان رفع اللواء
ولكن الدعاء اذا دعاه | ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت ابا العلاء جزاء بر | نوى برا وصاحبك العلاء
سيسلي النفس عما فات علمي | بان الكل يدركه الفناء

ودخل عليه في يوم بناته وهن فى اطمار باليه فلما رآهن على تلك الحال رثى لحالهن وتدفق لسانه حزنا عليهن فقال :

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا | فساءك العيد في اغمات ماسورا
ترى بناتك فى الاطمار جائعة | يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة | ابصارهن حصيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والاقدام حافية | كانها لم تطأ مسكا وكافورا
لاخد لا تشكي الجدب ظاهره | وليس الا مع الانفاس ممطورا
افطرت في العيد لا عادت اساءته | فكان فطرك للاكباد تفطيرا
قد كان دهرك ان تامره ممتثلا | فردك الدهر منهيا ومأمورا

وكان يزيد الراضي يقرض الشعر كأبيه، له شعر يجمع الى الجزالة الرقة والعذوبة . وقد اراد المعتمد يوما ان يعهد اليه بقيادة جيش لرد هجمات المسيحيين فامتنع الراضي وقبع في بيته مكبا على مطالبه الكتب فارسل اليه والده قصيدة يهزأ فيه بها ويقول:

الملك في طي الدفاتر … فتخل عن قود العساكر
طف بالسرير مسلما … وارجع لتوديع المنابر
وازحف الى جيش المعا … رف تقهر الحبر المقامر
واطعن باطراف اليرا … ع نصرت في ثغر المحابر
واضرب بسكين الدوا … ة مكان ماضي الحد باتر
اولست رسطا ليس ان … ذكر الفلاسفة الاكابر
وكذاك ان ذكر الخليـ … ـل فانت نحوي وشاعر
وابو حنيفة ساقط … بالرأي حين تكون حاضر
من هرمس من سيبوية … من ابن فورك اذ تناظر
هذى المكارم قد حويـ … ـت فكن لمن حابك شاكر
واقعد فانك طاعم … كاس وقل هل من مفاخر
فحجبت وجه رضاي عنـ … ـك وكنت قد تلقاه سافر
اولست تذكر وقت لو … رقة وقلبك ثم طائر
لا يستقر مكانه … وابوك كالضرغام خادر

1) راجع شعر المعتمد فى قلائد العقيان ص 5 وما بعدها والذخيرة قسم 2 ص 24 - 26-28- 32 . الخريدة ج 11 ص 151.المعجب ص 64 - 65 ، 89 - 93 . نفح الطيب ج 2 ص 390 - 491 ،452 ،454 ،457. ديوان ابنزيدون بلاغهالعرب فى الاندلس ص 104 - 112.

هلا اقتديت بفـــــعله   واطـعتـــه اذ ذاك آمر
قـد كـان ابصـر بالعـوا   قـب والمـوارد والمصـادر

فكتب اليه الراضي مراجعا له بقطعة جاء فيها :

مولاي قـد اصبـحت كافرا   بجميع ما تحـوى الـدفاتر
وفللـت سكـين الـدوا   ة وظلـت للاقـلام كـاسر
وعلمـت ان الملك مـا   بيـن الاسنـة والبـواتر
والمجد والعليـــــاء فى   ضرب العساكر بالعساكر
لا ضرب اقــــوال باقـــــوال ضعيفات مكاســــر
فقد كنت احسبه من سفا   ه انهـــا اصل المفـاخر
فـاذا بهـا فـرع لهـــا   والجهل للانسان غـــادر
لا يدرك الشـرف الفتـــى   الا بـعسال وباتــــــــر
وهجـرت مـن سميتـهم   وجـحـدت انهـم اكـابر
مولاي ان تسخـر فـلا   عـار بنا ان كنت ساخـر
ضحـك المـوالي بـالعبـيـــــد اذا تؤمل غيـر ضائر
لـو كنت تـهـوى متتـي   لوجـدتنـى للعيش هـــاجر
ان كـان بـي فـضـل فمنـــــك وهـل لـذاك النور سـاتر
او كان بـي نقص فمنـي   غير ان الـفضـل غـامـــر
ذكـرت عبـدك سـاعـة   يبقى لهـا مـا عـاش ذاكـر
يـاليتــــــه قـد غـيبتــــــه عندهـا احـدى المقـــابر
اتريد منى ان اكــــون   كمن غدا فـى الدهـر نـادر
هيهــــات ذلك مطمـع   يعـي الاوائل والاواخــــر
لا تنـس يـامـولاي قـــو   لة ضارع لا قول فـــاخر
ضبط الجزيـرة عنـدمـــا   نزلت بعقوتهـــا العساكر
ايــــام ظلت بهـا فريـدا   اليس غيـر الله نـــاصر

لقد تكلمنا بافاضة عن ابن عمار السياسي (2) ونريد هنا ان نقول كلمة عن ابن عمار الشاعر .

كان ابن عمار في اول نشأته فقيرا مدقعا فدعاه فقره الى حياة التجوال والطواف على ملوك عصره يمدح هذا ويهجو ذاك ، الى ان اتصل بالمعتمد بن عباد واستحوذ عليه ، وكان ابن عمار شاعرا ماجنا مغرما بشرب الخمر ومجالس الغناء فأثرت هذه الحياة في الشاب المعتمد وبدت القالة تروج فى المجتمعات، ولم تلبث هذه القالة ان بلغت سمع المعتضد فلم ير بدا من ان يمنع ابن عمار من الاتصال بابنه ، ولما كان ابن عمار لا يستطيع ان يكبح نفسه ويمنعها من الامعان فى المجون ، فاننا نراه يدافع عن نفسه ويقول :

نقمتم على الراح اد من شربها ... وقلتم فتى راح وليس فتى مجد

ومن ذا الذي قاد الجياد الى الوغى ... سواي ومن اعطى كثيرا ولم يكد

فديتكمو لم تفهموا السر انما ... فليتكمو جهدي فابعدتكم جهدي

وقد كثر شعر ابن عمار فى اللهو والمجون وله فى ذلك مقطعات

---

1) راجع قلائد العقيان ص 24 - 36.

2) راجع عنحياةابنعمارالسياسيةص121، 129- 130، 132- 133.من هذه الرسالة

صادرة عن شعوره الصادق واسلوبه الرائق ، فيروى انه حضر مرة مجلسا من مجالس المؤتمن بن هود فرأى فتى اعجميا لا يكاد يبين متأبطاسيفه وهو مقبل على المؤتمن ليستشيره في شأن من الشئون فما كادت عين ابن عمار تقع عليه حتى افتتن به وضمه اليه، ثم طلب من المؤتمن ان يسمح للفتى بان يكون هو الساقي، فاجابه المؤتمن الى طلبه واخذ الفتى يدير الراح حتى لعبت بابن عمار فاخذ ينشد ويقول:

وهويته يسقي المدام كانه ... قمر يدور بكوكب في مجلس
متارج الحركات تندي ريحه ... كالغصن هزته الصبا يتنفس
يسعى بكاس في انامل سوسن ... ويدير اخرى من محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده ... ومصرف الفرس القصير المحبس
اياك بادرة الوغى من فارس ... خشن القناع على عذار املس
جهم وان حسر اللثام فانما ... كشف الظلام عن النهار المشمس
يطغى ويلعب في دلال عذاره ... كالمهر يمرح في اللجام المجرس
سلم فقد قصف القنا غصن النقا ... وسطا بليث الغاب ظبي المكنس
عنا بكاسك قد كفتنا مقلة ... حوراءُ قائمة بسكر المجلس

ولابن عمار في الغزل :

قالوا اضربك الهوى فاجبتهم ... يا حبذاه وحبذا اضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه ... زيا فخلوه وما يختاره
عيرتموني بالنحول وانما ... شرف المهند ان ترق شفاره
من قد قلبي اذ تثنى قده ... واقام عذري اذ اطل عذاره
ام من طوى الصبح المنير نقابه ... واحاط بالليل البهيم خماره
فوحسنه لقد انتدبت لوصفه ... بالبخل لولا ان حمصا داره
بلد متى اذكره هيج لوعتي ... واذا قدحت الزند طار شراره

اما اسلوب ابن عمار في المديح فانه يفتن قارئه اذ يعرض لك فيه

صورا مختلفة للمدوح فى اسلوب طلى العبارة جميل اللفظ والمعنى .

وهذا كمافيالقصيدة التي مدح بها المعتضد بن عباد والتييقول فيها:

ادر الزجاجة فالنسيم قـد انبـرى
والنجم قد صرفالعنان عنالسرى

والصبح قد اهدى لنـا كافوره
لمـا استـرد الليل منا العنبـرا

والروض كالحسنا كساه زهـره
وشيـا وقلـده نـداه جـوهـرا

او كالغلام زهـى بورد ريـاضه
خجـلا وتـاه بـآسهـن معـذرا

روض كأن النهـر فيـه معصـم
صاف اطل علـــى رداء اخضـرا

وتهـزه ريح الصبا فتخـالــــه
سيف ابـن عباد يبـدد عسكـرا

عباد المخضر نــــائل كفـه
والجو قد لبس الرداء الاغبـرا

علق الزمـان الاخطر المهـدي لنا
من ماله العلق النفيس الاخطرا

ملك اذا ازدحم الملـوك بمـورد
ونحاه لا يردون حتى يصدرا

اندى على الاكباد من قطر الندى
وألذ في الاجفان من سنة الكرى

يختـار اذ يهب الخريـدة كاعبـا
والطرف اجـرد والحسام مجوهـرا

قداح زند المجـد لا ينفـك عن
نار الـوغى الا الـى نـار القـرى

لا خلق افرى من شفـار حسـامـه
ان كنت شبهت المواكب اسطرا

ايقنـت انـي مـن ذراه بجـنـة
لمـا سقاني مـن نـداه الكوثرا

وعلمت حقا ان ربعي مخصب
لمـا سـألت بـه الغمام الممطرا

من لا توازنه الجبـال اذا احتبـى
من لا تسابقـه الرياح اذا جـرى

ماضي وصدر الرمح يكهم بالظبا
تنبو وايدي الخيل تعثر في البرى

قاد الكتائب كالكواكـب فوقهم
من لامهم مثل السحاب كنهورا

من كل ابيض قـد تقلد ابيضـا
عضبـا واسمر قـد تأبط اسمـرا

ملك يروقـك خلقه او خلقه
كالروض يحسن منظرا او مخبرا

اقسمت باسم الفضل حتى شمتـه
فرأيتـه فـي بردتيـه مصـورا

وجهلت معنى الجود حتى زرتـه
فقرأتـه فـي راحـتيـه مـفسرا

فاح الثرى متعطرا بثنائـــــه حتـى حسبنـا كل تـرب عنبرا
وتتوجـت بالزهـر صلع هضابـه حتى ظننا كل هضب قيصـرا
هصرت يدي غصن الندى من كـفه وجنت بـه روض السرور منـورا
حسبي على الصنع لـذي اولاه ان اسعـى بجـد او امـوت فـاعذرا
يا ايها الملك الـذي حـاز المنى وحبـاه منه بمثل حمـدي انـورا
السيف افصح من زياد خطبة في الحرب ان كانت يمينك منبرا
ما زلت تغني من عنى لك راجيا نيـلا وتفنـي من عتى وتجبرا
حتى حـلـلت من الرياسة محجرا رحبـا وضمت منـك طرفـا احورا
شقيت بسيفك امة لم تعتقـد الا اليهـود وان تسمت بربـرا
اثمرت رمحك من رؤس كماتهم لمـا رأيـت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دمـاء ملوكهم لمـا علمـت الحسن يلبـس احمرا
نمقتها وشيـا بذكـرك مذهبـا وفتقتها مسكـا بحمدك اذ فـرا
من ذا ينافحني وذكـرك صندل اوردتـه من نـار فكري مجمـرا
فلئن وجدت نسيم حمدي عـاطرا فلقـد وجـدت نسيم برك معطرا
واليكها كالروض زارته الصبـا وحنا عليـه الطل حتـى نـورا

اما هجو ابن عمار فقد كان مقذعا بذيئا حتى ان ملوك الاندلس كانت تخشى لسانه ، ونرى ذلك واضحا في القصيدة التى هجا بها الوزير ابا بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية لمسعاه عند المعتمـد فى اطلاق سراح ابي عبد الرحمن بن طاهر من سجن ابن عمـار، وفي هذه القصيدة يقول:

بشر بلنسية وكانت جنـــة ان قد تدلت في سواء النار
جاروا بني عبد العزيز فانهم جروا اليكم اسوأ الاقدار
ثوروا بهم متأولين وقلدوا ملكا يقوم على العدو بثار
هذا محمد او فهذا احمـــد وكلاهما اهل لتلك الدار

جاءُ الوزير بها يكشف ذيلها عن سوأة سوأى وعار عار
نكث اليمين وحاد عن سنن العلا وقضى على الاقبال بالادبار
آوى لينصر من نای المثوى به ودهاه خذلان من الانصار
ما كنتم الا كأمة صالح فرميتم من طاهر بقذار
هلا وخصكم بأشام طائر ورمى دياركم بالام جار
بر اليمين ولم يعرض نفسه ونفوسكم لمصارع الفجار
لا بد من مسحم الجبين فانما لطمته عذرا غير ذات سوار
هيهات يطمع في النجاة لطالب ساع اذا دنت الكواكب سار
كيف التغلب بالخديعة من يدي رجل الحقيقة من بني عمار
رجل تطعمه الزمان فجاءه طرفين فى الاخلاء والامرار
سلس القياد الى الجميل فان يهج يدع العنان كهيئة التيار
طبن باغراض الامور مجرب فطن باسرار المكائد دار
ماض اذا برزت اليه مصمم مولى اذا التفت عليه مدار
ما زال مذ عقدت يداه ازاره فسما فادرك خمسة اشبار
كشاف مظلمة وسائس امة نفاع اهل زمانه الضرار
عجبا لاشمط راضع ثذي الوغى منه وطود في القنا الخطار
شراب اكواس المدام وتارة شراب اكواس الدم المواد
جرار اذيال القنا طنوا به قد زاركم فى الجحفل الجرار
وكانكم بنجومه ورجومه تهوى اليكم من سماءُ غبار
وانا النصيح فان قبلتم فاتركوا آثارها خبرا من الاخبار
قوموا الى الدار الخبيثة فانهبوا تلك الذخائر من خبايا الدار
وتعوضوا من صفرة حبشية باغر وضاح الجبين نضار (1)

---

1) راجع عن شعر ابن عمار، قلائد العقيان ص 61 ، 83. وما بعدها والخريدة ج 11 ص 164 - 175. المعجب ص 68 - 79.

هو من علية الشعراء الذين اشتمل عليهم بلاط المعتمد وهو صديق حميم للوزير ابن عمار السابق الذكر، وكان كابن عمار صديقه مدمنا على شرب الخمر ومتعلقا باذيال الغلمان، ولعله قد بذ ابن عمار في هذا الميدان حتى «ان الانفراد بهم كان عليه محجورا، وكان من اجلهم ممقوتا مهجورا» (1).

ولقد شذ ابن وهبون في شعره عن ابناء زمانه بعض الشذوذ اذ بينما شعراء عصره قد برعوا في المديح والوصف والغزل وغير ذلك. من اوصاف انواع المدنية في عصره، نرى ابن وهبون يشارك قومه في ذلك ويزيد عليه نوعا آخر من الشعر وهو الشعر الفلسفي الذي قل وجوده في الاندلس ولعل ابن وهبون قد قرأ شيئا من شعر المتنبي وابي العلاء المعري، فتاثر بفلسفتهما اذ نراه يحاول تقليد طريقتهما ومجاراتهما في فلسفتهما فيقول:

نفسي وجسمي ان وضعتهما معا ... آل يذوب وضخره خلقاء
لو تعلم الاجيال كيف مآلها ... علمي لما امتسكت لها ارجاء
انا لنعلم ما يراد بنا فلم ... تعيا القلوب وتغلب الاهداء
طيف المنايا في اساليب المنى ... وعلى طريق الصحة الادواء
تتعاقب الاضرار مما قد ترى ... جلبت عليك الحكمة الشنعاء
ماذا على ابن الموت من ابصاره ... ولقائه ؟ هل عقت الانباء ؟
ايغرني ان يستطيل بي المدى ... وانا بحيث تواطت الغبراء ؟
لم ينكر الانسان ما هو ثابت ... في طبعه لو صحت الآراء

1) قلائد العقيان ص 244

ونظير موت المرء بعد حيـــاته   ان تستوي من حسنه الاعضـــاء

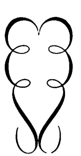
غير ان ادباء عصره لم يألفوا هذا النوع من التفكير فاستقلوا من ابن وهبون هذا الخيال الفلسفي وتأنفوا من صاحبه فنرى ابن بسام يعلق على هذا الشعر بقوله : «وهذا معنى فلسفي قلما عـرج عليه عربي وانما فزع اليه المحدثون منالشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب، وعدمو رونق كلام الاعراب، فاسرعوا الى هذا الهذيان، اسراعالجبان الى تنقص اقرانه ، واستجادة سيفه وسنانه. وقد قال بعض اهـل النقد انه عجيب في الشعر والنثران ياتي الشاعر او الكاتب بكلمة من كلام الحكماء او بالفاظ الفلاسفة القدماء. واني لاعجب من ابي الطيب على سعة نفسه، وذكاء قبسه ، فانه اطال قرع هذا الباب والتمرس بهذه الاسباب ، وكذلك المعري كثـر به انتزاعه وطال اليه ايضاعه حتى قال فيه اعداؤه واشياعه ، وحسبك من شر سماعه» .

ولابن وهبون اشعار جميلةفي غير الفلسفة فيحكى عنه انهركب باشبيلية زورقا في ليلة مظلمة مع جماعة كان بينهم غلام جميل بيده شمعتان، فقال ابن وهبون في ذلك :

اعجب بمنظر ليلة ليلاء   تحيا بها اللذات فوق الماء
في زورق يزهى بغرة اغيد   يختال مثل البانة الغناء
قرنت يداهالشمعتين بوجهه   كالبدر بينالنسر والجوزاء
والتاج تحت الماء ضوءجبينه   كالبرق يخفق فيغمام سماء

وله متغزلا :

ان سرت عنك ففي يديك قيادي   او بنت عنك فما يبين فؤادي
حيرت. فكري في بعادك مؤنسي   وجعلت لحظي من بعادك زادي



1) راجع عن عبد الجليل ابن وهبون وشعره، قلائد العقيان ص 242 - 244. الذخيرة قسم 2 ص 301 وما بعدها . الخريدة ج 11 ص 176 - 180. مسالك الابصار ج 11 ص 219 وبلاغة العرب فى الاندلس 123 - 130.

فهرس لاهم الحـــــــــــوادث

اهم الحـــــــــــوادث	السنة الهجرية	السنة الميلادية
خلافة هشام الثاني المؤيد	366	
وفاة المنصور بن ابي عامر	374	
عبد الملك بن المنصور يخلف اباه في الحجابه	374	
وفاة عبد الملك بن المنصور	399	
عبد الرحمن بن المنصور يخلف اخاه في الحجابه	399	
عبد الرحمن بن المنصوريستصدر مرسوما من الخليفة بجعله وليا للعهد	399	
ثورة محمد الثاني المهدي وانتزاعه الخلافة من هشام الثاني المؤيد	399	
ثورة سليمان المستعينعلىمحمد الثاني المهدي وانتزاعه الخلافة منه	400	
مبايعة هشام المؤيد مرة ثانية	401	
وفاة هشام المؤيد	403	
خلافة علي بن حمود بقرطبة	406	
اغتيال علي بن حمود	408	
خلافة القاسم بن حمود	408	
نبيل الصقلبي يستقل بالحكم في طرطوشه	410	
ثورة يحيى بن حمود على عمه القاسم	412	
استقلال عبد الله بن الافطس ببطليوس	413	
اهل قرطبة يبايعون لعبد الرحمن المستظهر	414	

اهم الحـــــوادث	السنة الهجرية	السنة الميلادية
خلافة محمد بن عبد الرحمن المستكفي	414	
زاوي بن زيري يستقل بحكم غرناطة	414	
القاضى ابو القاسم يؤسس دولة بني عباد باشبيلية	414	
خلافة هشام الثالث المعتمد بقرطبة	418	
يحيى بن حمود يحاصر اشبيلية.	419	
اعتراف القاضي بن عباد بسلطة يحيى.	419	
النزاع بين القاضى وابن الافطس على مدينة باجة.	419	
عقد الصلح بين القاضي وابن الافطس.	421	
سقوط دولة بني امية بالاندلس.	422	
ابو الحزم بن جهور يقيم حكما جمهوريا بقرطبة .	422	
ابن الافطس يوقع بالجيش الاشبيلي.	425	
القاضي ينادي بهشام المؤيد خليفة.	427	
الحرب بين القاضي ويحيى بن حمود ومقتل يحيى.	427	
مجاهدالعمري يستقل بحكم دانية.	427	
بنو حمود يستقلون بحكم مالقة والجزيرة الخضراءوسبتة	427	
خصومالقاضي يؤلفون حلفا ضدهويغيرون على اشبيلية	429	
باديس بن حبوس يخلف اباه على غرناطة.	430	
باديس بن حبوس يخوض المعركة ضد حليفه زهير العامري ويقتله .	430	
استيلاء عبد العزيز بن المنصور على المرية	430	
بنو هود يستقلون بسرقسطة	431	

اهم الحوادث	السنة الهجرية	السنة الميلادية
سقوط اسماعيل بن القاضي قتيلا فى معركة بينه وبين البربر.	433	
وفاة القاضي بن عباد	433	
المعتضد يخلف اباه في الحكم	433	
بنو صمادح يستقلون بحكم لورقة	433	
ظهور دعوة المرابطين	434	
سقوط عبد الله البزالى قتيلا في معركة بينه وبين جيش اشبيلية .	434	
اهل طليطلة يبايعون للمأمون بن ذي النون	436	
المأمون بن ذي النون يعترف بسلطه هشام المؤيد	436	
المعتضد يستولي على مارتله	436	
علي بن مجاهد يستقل بحكم دانية	437	
بيعة المظفر بن الافطس ببطليوس	437	
البربر يؤلفون حلفا للدفاع عن صاحب لبلة	439	
المظفر الاول بن مزين يستقل بحكم شلب	440	
المعتضد يخرب بلاد ابن الافطس	442	
عقد الصلح بين المعتضد وابن الافطس.	443	
المعتضد يستولي على مدن. لبلة، شلطيش، شنتمرية الغرب	443	
تأليف حلف من اشبيلية وقرطبة وبطليوس ضد طليطلة.	443	
المعتضد يقتل المظفر بن مزين صاحب شلب	445	
استيلاء المعتضد على الجزيرة الخضراء	446	

اهم الحـــــــــــوادث	السنة الهجرية	السنة الميلادية
باديس بن حبوس يستولي على مالقـة	449	
المعتضد يحاول انتزاع مالقـة من باديس	449	
فرديناند يغير على بلاد ابن الافطس وينتزع منه عدة حصون	449	1057
المعتضد يغدر بزعماء البربر ويقتلهم في الحمام	450	
المعتضد يقتل ابنه اسماعيل	450	
المعتضد ينعي هشام المؤيد لملوك الاندلس	451	
وفاة عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين	451	
تشييد مدينة مراكش	454	
استلاء المعتضد على شلب	455	
يوسف بن تاشفين يستولي على مدينة فاس	455	
نزول ابن الوليد بن جهور عن حكم قرطبة لابنيه	456	
فرديناند يستولي على مدينتي قلمرية وبربشتر	456	1063
الجيش الاسلامي يسترد بربشتر	457	1064
استيلاء المعتضد على مورور	458	
استيلاء المعتضد على اركش وسائر بلاد شذونة	458	
استيلاء المعتضد على رندة وقرمونية	459	
وفاة المعتضد وولاية ابنه المعتمد	461	
استلاء المعتمد على قرطبة وسقوط دولة بني جهور	462	
انهزام الجيش الاشبيلي بمرسية	466	

اهم الحـــــــوادث	السنة الهجرية	السنة الميلادية
المأمون بن ذي النون ينتزع قرطبة من المعتمد	467	
المعتمديسترجع قرطبة	469	
سقوط مرسية في يد ابن عمار	471	
المعتمد يعقد معاهدة الصداقة بينه وبين الاذفونش	471	1079
الاذفونش يعلن الحرب على القادر بن ذي النون	471	1079
ثورةاهل طليطلة ضد القادر بن ذي النون	471	
اهل طليطلة يبايعون للمتوكل ابنالافطس	472	
حصار القادربن ذي النون والاذفونش لطليطلة	474	1082
يوسف بن تاشفين يستقبل الوفد الاندلسيبمدينة فاس	474	
استيلاء الاذفونشعلى طليطلة	478	1085
عبور المرابطين الى الاندلس	479	
موقعة الزلاقة	479	1086
الاذفونش يستأنف غاراته على بلاد المسلمين	480	1087
عبور يوسف الى الاندلس مرة ثانية	481	1088
حصار المسلمين لحصن لبيط	483	1090
عبور يوسف الى الاندلس مرة ثالثة	483	1090
استيلاء المرابطين على غرناطة .	483	
سقوط اشبيلية في يد المرابطين	484	
وفاة المعتمد	488	

فهرس المراجع
مرتب حسب اسماء المؤلفين

✡ ابن الابار، ابو عبد الله، محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن احمد بن ابي بكر القضاعي المتوفى سنة 658 هـ.

1 ـ التكملة لكتاب الصلة. (طبعة مجريط سنة 1889 م).

2 ـ المعجم فى اصحاب القاضي الامام ابي علي الصدفي، (طبعة مجريط سنة 1886م).

3 ـ الحلة السيراء. (طبعة ليدن سنة 1847 م).

✡ ابن ابي اصيبعة، موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس بن ابي أصيبعة المتوفى سنه 668 هـ.

4 ـ عيون الانباء فى طبقات الاطباء (مخطوط).

✡ ابن ابي دينار، ابو عبد الله محمد بن القاسم الذي كان على قيد الحياة سنة 1110 هـ.

5 ـ المؤنس فى اخبار افريقية وتونس (طبعة تونس سنة 1286 هـ).

✡ ابن ابي زرع، ابو الحسن (او ابو علي) الفاسي الذي كان على قيد الحياة سنة 1286 هـ.

6 ـ الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار المغرب، وتاريخ مدينة فاس (طبعة اوبسا له سنة 1843 م).

☆ ابن الاثير عز الدين، علي بن ابي الكرم المتوفى سنة 630 ﻫ.

7 ـ الكامل في التاريخ (طبعة مصر سنة 1301).

☆ ابن بسام، ابو الحسن علي بن (بسام الشنتريني المتوفى سنة 542 ﻫ

8 ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة (القسم الاول طبعة مصر سنة 1358 ﻫ. سنة 1939 م، والقسم الثاني مخطوط بدار الكتب، والقسم الثالث نسخة مخطوطة مستعارة من العراق لجامعة فؤاد الاول. والقسم الرابع طبع منه الجزء الاول بمصر، والجزء الثاني مخطوط بجامعة فؤاد الاول).

☆ ابن بشكوال، ابو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى المتوفى سنة 578 ﻫ.

9 ـ الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم، وفقهائهم، وادبائهم (طبعة مدريد سنة 1883 م).

☆ ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم، المتوفى سنة 456 ﻫ.

10 ـ طوق الحمامة فى الالفة والآلاف (طبعة دمشق سنة 1349 ﻫ).

☆ ابن حمديس، ابو محمد عبد الجبار بن ابي بكر محمد، المتوفى سنة 527 ﻫ.

11 ـ ديوان ابن حمديس (طبعة رومية سنة 1897 م).

٭ ابن حوقل، ابو القاسم محمد الذي كان على قيد الحياة سنة 367 هـ.
12 ـ المسالك والممالك (طبعة ليدن سنة 1873 م)

٭ ابن الخطيب، لسان الدين ابو عبد الله، محمد بن عبد الله السلماني المتوفى 776 هـ.
13 ـ الاحاطة في اخبار غرناطة، طبعة القاهرة سنة 1219 هـ.
14 ـ اعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام، طبعة باريس.
15 ـ الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية، طبعة تونس سنة 1329 هـ.
16 ـ رقم الحلل فى نظم الدول، طبعة تونس سنة 1316 هـ.

٭ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المتوفى سنة 808 هـ .
17 ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، (طبعة بولاق سنة 1284 هـ).

٭ ابن خلكان، احمد بن محمد بن ابراهيم، شمس الدين ابو العباس البرمكي الاربلي، المتوفى سنة 681 هـ .
18 ـ وفيات الاعيان (طبعة مصر سنة 1310 هـ).

٭ ابن خير، ابو بكر محمد بن خير خليفة الاشبيلي، من علماء القرن السادس .
19 ـ فهرس ما رواه عن شيخه من الدواوين المصنفة فى صنوف العلم وانواع المعارف . (طبعة سرقسطة سنة 1893 م) .

٭ ابن زيدون، الوزير ابو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب، المتوفى سنة 463 هـ .
20 ـ ديوان ابن زيدون . (طبعة مصر سنة 1351 هـ سنة 1932 م).

✡ ابن عذاري، ابو عبد الله محمد المراكشي من علماء القرن السابع الهجري .

21 ـ البيان المغرب، (الجزء الاول والثاني طبعة ليدن سنة 1848 م ـ 1851 م) (والجزء الثالث طبعة باريس سنة 1930 م) .

✡ ابن عبد المنعم الحميري، ابو عبد الله محمد بن عبد الله من علماء القرن التاسع الهجري .

22 ـ صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، (طبعة مصر سنة 1937 م) .

✡ ابن الفرض، ابو الوليد عبد الله محمد بن يوسف الازدي القرطبي المتوفى سنة 403 هـ .

23 ـ تاريخ علماء الاندلس . (طبعة مدريد سنة 1890 الى سنة 1891 م).

✡ ابن فضل الله العمري، شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى المتوفى سنة 749 هـ .

24 ـ مسالك الابصار، في اخبار ملوك الامصار .(نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي).

✡ ابن القوطية، ابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، المتوفى سنة 367 هـ .

25 ـ تاريخ فتح (افتتاح) الاندلس، (طبعة مجريط سنة 1868م).

✡ ابو الفداء، اسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب عماد الدين الايوبي، المتوفى سنة 732 هـ .

26 ـ مختصر تاريخ البشر (طبعة القسطنطينية 1286 هـ ـ 1869 ـ 1270 م) .

27 ـ تقويم البلدان (طبعة درسدن سنة 1846 م) .

☆ احمد زكي باشا، المتوفى سنة 1354 هـ.
28 ـ السفر الى المؤتمر (طبعة بولاق سنة 1311 ـ 1893 م).

☆ احمد ضيف،
29 ـ بلاغة العرب في الاندلس (طبعة مصر سنة 1342 هـ سنة 1924 م).

☆ الادريسي، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسي، المتوفى سنة 560 هـ .
30 ـ صفة المغرب . وهي منتخبة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (طبعة ليدن سنة 1864 م).

☆ استانلي لينبول.
31 ـ قصة العرب في اسبانيا، (طبعة دار المعارف سنة 1944م) ترجمة علي الجارم بك.

☆ الاصبهاني، الوزير ابو عبد الله محمد بن ابي الرجاء حامد ابن محمد، الكاتب الاصبهاني المتوفى سنة 597 هـ.
32 ـ خريدة القصر، وجريدة اهل العصر، (نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي).

☆ أمير علي، سيد .
33 ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي. (طبعة مصر سنة 1938 م).

☆ حاجي خليفة مصطفى، كاتب شلبي المتوفى سنة 1067 هـ .
34 ـ كشف الظنون عناسامي الكتب والفنون. (طبعة لندن سنة 1842م).

☆ البتنوني ، محمد لبيب .
35 ـ رحلة الاندلس. (طبعة مصر سنة 1927 م).

٭ البكري، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن ايوب عمرو ، المتوفى سنة 487 هـ .

36 ـ المغرب في ذكر افريقية والمغرب وهو جزء من الكتاب المعروف بالمسالك والممالك. (طبعة الجزائر سنة 1910 م).

٭ الثعالبي، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي المتوفى سنة 429 هـ .

37 ـ يتيمة الدهر، في شعر اهل العصر. (طبعة دمشق سنة 1303 هـ).

٭ الخشني ، ابو عبد الله محمد بن الحارث الخشني القروي المتوفى سنة 330 هـ .

38 ـ القضاة بقرطبة. (طبعة مدريد سنة 1914 م) .

٭ دوزي .

39 ـ ملوك الطوائف، ونظرات في تاريخ الاسلام، ترجمة كامل كيلاني. طبعة مصر سنة 1933 م ـ 1351 هـ) .

٭ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي، المتوفى سنة 911 هـ .

40 ـ بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة. (طبعة مصر سنة 1326 هـ).

٭ شكيب ارسلان ، الامير .

41 ـ الحلل السندسية، في الاخبار والآثار الاندلسية .
طبعة مصر 1355 هـ 1936م) .

42 ـ خلاصة تاريخ الاندلس، وهو ذيل على رواية آخر بني سراج، طبعة مصر 1343 هـ 1925م).

☆ صاعد ، القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد، المتوفى سنة 463 هـ.
43 ـ طبقات الامم، (طبعة مصر) .

☆ علي ادهم .
44 ـ منصور الاندلس (طبعة الحلبي بمصر).

☆ الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، المتوفى سنة 310 هـ .
45 ـ تاريخ الامم والملوك. (طبعة مصر 1326 هـ).

☆ الضبي ، ابو جعفر احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة .
46 ـ بغية الملتمس، في تاريخ علماء الاندلس. (طبعة مدريد سنة1868م).

☆ الفتح بن خاقان ، الوزير ابو نصر الفتح بن محمد بن خاقان،
المتوفى سنة 535 او سنة 529 هـ.
47 ـ قلائد العقيان، (طبعة بولاق سنة 1283 هـ) .
48 ـ مطمح الانفس، ومسرح التأنس، في ملح اهل الاندلس. (طبعة دمشق سنة 1302 هـ) .

☆ فيليب حتى.
49 ـ تاريخ العرب، (ترجمة خاصة للاستأذ مبروك نافع) .

☆ القلقشندى، ابو العباس احمد المتوفى سنة 821 هـ .
50 ـ صبح الاعشى، في صناعة الانشاء (طبعة مصر سنة 1913 ـ 1917م).

☆ الكتبي ، فخر الدين محمد بن شاكر الحلبي، المتوفى سنة 764 هـ.
51 ـ فوات الوفيات. (طبعة بولاق سنة 1299 هـ) .

☆ كرد علي، الاستاذ محمد .
52 ـ الاسلام والحضارة العربية. (طبعة مصر سنة 1349 هـ) .
53 ـ غابر الاندلس وحاضرها. (طبعة مصر سنة 1341 هـ) .

☆ المراكشي ، محي الدين ابو محمد عبد الواحد المراكشي، من علماء القرن السابع الهجري .
54 ـ المعجب، في تلخيص اخبار المغرب. (طبعة مصر سنة 1324 هـ).

☆ المقري ، احمد المقري، المتوفى سنة 1041 هـ.
55 ـ نفح الطيب، من غصن الاندلس الرطيب. (طبعة مصر سنة 1302 هـ).

☆ الناصري ، احمد بن خالد الناصري المتوفى سنة 1315هـ .
56 ـ الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى. (طبعة مصر سنة 1304 هـ).

☆ ياقوت: شهاب الدين ابو عبد الله الحموي الرومي، المتوفى سنة 626 هـ.
57 ـ ارشاد الاريب، في معرفة الاديب.(طبعة مصر سنة 1357 هـ سنة 1938م).
59 ـ معجم البلدان، (طبعة مصر سنة 1323 هـ سنة 1906 م) .

☆ يوسف اشباخ.
59 ـ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة عبد الله غان. (طبعة مصر 1359 هـ ـ 1940 م) .
ورجعنا ايضا الى
65 ـ اخبار مجموعة في تاريخ الاندلس، لمؤلف مجهول. (طبعة مدريد سنة1867م).
67 ـ الاستبصار، في عجائب الامصار، لمؤلف مجهول كان على قيد الحياة سنة 587 هـ. (طبعة فينا سنة 1852م).
62 ـ تراث الاسلام. (اخرجته لجنة الجامعيين لنشر العلم. طبعة مصر سنة 1936م) .

63 ـ دائرة المعارف الاسلامية.

64 ـ تاريخ اسكوت.

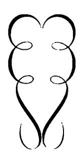
The Moorish Empire in Spain.
By Seett.

65 ـ تاريخ كونـدي

Histery of the Deminatión of the Arabs in Spain.
By Conde.

66 ـ النقود العربية الاسبانية لفرنسيسكو كوديرا.

Numismática Arábigo-Española por' Don Francisco, Codera y Zaidin .



فهرس الرسالة

فهرس الخطأ والصواب

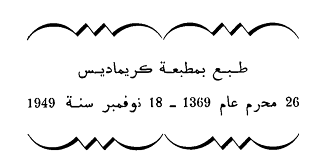
خطأ	صواب	صفحة	سطر
وكانت القبلية	وكانت العصبية القبلية	17	8
اشتبكوا عليهم	اشتبكوا معهم	18	19
بن جهود	بن جهور	33	18
اليغرني	اليفرني	40	5
الاشيليون	الاشبيليون	41	7
المعتذر	المتعذر	48	2
يحيى بن بنى على	يحيى بن على	52	8
الا الاهالى	الا ان الاهالى	55	19
بني بى عباد	بني عباد	56	1
ايوب عن عامر	ايوب بن عامر	58	11
وتركموه	وتركوه	59	16
سرضيا	مريضا	59	19
الاحد بقيت	الاحد لليلة بقيت	62	13
بالمعتمد العباسى	بالمعتضد العباسي	64	13
ناقتي اعوجي	ناقتي عوجي	65	25
مزوعة	مزروعة	69	13
يوعو	يدعو	70	6
المتآمرون	المتآمرين	73	12
لفط	لقط	76	16

خطأ	صواب	صفحة	سطر
ذنب	ذنبا	77	18
ابن القاسم	ابي القاسم	81	8
ابى فتخ خلف	ابي نصر فتح بن خلف	82	6
ابن العز	ابنه العز	84	17
اترف	اثر في	85	9
القيانات	القينات	85	10
متظاهر	متظاهرا	93	8
رنيان	يرنيان	94	21
واقاموا	واقاموهم	95	9
الزفاقين	الرقاقين	97 ، 96	21 ، 2
ليزيدوا	ليزيد	96	7
مغير	يغير	97	22
افادتنا لا	افادتناك	99	13
حزد	حزم	103	10
الحدء	الحدود	103	11
الوم	القوم	105	2
جملني	جعلني	105	3
فصار	فسار	105	15
قرطبة سنة فتقلد	قرطبة فتقلد	117	19
يشأو الامير	بشأو الاصيد	120	12

خـطـأ	صواب	صفحة	سطر
ام اعرج عن	ام اعوج عن	123	11
قصر الامارات	قصر الامارة	125	11
وذا فلم	واذاً فلم	127	8
ابن عبد الرحمـن	ابي عبد الرحمن	128	14 - 12
ابن بكر	ابي بكر	128	15
بشمائلهما	بدمائهما	130	18
المرزتقة	المرتزقة	135	4
وبأي شيء؟ قالوا	وبأي شيء تطمعون؟	139	10
حقوا	حثوا	140	19
اطباع	اطماع	141	3
مثل هذه الا النسيم على	مثل هذه الابيات الرقيقة	146	4
كلفته	تكلفته	146	10
بابن بكر	بأبي بكر	147	14
مجلسح	مجلح	151	3
ابن عمران	ابي عمران	155	7
جداله الحرب	جدالة وهي الحرب	157	15 - 14
سيعبون	سيعبرون	159	5
يبعث	يبعثا	160	3
الذي	الذين	160	15
يعد	يعر	160	15
عبد الله حبوس	عبد الله بن حبوس	160	20

خطأ	صواب	صفحة	سطر
اقصارها	اقطارها	162	8
رجـالـه	رجالك	163	11
اعضائه	اعضاؤه	164	20
بوعد	بوعده	165	2
ابى الامير	الى الامير	167	3
وزرائنا	وزراؤنا	175	5
يخطب	يحض	178	17
المسلمين	المسلمون	183	6
مقتبطة	مقتضبة	183	22
تعرضن لي	تعرض لي	198	7
لا تعرض	لا تعرضن	198	7
يوسف الاندلس	يوسف من الاندلس	198	13
المعتمد	المعتد	203	10 - 2
بحزن	بمزن	204	1
عرينة	عريسة	204	3
لهمو	اهم	204	3
مذ فقد	مذ فقدت	209	6
قبره نشر	قبره في نشز	209	15
لم ازورك	لم لا ازورك	209	18
وجد كاتبا	وجدت كاتبا	210	6
أحد من ياتي	احد ممن يأتي	210	12

خطأ	صواب	صفحة	سطر
سقيت	شفيت	211	18
ينوب على	ينوب عن	214	18
الفناء	الغناء	234	7
قد اعالك	قد اعدالك	234	9
يوما اشبيلية	يوما حماما باشبيلية	246	16
دركها	داركها	248	9
وان وجدا	وان وصفت وجدا	249	16
ابن احمديس	ابن حمديس	249	25
والصراحة	والصرامة	250	2
بالفرمة	بالغرمة	251	10
ابن محمد	ابى محمد	255	15
وركضى	وركض	265	10
حصيرات	حسيرات	265	18
احسبه	احسب	267	9
اليس	ليس	267	24
اذا كان	اذ كان	268	1
الحضيضى	الحضيض	268	3
وصخره	وصخرة	273	14
فاستقلوا	فاستثقلوه	277	2
المعتمد	المعتد	277	4
البزالي	البرزالي	278	7



طبع بمطبعة كريماديس

26 محرم عام 1369 ـ 18 نوفمبر سنة 1949